Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

نساء صغيرات

الجزء الثالث

تأليف : لويزا م. الكوت

ترجمة : أمينة السعيد

دار المعارف بمصر

نساءصغيرات

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

نساء صغيرات

٣

تأليف

لويزا م. الكوت

ترجمة

أمينة السعيد

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر
١٩٥٥

893.785
Al 9

pt.3

الصور الملونة والرسوم من عمل لويس جامبور
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطبـــاعة والنشر
بشراء حق نشر الصور من صاحب هذا الحق

This is a translation of Chapters XXIV to XXXIV from Little Women by Louisa M. Alcott. Color prints and drawings by Lois Jambor reproduced by special permission of Copyright owner. Copyright 1947 Crosset and Dunlop.

Gift
FRANKLIN PUBLICATIONS, INC.
AUG 21 1956

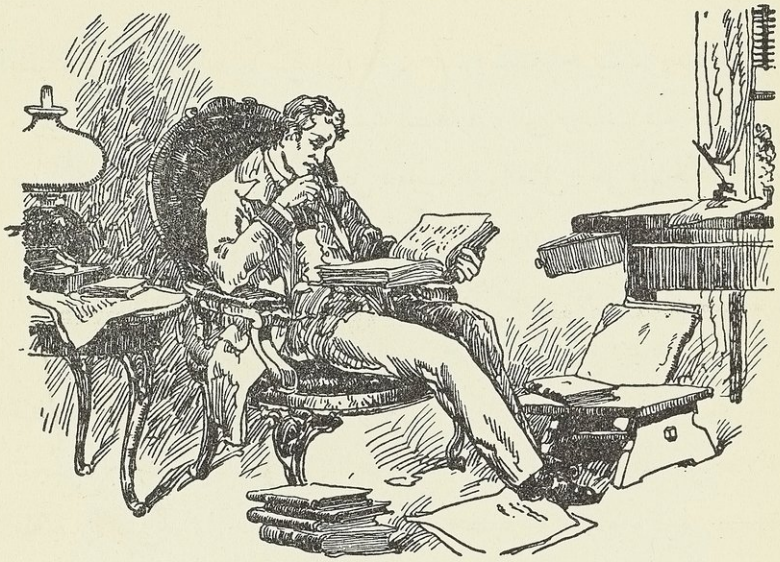

الفصل الرابع والعشرون

ثرثرة

من المستحسن أن نستهل هذا الفصل من القصة بحديث عن أسرة مارش ، حتى نذهب إلى زفاف ميج ، وقد نسينا كل أثر للماضى . وإذا اعترض أحد من الكبار على ما تفيض به القصة من عواطف وغزل ، فسنردد قول مسز مارش : « وماذا تنتظرون غير ذلك ، ولى أربع فتيات مرحات يصاحبهن فتى جذاب فى ريعان الشباب ؟ » وعلى أى حال مهما اعترض الكبار ، فإن الشباب لن يعترض على مغامرات الهوى فى هذه القصة .

والواقع أن السنوات الثلاث التى انقضت ، لم تحدث سوى تغيرات

طفيفة فى حياة هذه الأسرة الوادعة : فقد انتهت الحرب ، وعاد مستر مارش سالماً إلى بيته الحبيب وكنيسته الصغيرة ، التى وجدت فيه خير راع طيب عطوف . ومستر مارش رجل دءوب على العمل . ملىء بالحكمة التى تفضل المعرفة ، تفيض جوانحه رحمة وبرًّا وأخوّة ، وهو يتميز بالتقى والورع الذين يدعمان شخصيته ، ويجعلان منه رجلا مهيباً محبوبا .

وعلى الرغم من فقره ونزاهته ، الذين حرماه من التمتع بمباهج الدنيا ، فإن صفاته الطيبة حببت فيه قلوب أناس كثيرين ، فانجذبوا إليه كما تنجذب جماعة من النحل إلى الزهور العطرة . ولم يبخل هو على هؤلاء المعجبين بشىء مما حباه الله به ، إنما أعطاهم فى سخاء وكرم عصارة تجاربه الشاقة خلال حياته البالغة خمسين عاما . وقد وجد الشباب المتطلع فى هذا العجوز الأشيب الوقور ، قلباً فتيًّا لا يقل عن قلوبهم حرارة ، وكان النساء المثقلات بالهموم ، يلجأن إليه بأحزانهن ، فيجدن منه حنان الصدر وصواب النصح . وكان المذنبون يعترفون لهذا الرجل التقى بذنوبهم ، فيلومهم على ما بدر منهم ، ثم يقودهم إلى بر السلام النفسى . وكان ذوو المواهب يجدون فيه نعم الرفيق ، أما أهل الطموح فكانوا يأخذون عنه طموحه الشريف ، وحتى أصحاب الأغراض الدنيوية كانوا يعترفون بجمال آرائه وصدقها ، وإن كانت لا تحقق لهم كسباً ماديا .

وكان يبدو ظاهراً أن إدارة البيت إنما هى فى يد النساء الخمس الممتلآت حيوية ونشاطا ، ولكن الحقيقة الخافية أن رأس الأسرة المفكر ، وقلبها

الموجه ، كان ذلك الشيخ القابع بين كتبه ، فكان النساء يلجأن إليه فى أعصب الظروف ، وينشدن عنده طمأنينة النفس وهدوءها ، ويجدن فيه حنان الزوج والأب والصديق .

وكان البنات يسلمن مقاليد قلوبهن إلى الأم ، ويعهدن بزمام نفوسهن إلى الأب ، ويولين هذين الوالدين اللذين يكدان ويكدحان من أجلهن ، حبًّا ينمو مع الأيام ويزداد ، فيربطهن إليهما برباط وثيق جميل ، تنعم به الحياة ، ويخلد بعد الموت .

وكانت مسز مارش كعهدها نشيطة باشة ، وإن كان المشيب قد كسا رأسها أكثر من ذى قبل ، ولم يكن لها هم الآن سوى تهيئة شئون ميج ، وقد شغلت هذه المهمة وقتها ، حتى حرمت المستشفيات والبيوت — التى ما زالت تعج بالجرحى والأرامل — من زياراتها وعطفها الأموى .

أما چون بروك ، فقد لبى داعى الوطن ، فالتحق بالجيش مدة عام ، ولكنه جُرح فى نهايته ، فأعيد إلى بلاده ، ولم يسمح له بالقتال ثانية ، ولذلك لم يزين صدره بأوسمة أو نياشين ، رغم أنه كان يستحقها جزاء تضحيته بحبه ومغامرته بحياته ، وهما أثمن ما لديه فى الوجود . وخضع چون لما قضى عليه به من تسريح ، وكرس نفسه للعناية بصحته ، والاستعداد لعمل يمارسه ، ولأعداد بيت الزوجية لميج . ولقد أبى عليه استقلاله وتواضعه أن يقبل العروض السخية التى قدمها له مستر لورنس ، وآثر قبول وظيفة أمين مكتبة ، قانعاً بمرتبها الصغير ، الذى يكسبه بكده وكدحه

عن المغامرة بمال يقترضه من مستر لورنس .

وراحت ميج تصرف وقتها بين العمل والانتظار ، وقد نمت فيها شخصية المرأة ، وازدادت خبرتها بشئون البيت ، كما بعث الحب فيها جمالا على جمال ، فأصبحت بهجة للأنظار . وكانت ميج ، ككل فتاة فى مثل سنها ، ذات مطامع وآمال ، فعز عليها أن تكون بداية حياتها الجديدة متواضعة متقشفة . وكان نيد موفات قد تزوج بسالى جاردنر ، وأصبح من العسير على ميج أن تقارن أحوالها المعيشية البسيطة ببيتهما الجميل ، وعربتهما الفاخرة ، وهداياهما الكثيرة ، ومظاهرهما الفخمة . وكم تمنت أن يكون لها مثل ما لصديقتها ، ولكن الغيرة لم تلبث أن انحسرت تماماً حين لمست مدى الجهد البالغ الذى يبذله جون فى تهيئة بيت صغير عامر بالحب والإخلاص . وحين جلست معه ذات يوم تحت الشفق الجميل ، تتحدث عن مشروعاتهما الصغيرة ، بدا لها المستقبل أكثر إشراقاً وجمالا ، حتى نسيت فخامة حياة سالى ، وأحست أنها قد أصبحت بسعادتها أغنى فتاة فى العالم .

وانقطعت چو عن خدمة العمة مارش ، لأن العجوز أغرمت بآمى إلى حد كبير ، وجعلت تغريها على البقاء معها ، بإعداد دروس خاصة لها على أيدى أمهر الرسامين . وانهزمت آمى أمام هذا الإغراء ، وعاشت مع السيدة العجوز ، وكانت تكرس أوقات الصباح لخدمة عمتها ، وبعض الظهر لمسراتها ، ووفقت فى ذلك توفيقاً طيبا . أما چو فقد عملت

على تقسيم وقتها بين دراسة الأدب ، وبين معونة بث ، التى ظلت وقتاً طويلا تعانى من آثار مرضها الشديد . ولم تكن بث عاجزة عن العمل ، ولكنها لم تستطع أن تسترد نشاطها وتورد خديها ، ورغم ذلك ظلت ملك البيت الحارس ، وصديقة أهلها الوفية ، وكانت تقوم بواجباتها مفعمة القلب بالأمل والسعادة .

وكانت چو تفخر بأنها قد أصبحت امرأة ذات دخل ، بفضل ما تنشره لها مجلة « سبريد أيجل » لقاء دولار عن كل عمود فى الصحيفة . وكان نشاطها الكتابى ينحصر فى تأليف قصص غرامية تصوغ موضوعاتها بمنتهى المهارة والبلاغة ، ولكن فكرة جديدة اختمرت ذات يوم فى رأسها المتوقد ، فراحت تملأ بتلك الفكرة صفحات وصفحات من أوراقها الخاصة ، ثم تحتفظ بها فى غرفتها المنعزلة ، راجية أن تخلد بها اسم أسرة مارش ، وترفعه إلى سماك المجد والفخار .

أما لورى فقد واظب على الذهاب إلى الكلية إرضاء لجده ، ثم لم يلبث أن أغرته كبرياؤه بالاجتهاد ، فتصدر صفوف زملائه . وكان الفتى أثيراً عند أقرانه ، لمواهبه وأخلاقه وثرائه ، وكذلك لقلبه الطيب الذى كثيراً ما جلب له المتاعب فى سعيه إلى معونة غيره . وكان لورى معرضاً لأن يفسده التدليل كما أفسد كثيرين غيره من الشباب الموهوبين المترفين ، ولكن الأقدار شاءت أن تحصنه ضد عوامل الشر بفضل الرجل الطيب العجوز مستر مارش ، الذى أخذ على عاتقه أن يوفر له أسباب النجاح ،

وأيضاً بفضل أمومة مسز مارش التى رعته وسهرت عليه كأنه أحد أبنائها ، هذا إلى إحساسه بأن أربعاً من الفتيات البريئات يحببنه ، ويؤمن به فى قرارة قلوبهن .

ولما كان لورى مرحاً بطبعه ، فقد حلا له أن يأخذ بأساليب الغزل والعبث ، ومال إلى التأنق والتظرف ، وأفرط فى طلب المرح والتسلية ، وانقاد إلى الاستهانة ، فكان يتكلم باللغة العامية ، ويستعمل فى أحاديثه ألفاظاً دارجة ، مما عرضه لعقوبة الفصل أكثر من مرة . وكانت أساليبه فى دفع العقاب ، أن يعترف بخطئه نادماً مستغفرا ، أو يتذرع بقوة الإقناع التى وهبه الله منها قسطاً عظيما . وفى الواقع أن لورى كان يفخر بقدرته على التملص من ورطاته الكثيرة ، فيثير إعجاب الفتيات الأربع بقصص انتصاراته على العرفاء الغاضبين ، والأساتذة الموتورين ، والغرماء الناقمين . وكانت الفتيات يعتبرن لورى وأصدقائه أبطالا ، لا تمل الأذن من سماع قصص مغامراتهم ، وكانت بسمات هؤلاء الأصدقاء الأبطال تدفىء صدور البنات ، كلما أتى بهم لورى معه إلى البيت فى عطلاته المدرسية .

وكانت آمى أكثر الفتيات نصيباً من هذه البسمات ، وأوفرهن حظًّا من عناية الفتيان واهتمامهم ، وذلك لتفوقها عليهن فى فهم أسرار الفتنة والجاذبية ، ورعايتها الدائمة لحسنها وأناقتها . وكانت ميج غارقة فى شئون حبها لجون ، فلم تلتفت إلى أحد من هؤلاء الفتيان . وكان الخجل المتمكن من بث يبعدها عن الشبان المرحين ، ويجعلها تقنع بالنظر الصامت إليهم ، وكلها

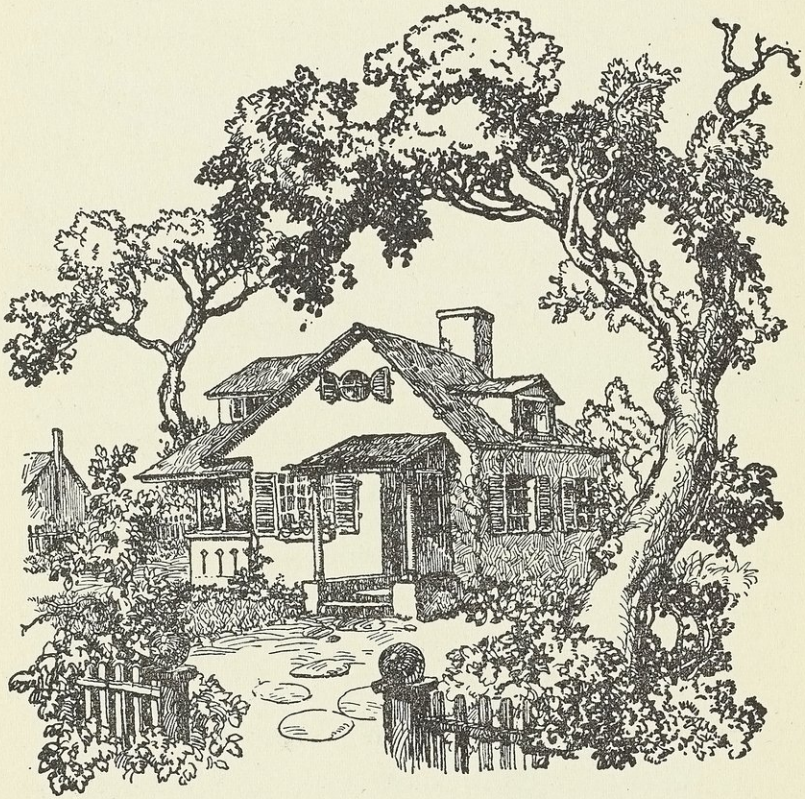

عجب من جرأة آمى معهم . أما چو فكانت بطبعها لا تميل إلى التكلف والتزمت ، فراحت بطريقتها المعهودة تسعى إلى تقليد عبارات هؤلاء السادة ، وأساليبهم من الحديث . وكان الفتيان جميعاً يميلون إلى چو ، ولكن واحداً منهم لم يقع فى غرامها ، على العكس من آمى ، التى تفتحت

قلوبهم جميعاً لحبها ، وكثرت تنهداتهم على محراب حسنها . وما دمنا قد خضنا فى حديث العواطف ، فمن الطبيعى أن نتحدث عن « برج الحمائم » .

و « برج الحمائم » هو الاسم الذى أطلقه لورى على البيت الصغير الداكن ، الذى أعده مستر بروك ، ليكون عش الزوجية الأول . وكان لورى يقول إنه خير مكان يضم الحبيبين الكريمين ، ولقد دخلاه متعانقين كزوج من الحمام . وكان البيت صغيراً جداً ، له حديقة خلفية ضيقة ، وأمامه قطعة من الأرض فى حجم المنديل ، مكسوّة بالنجيل الأخضر . وكانت ميج تود أن تقيم فى تلك الأرض نافورة جميلة ، وتغرس بعض الأشجار وحوضاً من الزهور ، ولكنها اكتفت — اقتصاداً للنفقات — بأن تضع فى مكان النافورة أصيصاً ضخماً ، وفى محل الأشجار بعض العيدان الصغيرة ، وغرست فى حوض الزهور عوداً من الغاب يشير إلى مكان البذور المزروعة . أما داخل البيت فكان جذابا ، ولو أردنا الدقة فى وصفه نقول : إن البهو كان ضيقاً جداً ، ومن حسن حظ ميج أن لم يكن لديها معزف ، وإلا ما بقى فى البهو موضع لقدم . وكانت غرفة الطعام صغيرة ، لا تتسع لأكثر من ستة أشخاص ، وسلم المطبخ أقرب إلى الرمز منه إلى الحقيقة ، ولكن ميج ما لبثت أن اعتادت هذه الأوضاع ، مؤمنة بأنه ما من شىء فى هذه الدنيا يبلغ حد الكمال . وكان الأثاث والمفروشات مختارة بذوق سليم ، فبدا البيت جميلا لا عيب فيه ؛ حقيقة أنه كان يخلو من الموائد المغطاة بالمرمر والمرايا الضخمة ، والستائر الثمينة ، ولكن الأثاث

البسيط ، والكتب والصور الجميلة ، كانت تغنى عن كل ذلك . وكان بجوار النافذة حامل للأزهار ، وهدايا الأصدقاء منثورة هنا وهناك ، وكانت كلها رموز مودة وإخلاص : فما من صانع مهما بلغت مهارته ، بقادر على أن يطرز الستائر الموسلين ، كما طرزتها يد آمى الفنانة . . . ولا كان فى الإمكان تنظيم مخزن الطعام ، كما نظمته چو وأمها ، بتلك الروح الطيبة ، والأمانى الخالصة ، والتمنيات السعيدة . . . ولا كان فى مقدور أحد أن يرتب المطبخ الصغير ، كما رتبته حنة ، التى أعادت تصنيف صحونه وأوانيه عشرات المرات ، لتجعله مريحاً للنظر . أما بث فقد أعدت لأختها ذخيرة وفيرة من المفارش والأكياس ، كفتها سنين طويلة ، حتى عيد زواجها الفضى .

ولعل الذين يستأجرون من يطرز لهم مثل هذه المفارش ، لا يحسون بمدى الفارق بين ما تصنعه الأيدى الأجيرة ، وما تصنعه الأيدى الحبيبة ، ففى ذلك العش الصغير وجدت ميج أكثر من دليل على العواطف الجميلة الجياشة ، إذ كان كل ما فيه — من نشابة الفطير فى المطبخ إلى آنية الزهور فى البهو — ينطق بالمحبة العائلية ، والوفاء الخالص .

ومرت بالأسرة أوقات سعيدة ، انقضت فى رسم خطط المستقبل ، وزيارة الأسواق لشراء لوازم البيت الجديد . وكم وقعت أخطاء مضحكة ، وكم انطلقت ضحكات عالية ، أثارها لورى بطريقته الفكاهية فى مساومة التجار . . . فبالرغم من أنه شارف على التخرج فى كليته ، فقد ظل مرحاً

كما كان شأنه فى صباه . ودأب الصديق الوفى على أن يحضر فى زياراته الأسبوعية ، بعض أشياء تفيد ربة البيت ، منها حقيبة ملآى بمشابك غريبة للغسيل ، ومنها أيضا كسارة للبندق تحطمت عند أول تجربة . . وكان من بين هداياه طلاء للسكاكين أفسد معدنها ، ومكنسة ثبت بالاستعمال أنها تنزع وبر السجاد وتترك الأقذار عليها ، وصابون قُصد به مهمة الغسل ، فإذا به يسلخ الأيدى التى تستعمله . وأحضر لها ذات يوم نوعاً من الصمغ ، ثم اتضح أنه لا يلصق بشىء إلا بأصابع المشترى المخدوع ، وكذلك أحضر لها غلاية للماء يحتمل أن تنفجر فى أية لحظة .

وعبثاً حاولت ميج أن تثنيه عن تقديم هذه الهدايا ، ولكنه كان مصرًّا على إعطاء أصدقائه كل ما هم فى حاجة إليه ، ولذلك ظل يفاجئهم كل أسبوع بنزوة جديدة لا تحقق الغرض المقصود منها .

وأخيراً تم إعداد البيت الجديد ، واكتملت لوازمه حتى الصابون ، فقد حرصت آمى أن تضع الصابون الملون فى الغرف ، كل بما يناسبها ، كما قامت بث بإعداد مائدة الطعام لأول وجبة يتناولها العروسان فى بيتها الجديد.

سألت مسز مارش ابنتها ، وهى تتأبط ذراعها ، عند دخولهما مملكة ميج الجديدة :

ــ أراضية أنت ، وهل تشعرين بالسعادة ، وهل تحسين بأن البيت بيتك ؟

قالت هذا وقد ضمت الفتاة إليها فى حنان بالغ ، فأجابت ميج وهى

تنظر إلى أمها نظرة غنية بالمعانى :

— إنى راضية كل الرضا يا أماه ، ولسانى يعجز عن وصف سعادتى وهنائى ، فشكراً لكم جميعاً .

قالت آمى ، وهى تتجول فى غرفة الاستقبال ، بحثاً عن مكان مناسب تضع فيه التمثال البرونزى .

— لو كان لديها خادم أو خادمان ، لصار الأمر على ما يرام .

أجابت ميج فى هدوء :

— لقد تحدثت وأمى فى هذا الشأن ، وسوف أجرب اقتراحها أولا ، وما دامت « لوتى » قد تعهدت بقضاء حاجاتى الخارجية ، ومساعدتى هنا وهناك ، فلن يبقى بعد ذلك سوى أعمال بسيطة تردُّ عنى الملل والكسل .

قالت آمى :

— إن لدى سالى موفات أربعة من الخدم .

فقاطعتها چو ، وكانت تلبس مرولة زرقاء ، وتقوم بتلميع مقابض الأبواب لآخر مرة :

— لو كان لميج أربعة خدم ، لضاق بهم البيت ، واضطر السيد والسيدة للمبيت فى خيمة بالحديقة .

قالت مسز مارش :

— إن سالى زوجة رجل ثرى ، وبيتها الكبير الأنيق فى حاجة إلى خدم كثيرين ، ولكن ميج وچون يبدآن حياة متواضعة ، ويقينى أنهما سيجدان

فى عشهما ، سعادة أصحاب القصور . وأعتقد أن الخطأ كل الخطأ فى انشغال الفتيات بالزينة والثرثرة ، عن أداء الأعمال التى تملأ الفراغ فى بدء حياتهن . حين تزوجت كنت أتمنى أن تبلى ملابسى ، أو تتمزق ، حتى أشعر بلذة العمل فى إصلاحها ، بعد أن أضنانى الملل وضاق صدرى بتافه الأعمال .

قالت ميج :

ــ ولماذا لم تدخلى المطبخ لتجربى حظك فى الطهى ؟ تقول سالى موفات إنها تتسلى أحياناً بصنع بعض الأطعمة ، ولكنها تفسدها ، فيضحك الخدم منها .

قالت الأم :

ــ وهذا ما فعلته بعد فترة ، فقد دخلت المطبخ لا لأهو ، إنما لأتعلم من حنا كيف أصنع الأشياء ، حتى لا يضحك منى الخدم . وكانت تسلية فى بداية الأمر ، ثم لم تلبث الظروف أن تغيرت ، وجاء اليوم الذى أصبحنا فيه غير قادرين على استئجار الخدم ، وعندئذ حمدت الله على تجارب الماضى التى مكنتنى من أن أخدم بيتى بنفسى ، وأصنع طعاماً صحياً لبناتى الصغيرات . أما أنت يا ميج ، فتبدئين من حيث انتهت أمك ، وستفيدك الدروس التى تتلقينها اليوم ، عندما يثرى چون ، ويصبح رجلا عظيما . من واجب ربة البيت مهما كان بيتها فخماً عظيما ، أن تلم بأسرار العمل فيه ، حتى تؤدى رسالتها بإخلاص وأمانة .

استمعت ميج إلى نصائح أمها فى احترام بالغ ، شأن السيدات المهتمات بأحاديث البيوت وأدواتها . قالت :

— أجل يا أماه ، ولست أشك فى صواب ما تقولين .

وسارت ميج بجانب أمها ، وصعدت معها السلم إلى الدور العلوى ، ثم نظرت إلى خزانة البياضات وقالت :

— أتعرفين يا أماه أن هذه أحب غرفة إلى نفسى فى البيت الصغير كله ؟

وكانت بث تقوم بترتيب المفارش والبياضات فوق الرفوف ، وهى تحس بنشوة من السرور أمام المجموعات المختارة ، فلما سمعت قول ميج ، ضحكت وقد تذكرت قصة لا تخلو من الفكاهة ، وكانت قصة العمة مارش التى تهددت ميج ، عندما صممت على الزواج من بروك ، وصاحت بها قائلة : « إذا تزوجت من هذا البروك ، فلن أعطيك قرشاً واحداً من مالى . ولكن غضب العجوز لم يلبث أن هدأ بعد وقت ، فندمت على سابق وعيدها ، وتحيرت كيف تتخلص منه ، وهى التى تعودت أن تتمسك دائماً بكلمتها . وهداها فكرها إلى حل يرضيها ، فكان أن أمرت مسز كارول أم فلورنس ، بشراء كمية كبيرة من المفارش الثمينة ، ثم كلفتها بأن تقدمها هدية إلى ميج . ولكن السر لم يخف طويلا ، وعرف أفراد الأسرة أن العمة هى صاحبة الهدية ، وكان من دواعى تفككهم ، تظاهر العجوز بالجهل ، كأن المفارش الثمينة لم تشتر من مالها ، ثم إصرارها على

حرمان الفتاة العاصية من ممتلكاتها ، اللهم إلا اللآلئ القديمة ، التى سبق أن وعدت بها أول عروس فى العائلة .

قالت العمة مارش ، وهى تقلب المفارش الحريرية وتفحصها بعين الخبرة :

ــ إنه ذوق بديع يسرنى أن أراه فى البيت الجديد . لقد كان لى صديقة شابة لا تملك غير ست ملاءات للسرير ، ولكنها كانت تعزى نفسها عن هذا النقص بوفرة ما لديها من طاسات لغسل الأصابع .

قالت ميج فى رضا :

ــ ليس عندى طاسة واحدة ، ولكن هذه المجموعة من المفارش تكفينى طول حياتى ، على حد تعبير حنا .

وصاحت چو من الطابق السفلى ، تعلن قدوم لورى ، فنزل سيدات الأسرة للقائه إذ كانت زيارته الأسبوعية حدثاً هاما فى حياتهن الهادئة .

وكان لورى قد أصبح فتى فارع الطول ، عريض المنكبين ، وكان آتياً من الطريق وقد ارتدى معطفاً فضفاضاً وقبعة واسعة ، ولم ينتظر أن تفتح له البوابة الصغيرة ، بل قفز من فوق السور المنخفض ، وتقدم نحو مسز مارش يصافحها بحرارة ويداه مبسوطتان :

ــ ها أنا ذا قد جئت يا أماه ، وكل شىء على ما يرام .

وكانت السيدة قد ألقت عليه نظرة فيها تساؤل عامر بالحنان ، فأجابها بما مضى من الكلام مطمئنا ، وعيناه الجميلتان تفيضان بالمرح والسرور .

قال لورى وهو يعطى ميج طرداً ملفوفاً ، ويشد ضفيرة بث مداعباً ، ويحدق فى مرولة چو الكبيرة ، وينظر إلى آمى فى ابتهال ساخر :

ــ هذه لمسز بروك ، مع تهنئة الصانع وتحيته ... تمنياتى لك يابث... ما أبهى منظرك يا چو . . . أما أنت يا آمى فجمالك أكثر من أن يتوافر لسيدة واحدة .

ثم جعل يصافحهن واحدة بعد واحدة ، قالت ميج :

ــ أين چون ؟

قال :

ــ ذهب يعد الترخيص لحفلة غد .

وسألته چو ، وكانت رغم بلوغها التاسعة عشرة من عمرها ، لا تزال تصر على الاهتمام بأخبار الرجال :

ــ من فاز فى المباراة الأخيرة يا تيدى ؟

قال :

ــ فريقنا بالطبع ، ليتك كنت معنا لترى ما حدث .

سألته آمى ، وهى تبتسم ابتسامة ذات مغزى :

ــ وكيف حال مس راندل الجميلة ؟

فضرب لورى صدره بيده ، وتنهد بحرارة ، وقال :

ــ أشد قسوة من ذى قبل . ألا ترين ذبول وجهى لجفائها ؟

قالت بث ، وهى تنظر إلى اللفافة باهتمام :

ـ أسمعنا آخر نكتة يا لورى ، وأنت يا ميج افتحى هذه اللفافة لنرى ما فيها .

وفك لورى أربطة اللفافة ، وأخرج منها لعبة على شكل حارس يحمل جرساً . فضج البنات بالضحك . قال الفتى :

ـ إنها شىء مفيد للبيت فى حالة الحريق ، أو عند وجود اللصوص ، فحينما يغيب چون يا ميج ، وتشعرين بالخوف ، ما عليك إلا أن تدفعى بهذا الجرس إلى النافذة الأمامية ، فيوقظ رنينه الجيران فى لحظة خاطفة . فكرة جميلة ، أليس كذلك ؟

وهز الجرس يجربه ، فانطلق منه رنين عال يكاد يصم السمع ، فأسرعت البنات إلى آذانهن يغطينها بأيديهن . قال :

ـ إنه رمز اعترافى بجمائلك الكثيرة يا ميج ، والحديث عن الاعتراف بالجميل يذكرنى بأنك مدينة بالشكر لحنا ، لأنها أنقذت كعكة العرس من الدمار ، فقد رأيتها ، وأغرانى شكلها الجميل بانتزاع قضمة كبيرة منها ، ولكن حنا تصدت لى ، ودافعت عن الكعكة دفاع الأبطال .

فقالت ميج بلهجة الأم العجوز :

ـ إن تصرفاتك الصبيانية تدهشنى يا لورى ، ألا تكبر أبداً ؟ !

أجاب الفتى ، وقد كاد رأسه العالى يمس الثريا المدلاة من السقف :

ـ إنى أبذل جهدى يا سيدتى ، ولكنى لا أستطيع أن أنمو أكبر من هذا ، وأخشى أن الستة الأقدام التى بلغتها طولا ، هى أقصى ما يمكن

أن يصل إليه رجل فى هذه الأيام السيئة .

ثم قال معقبا :

— إن تناول الطعام فى هذا العش المزدهر الجميل انتهاك لقداسته ، ولما كنت فى منتهى الجوع ، فأنا أقترح تأجيل الجلسة .

قالت ميج ، وهى تسير مبتعدة :

— أنا وأمى سننتظر عودة چون ، ولا يزال أمامنا بعض الأشياء التى تحتاج إلى التنسيق .

وقالت آمى ، وهى تضع قبعة جميلة فوق خصلات شعرها الذهبى :

— أما أنا وبث فسنذهب إلى كيتى براون لنحضر مزيداً من الزهور لحفلة غد .

فالتفت لورى إلى چو وقال :

— تعالى معى يا چو ، ولا تدعينى وحدى ، فأنا فى غاية الإنهاك والتعب ، وليس فى مقدورى أن أذهب إلى البيت دون مساعدة . لاتخلعى مرولتك فإنها غاية فى الأناقة .

ولم تأبه چو لكلامه ، ومدت له ذراعها يتكئ عليها فى سيره المنهك ، ثم قالت :

— تيدى ، لى معك حديث جدى عن حفلة غد : أريد أن تسلك سلوكاً حسنا ، ولا تقطع الزينات المعلقة ، ولا تفسد شيئاً مما أعددناه ، فهل تعدنى بذلك ؟

قال :

ــ وهلا تريدين أن أفرح أيضا ؟

قالت :

ــ المجال لا يسمح بالمزاح ، فيجب أن نكون جادين .

قال :

ــ لا أستطيع أن أكون جاداً أبداً ، فليس الجد من طبعى بل من طبعك أنت .

قالت :

ــ ثم أرجوك أن لا تنظر إلىّ فى أثناء الحفل وإلا ضحكت .

قال :

ــ لن ترينى فى أثناء الحفل ، لأنك ستكونين مشغولة بالبكاء ، وسوف تغشى الدموع عينيك فلا تتبينين شيئا مما حولك .

قالت :

ــ أنا لا أبكى أبداً إلا فى المصائب الكبرى :

قال بابسامة ذات مغزى :

ــ كأن يذهب صديق إلى الكلية مثلا ؟ !

قالت :

ــ لا تكن مغرورا ، فما بكيت لرحيلك إلا تضامناً مع أخواتى .

قال :

ـ أصبت يا چو ، ولكن خبرينى بالله عليك ، كيف كانت أحوال جدى هذا الأسبوع ؟ أكان طيباً هادئا ؟

قالت فى حدة :

ـ جداً . . ولكن لم هذا السؤال ؟ هل وقعت فى مأزق وتريد أن تعرف وقع الأمر عليه ؟

وتوقف لورى عن المسير ، وقد بدا عليه الألم ، قال :

ـ أتعتقدين يا چو أننى كنت أجرؤ على النظر إلى أمك ، إذا كان فى الأمر شىء ؟

قالت :

ـ لا . . لا أعتقد ذلك .

وارتاحت نفسه للهجتها الصادقة ، وقال وهو يواصل سيره :

ـ إذاً لا تبالغى فى الشك ، فلست أريد من جدى سوى بعض المال .

قالت :

ـ إنك تسرف فى إنفاق المال يا تيدى .

قال :

ـ إنى لا أنفق شيئاً ، ولكن النقود تذهب قبل أن أشعر بوجودها .

قالت چو بحرارة :

ـ إنك سخى كريم ، لا ترد عن بابك محتاجا ، وليس من طبعك أن ترفض رجاءً لأحد . لقد سمعنا بما فعلته لصديقك هانشو ، ولن تجد

من يلومك إذا كنت تنفق مالك فى مثل هذه الوجوه الكريمة .

قال :

ــ لقد خلق هانشو من الحبة قبة ، وما كنت ترضين لى أن أترك صديقاً يلقى بنفسه إلى التهلكة من أجل جنيهات قليلة . إنه فتى نبيل ، يساوى عشرات من أمثالنا نحن الكسالى المترفين ، أفكان يصح أن أتخلى عنه فى محنته ؟

قالت :

ــ كلا بالطبع ، ولكنى لا أرى جدوى فى شرائك سبعة عشر صدارا ، وما لا يحصى من أربطة العنق ، ثم قبعة جديدة فى كل مرة تعود إلى البيت . ظننت أنك جاوزت مرحلة المبالغة فى التأنق ، وتخلصت من آثارها الغرور ، ولكن الداء يعاودك أحيانا فى أشكال متجددة ، كأن تصفف شعرك كالعبيد ، أو تلبس سترة ضيقة أو تختار قفازات برتقالية اللون ، أو تسير بحذاء عجيب الطراز . لو كانت هذه « المودات » القبيحة رخيصة النفقات ما قلت شيئا ، ولكنها تكلفك مالا كثيرا ، وهو أمر لا يسر .

وانفجر لورى ضاحكا ، ومال رأسه إلى الوراء ، فسقطت قبعته الواسعة على الأرض ، وداست عليها چو ، وقد انتهز فرصة هذه الإهانة ، فراح يمدح مزايا الملابس الخشنة الجاهزة ، ثم قال وهو يطوى القبعة ويدسها فى جيبه :

ـ دعى الوعظ والإرشاد، فقد نلت كفايتى من النصائح هذا الأسبوع وأحب أن أمتع نفسى بالهدوء حين أعود إلى البيت . أعدك بإصلاح شأنى، حتى يرضى عنى الأصدقاء .

فقالت چو فى عنف :

ـ اترك شعرك ينمو ، أتركك فى سلام . أنا لست أرستقراطية ، ولكنى لا أحب أن يرانى الناس مع رجل يشبه المصارعين .

ولم يكن لورى مغروراً بطبعه ، وإن كان قد ضحى فى سبيل الأناقه بشعره المجعد الجميل ، فقال يقنعها :

ـ الشعر القصير يناسب الحياة الدراسية ، ولذلك ارتضيته . ثم خفض صوته ، وقال بلهجة الأخ الأكبر :

ـ على فكرة ياچو ، لقد غرق پاركر الصغير حقيقة فى حب آمى ، وأصبح يقرض فيها الشعر ولا يمل من الحديث عنها ، وأحيانا يشرد باله من أجلها بشكل يدعو إلى القلق . ألا ترين من الأفضل أن يقضى على عواطفه هذه فى مهدها ؟

وبدا الاستنكار على چو ، كأنما آمى وپاركر ليسا فى أوائل الحلقة الثانيه من عمرها . قالت :

ـ طبعاً ، يجب أن نقضى على هذه العاطفة ، فنحن لا نريد زواجا جديدا فى الأسرة قبل مضى سنوات . ترى ماذا يظن هؤلاء الأولاد بنا ؟ رحمتك يا رب ! !

وهز لورى رأسه أسفاً على ضيعة الأخلاق فى هذا الزمن ، ثم قال :

ــ إن الوقت يمر سريعا ، ولست أدرى إلى أى نهاية نسير . إنك ما زلت طفلة ، ولكن دورك آت عن قريب ، وسوف نبقى بعدك وحدنا ، ولا رفيق لنا إلا الحزن والنحيب .

قالت :

ــ لا تخف ، فشكلى أبعد ما يمكن عن الجمال ، ولن يرغب أحد فى الزواج بى ، وهى نعمة من الله ، إذ لا بد أن تبقى فى البيت عانس من أفراد الأسرة .

فقال لورى ، وهو يسترق النظر إليها ، وقد صعد الدم إلى وجهه الأسمر :

ــ إنك لا تعطين أحداً فرصة التودد إليك ، ولا تهتمين بإظهار النواحى اللطيفة فى شخصيتك ، وإذا لاحظ صديق هذه النواحى من تلقاء نفسه ، وأبدى إعجابه بك ، تقابلينه ببرود ، ثم تبعدينه فى عنف ، كأنك شوكة لا يصح أن ترى أو تمس .

قالت تغير الموضوع وقد بدا التحدى فى وجهها :

ــ دعك من الحديث فى هذا الموضوع ، فأنا لا أميل إليه ، وعندى من المشاغل ما يقينى التفكير فى سخافات العواطف ، وأعتقد أن فصم عرى الأسرة بهذه الطريقة أمر فظيع ، كفانا ما حدث بزواج ميج ، فقد أصبحنا ولا حديث لنا إلا عن الحب والمحبين . ليس فى نيتى أن أخاصمك

اليوم ، فخير لنا أن نتكلم فى أمر آخر .

ومهما تكن مشاعر لورى فى تلك اللحظة ، فقد اختار أن ينفث عما فى نفسه بصفير طويل هادئ . وعندما وقف يودع چو عند البوابة قال :

ـ اذكرى كلماتى يا چو ، وتذكرى أن دورك يأتى بعد ميج .

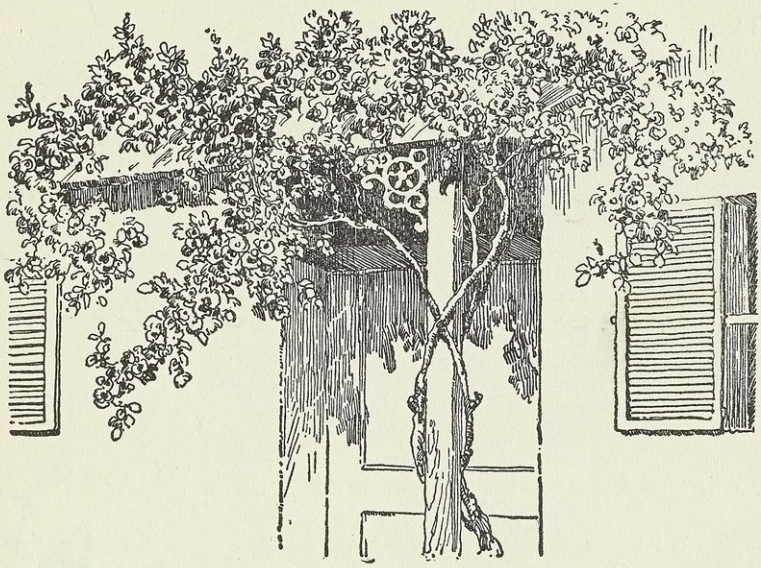

الفصل الخامس والعشرون

الزفاف الاول

كانت ورود الصيف الزاحفة فوق مدخل البيت ، مزدهرة متفتحة ، تستقبل شمس الصباح فى نشوة ، وقد غمرها السرور مثلما غمر الأصدقاء والجيران . والحق أن هذه الورود كانت نعم الجار والصديق ، وقد احمرت خدودها انفعالا ، وهى تتمايل مع النسيم ، وكل منها تهمس فى أذن الأخرى بما رأت . وأطل بعضها من نوافذ غرفة الطعام ، حيث تقام وليمة العرس ، وتسلق بعضها الجدران لينظر من النوافذ العليا إلى الشقيقات وهن يساعدن العروس فى ارتداء ملابسها ؛ أما بعضها الآخر فكان يميل تحية للقادمين

والذاهبين فى حديقة البيت ورواقه وبهوه . واشتركت الورود كلها — من المتفتحة اليانعة إلى البرعم الصغير — فى نشر عبيرها العطر ، احتفالا بزواج السيدة النبيلة ، التى طالما أحبتها ورعتها .

وكانت ميج فى هذا اليوم أشبه بوردة من هذه الورود ، وجهها يسطع بما فى قلبها من إحساسات حلوة ، وسعادتها تضفى عليها من الرقة والحسن والجاذبية ما يتحدى أروع آيات الجمال . وما كان جمالها فى حاجة إلى معونة الحرير أو الدنتلا أو زهور البرتقال ، فكانت تقول : « لا أحب أن أبدو اليوم على غير طبيعتى ، ولا أريد زفافا من الطراز الحديث ، ويكفينى أن يرانى أحبائى وأعزائى ، كما اعتادوا أن يرونى دائما . »

ولقد صنعت ميج ثوب زفافها بنفسها ، وحاكت فيه آمالها الناعمة وغزلها البرىء ، كما قامت أخواتها بتصفيف شعرها الجميل ، وقنعت العروس من الزينة بزنبقات بيضاء جاءتها هدية من چون .

ولما أكملت زينتها ، صاحت آمى وهى تتأملها بسرور بالغ :

— إنك تبدين كما كنت دائما ، أختنا الحبيبة ميج ، وقد ازددت جمالا وبهاءً ودلالا ، فدعينى أقبلك ، إذا كان هذا لا يفسد ثوبك .

قالت :

— وهذا يرضينى تمام الرضا ، فعانقنى وقبلينى واحدة فواحدة ، ولا تأبهن بثوبى ، فبودى لو كثرت التجاعيد فيه بسبب حبكن العظيم .

وفتحت ميج ذراعيها لشقيقاتها ، فلذن بصدرها مشرقات الوجوه ، واستنفد العناق فترة ، أحس الفتيات فيها أن حبها لجون لم ينل من حبها لهن ، ولم يضعف قليلا أو كثيراً من إخلاصها لأسرتها .

قالت :

ـ سأذهب لأساعد جون فى وضع رباط عنقه ، ثم أجلس مع أبى بضع دقائق فى المكتبة .

وأسرعت تؤدى الواجبين ، ثم راحت تتبع أمها حيث تذهب ، مدركة أنه على الرغم من الابتسامة التى تعلو وجهها ، فإن الحزن يعتصر قلبها ، لخروج أول طائر من عشها ، والألم يغشى نفسها لقرب فراق ابنتها .

ولننتهز فرصة انشغال الفتيات بتزيين أنفسهن ، وتنظيم هندامهن ، فنتحدث قليلا عما فعله مرور الأعوام الثلاثة ، من تغير فى مظهرهن الخارجى : كان شعر جو قد طالت خصلاته وغزرت واسترسلت ، وأصبحت ملائمة لرأسها الصغير وعودها الفارع ، وكانت مفاصل ساقيها قد قويت ، فاستطاعت أن تحمل ثقل جسمها فى سهولة ويسر ، ولكن بغير رشاقة . واصطبغ خدها بنضرة الشباب ، ولمع فى عينيها بريق هادئ ، ولان لسانها الحاد فى هذا اليوم ، فلم يعد ينطق إلا بالألفاظ الرقيقة .

وكانت بث قد ازدادت ذبولا ونحولا ، وهدأت كثيراً عما كانت عليه من قبل ، واتسعت عيناها الجميلتان الرحيمتان ، وانبعثت منها نظرات ليس فيها أثر للحزن ، وإن كانت تدعو إلى الإشفاق . وكانت مستبشرة

بتماثلها للشفاء ، لا تشكو ولا تتذمر ، ولكن نظراتها تلك ، كانت مرآة صادقة لآلام دفينة ، تحاول أن تخفيها عن أهلها .

وكانت آمى زهرة الأسرة اليانعة ، فقد اكتملت أنوثتها ونضجت ، رغم أنها لم تزل فى السادسة عشرة من عمرها . ولم تكن جميلة فى الواقع ، ولكنها كانت على قسط كبير من الجاذبية والرشاقة ، ينبعث حسنها الحقيقى من حركاتها ، وتكوين يديها ، وانحناءات جسمها ، وتموج ثوبها ، وتهدل شعرها . ولم تكن آمى تدرك مدى جاذبيتها ، التى تفوق الجمال ، فظلت على عهدها حزينة ، لأن أنفها لم يتحول إلى الشكل الرومانى الذى تشتهيه ، وكذلك لاتساع فمها وبروز ذقنها ، وكانت هذه التقاطيع التى تضيق بها ، هى مبعث سحرها الفياض ، ولكنها لم تلتفت إلى هذه الحقيقة ، وراحت تعزى نفسها بنعومة بشرتها ، وزرقة عينيها ، وغزارة شعرها الذهبى .

وارتدت الفتيات الثلاث أفضل ثيابهن الصيفية ، وكانت مصنوعة من الحرير الفضى الداكن ، وحلين شعورهن وصدورهن بالورود الحمراء ، فبدَوْن فى ذلك اليوم الخالد ، جميلات مشرقات بغير تصنع أو إفراط فى الزينة .

وكانت مراسيم الزفاف بسيطة ، وكل ما فى الحفل طبيعى ، وأحوال البيت تسير فى طريقها المعتاد ، حتى انزعجت العمة مارش ، حين رأت العروس تهرول إلى لقائها مرحبة ، والعريس يثبت بيديه إكليلا من الزهور ، ثم شاهدت الأب يصعد السلم وقد تأبط زجاجتين من النبيذ . وراعتها هذه

التصرفات المستهجنة ، وضايقها أن يخرج أقاربها على المألوف ، فصاحت بالعروس وأهلها تقول :

ـ والله إن تصرفاتكم أعجب ما يكون . أما أنت يا فتاة ، فما كان ينبغى أن تظهرى أمام المدعوين إلا فى اللحظة الأخيرة .

فقالت ميج :

ـ إنى لا أستعرض نفسى يا عمتى ، ولن يأتى من ينتقد ثوبى ، أو يقدر تكاليف عرسى ؛ وسعادتى أعظم من أن أقيم وزناً لما يقول الناس عنى أو يظنون بى . إنى أحتفل بزواجى على أسلوبى الخاص .

ثم التفتت إلى چون ، الذى كان مشغولا بتشبيت إكليل الزهور ، وقالت :

ـ إليك مطرقتك يا عزيزى چون .

ثم أسرعت إليه تساعده فى عمله الذى ما كان يجب أن يقوم به عريس موقر ، ولم يقل مستر بروك لميج « شكراً » ، ولكنه حين انحنى ليأخذ المطرقة قبل العروس الصغيرة خلف الباب ، ونظر إليها نظرة مؤثرة ، جعلت العمة مارش تخرج منديلها ، وتمسح به الدموع التى غمرت عينيها .

وعلا صوت ارتطام ، صاح بعده لورى وضحك ، ثم قال مستنجداً :

ـ يا للسماء ! ! لقد قلبت چو الكعكة مرة ثانية .

وساد البيت هرج قصير ، انتهى بوصول وفد من الأقارب والأصحاب .

واحتل مستر مارش والزوجان الشابان مقاعدهم تحت أقواس الزهور والورود

وعندما ازدحمت الغرفة بالمدعوين ، وعلا رأس لورى فوق رءوس الموجودين ، همست العمة العجوز فى أذن آمى تقول :

ــ لا تدعى هذا الشيطان الصغير يقترب منى ، فهو يضايقنى أكثر مما يضايقنى البعوض .

أجابت آمى :

ــ لقد أخذنا عليه وعداً بالهدوء ، وفى مقدوره أن يكون عاقلا إن أراد .

وتسللت إلى الفتى تحذره ، ليحتاط لنفسه من غضب التنين العجوز ، ولكن التحذير أغراه بمعاكسة العمة ، فسار خلفها يتودد إليها ، حتى ضاقت به أشد الضيق .

ولم يكن هناك موكب للعرس ، ولكن حين احتل مستر مارش والزوجان الشابان مقاعدهم تحت أقواس الزهور والورود ، والتفت الأم والأخوات حول ميج ، كأنما كرهن أن يتخلين عنها ، ساد صمت عميق ، ثم بدأ الأب يتلو الطقوس ، وكان بالغ التأثر حتى تخاذل صوته مرارا ، مما أكسب الموقف جلالا ووقارا . واضطرب العريس ، وارتجفت يده ، وتمتم بإجاباته فلم يسمعه أحد. أما ميج فقد نظرت إلى عينى زوجها مباشرة ، وأجابت فى صوت رقيق : « سأفعل » ، وقد بدت آية فى الثقة والطهارة ، مما أثلج صدر أمها ، ومس قلب عمتها العجوز .

وأحست چو برغبة شديدة فى البكاء ، ولكنها كانت تعلم أن عينى

الورى الماكرتين ترقبانها فى خليط من السرور والانفعال ، فكبتت دموعها ، وتغلبت على أشجانها ، وبذلك خرجت من الموقف المؤثر منتصرة .

وظلت بث طول الوقت تخفى وجهها وراء كتف أمها ، أما آمى فقد وقفت مثل تمثال رشيق ، وكانت الشمس تلقى عليها شعاعاً ذهبياً مس جبينها الناصع ، وأضاء الزهرة التى تحلى شعرها .

وما إن تمت المراسيم حتى صاحت ميج تقول :

ـ القبلة الأولى لأمى .

ثم انحنت وطبعت على شفتيها قبلة حارة من أعماق قلبها . وكانت العروس خلال الدقائق التى تلت عقد الزواج ، أشبه بوردة متفتحة الأكمام ، فأحاط بها الحاضرون يغمرونها بالقبل ، ويتقاضون منها حقوق المحبة كاملة . ولم يتخلف عن واجب التهنئة أحد ، من مستر لورنس العجوز إلى حنا التى أقبلت تعانقها ، وهى تجهش بالبكاء فى صوت مسموع ، وتقول :

ـ فليباركك الله يا عزيزتى مائة مرة ، إن كعكة الزفاف لم تصب بسوء ، وكل شىء على ما يرام .

وعلى أثر ذلك انفض الحفل ، وترددت عبارات التهنئة على كل لسان ، وانطلقت ضحكات المرح مدوية ، فكانت أصدق صدى للفرح الذى يملأ القلوب . ولم يشمل الحفل تقديم الهدايا ، لأن الهدايا كانت قد أرسلت قبل ذلك إلى البيت الصغير ؛ ولم يكن هناك أيضاً إفطار بالمعنى الصحيح ،

ولكن كعكة العرس والفاكهة المزينة بالزهور ، كانت تملأ المكان . وقد ابتسم مستر لورنس والعمة مارش ، وهزا كتفيهما ، حين دارت عليهما الكئوس ، فلم يجدا فيها سوى شراب الليمون والقهوة ، ولم يتكلم أحد فى موضوع الشراب ، حتى ظهر لورى أمام العروس ، وبين يديه صينية محملة بالطعام ، وفى وجهه سيماء الحيرة والتساؤل ، وأصر الفتى على خدمة العروس بنفسه ، ثم همس فى أذنها يقول :

— هل هشمت چو زجاجات الشراب كلها ؟ أظن أننى رأيت بعضها هذا الصباح ، أو لعلى أكون قد توهمت ذلك ؟

فقالت ميج :

— لا . . . لست واهما ، فقد تفضل جدك وأهدانا خير نبيذه ، وكذلك فعلت العمة مارش ، ولكن أبى احتفظ بقدر قليل منه لبث ، وأرسل الباقى إلى معسكرات الجنود . وأظنك تعرف أن أبى لا يقر شرب النبيذ إلا فى حالات المرض ، وأمى تكره أن تقدم الخمر فى بيتها .

وكانت ميج تتكلم فى جد ، وكانت تتوقع أن ترى لورى يقطب جبينه أو ينفجر ضاحكاً من قولها ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، إنما نظر إليها برهة ثم قال :

— إنى أحترم هذه المبادئ القديمة ، ولقد شاهدت للخمر أضراراً كثيرة ، تجعلنى أتمنى لو كان للنساء كلهن هذا التفكير السليم .

قالت ميج بلهجة يشوبها القلق :

– أرجو ألا تكون قد تعلمت هذه الحكمة عن تجربة شخصية .

قال :

– لا . . . أؤكد لك ، ومع ذلك لا تفرطى فى حسن ظنك بى ، فليس زهدى فى الخمر عن إيمان بل عن مزاج لا يميل إليها . لقد نشأت فى بيئة ينساب فيها الشراب كما ينساب الماء بلا أدنى ضرر ، ولكنى لم أتعلق به من تلقاء نفسى ، أما إذا قدمتها لى فتاة جميلة فهل ترين أن أردها ؟

قالت :

– إن لم تردها من أجل صالحك ، فليس أقل من أن تردها إكراماً لنا . تعالى إلى جانبى يا لورى ، وعدنى أن تقلع عن الخمر ، أكمل جميلك ، واجعل من هذا اليوم أسعد أيام حياتى .

وتردد الفتى لهذا الطلب المفاجىء الخطير ، وكانت ميج تعلم أنه يحترم وعوده مهما كانت النتيجة ، وكانت تشعر بقوتها ، وتحب أن تستخدمها لخير صديقها ، فنظرت إليه فى صمت ، وقد أشرق وجهها سعادة وإيمانا . قالت بابتسامة حلوة .

– إن اليوم يومى ، فلا يصح أن ترفض لى طلبا .

ولم يقوى لورى على الرفض ، فأجاب مبتسما وهو يصافحها بإخلاص وحرارة :

– أعدك يا مسز بروك .

قالت ميج :

ـ أشكرك شكراً كثيراً ، كثيراً جداً .

ورفعت چو يدها بكوب من عصير الليمون ، تحيي لورى بابتسامة الرضا والاستحسان ، وصاحت به تقول :

ـ فلنشرب نخب عزيمتك القوية طول العمر يا تيدى .

وشربوا نخب العهد الذى قطعه لورى على نفسه ، وحافظ عليه بإيمان على الرغم من المغريات الكثيرة . وقد انتهزت الفتيات بحكمتهن الفطرية هذه اللحظة السعيدة ، فأدين لصديقهن خدمة جليلة ، ظل يشكرهن عليها طول الحياة .

وبعد الغذاء تفرق المدعوون فى جماعات صغيرة ، يسيرون فى البيت والحديقة ، ويمتعون أنفسهم بالشمس المشرقة فى الداخل والخارج . وتصادف أن وقفت چو وميج معاً وسط رقعة مغطاة بالحشائش الخضراء ، فطرأت لذهن لورى فكرة لطيفة كانت خير ختام لهذا الحفل البسيط . صاح بالحاضرين قائلا :

ـ فليمسك المتزوجون كل بيد الآخر ، ويدور الزوجان حول العروسين راقصين كما يفعل الألمان ؛ أما العزاب ، فيرقصون أزواجاً خارج الحلقة .

ثم أمسك بيد آمى ، وجعل يرقص معها بخفة ورشاقة ومرح ، فحذا الباقون حذوهما دون اعتراض . وبدأت الحلقة بمستر ومسز مارش ، ثم

بالعم والعمة كارول ، وانضم الآخرون سريعا ، حتى سالى موفات ، فبعد أن ترددت قليلا ، دفعت ند إلى الحلقة ، واشتركت فى الرقص . وكان ألطف ما فى هذه اللعبة المرحة أن تقدم مستر لورنس من العمة مارش العجوز ، يدعوها إلى مراقصته ، فما كان منها إلا أن تأبطت عصاها ، وهبت فى نشاط ترقص حول الزوجين . ودار الرقص فى الحلقة ، وانتشر الشباب فى أرجاء الحديقة ، كأنهم فراشات جميلة تمرح فى ظهيرة يوم من أيام الصيف .

وأخيراً تعب الراقصون ، فركنوا إلى الراحة وهم يلتقطون أنفاسهم ، وكان هذا خير ختام للحفلة المفاجئة ، التى جاءت دون سابق إعداد .

قالت العمة مارش لميج ، وهى تهم بالانصراف :

ـ أرجو لك كل الخير يا عزيزى ، أرجو لك الخير من صميم قلبى ، ولكنى أعتقد أنك ستندمين على هذا الزواج .

ثم قالت للعريس ، وهو يقودها إلى العربة :

— لقد فزت بكنز ثمين أيها الشاب الصغير ، فبرهن على أنك جدير به.

وقالت سالى موفات لزوجها ، وهما يتجهان لمركبتهما الفاخرة :

— هذا أجمل عرس شهدته منذ عهد طويل يا ند ، ولست أدرى سر جماله ، وقد خلا من كل تنظيم وإعداد .

وقال مستر لورنس العجوز ، وهو يتحسس جوانب كرسيه المريح .

— اسمع يا لورى ، يسرنى أن تندمج فى مثل هذا النوع من الحياة ، فاختر لك شريكة من أولئك الفتيات الصغيرات ، وبذلك تسعدنى وترضينى .

فقال لورى ، وهو ينزع الوردة التى وضعتها چو فى عروة سترته ،

وقد تمثلت فى لهجته الطاعة على غير العادة :

ـ سأبذل جهدى فى إرضائك يا سيدى .

ولم يكن عش الزوجية بعيدا ، فسار العروسان عليه مشياً على الأقدام ، وكانت هى رحلة الزواج الوحيدة التى تمتعت بها ميج . وعندما خرجت الفتاة من بيت أبيها ، فى ثوب ملون وقبعة بيضاء ، أحاط بها الأهل والأصدقاء ، يودعونها بحرارة ، كأنما هى فى طريقها إلى رحلة طويلة . والتفتت إليهم ميج شاكرة ، ثم تعلقت بأمها وهى تقول فى صدق وإخلاص :

ـ أرجو ألا تشعرى بأنى تركتك يا أماه ، ولا تظنى أن حبى لحون نال من حبى لك .

وانثنت إلى أبيها تقول :

ـ سأزوركم كل يوم يا أبى ، وأرجو ألا تضعف مكانتى من قلوبكم بعد الزواج ، وسنقضى مع بث أوقاتا طويلة جميلة ، وستأتينى الفتيات الأخريات بين آن وآن ، ليضحكن من جهادى فى إدارة شئون البيت ... شكراً لكم جميعاً على ما هيأتم لى من زفاف سعيد . . . ومع السلامة . . . مع السلامة . . .

ووقفوا يرقبونها بوجوه ممتلئة بالحب والأمل والفخار ، وتبعتها عيون الوفاء ، وهى تسير مستندة إلى ذراع زوجها ، والزهور ملء يديها ، وشمس الصيف تضىء جبينها المشرق السعيد .

وهكذا بدأت ميج حياتها الزوجية .

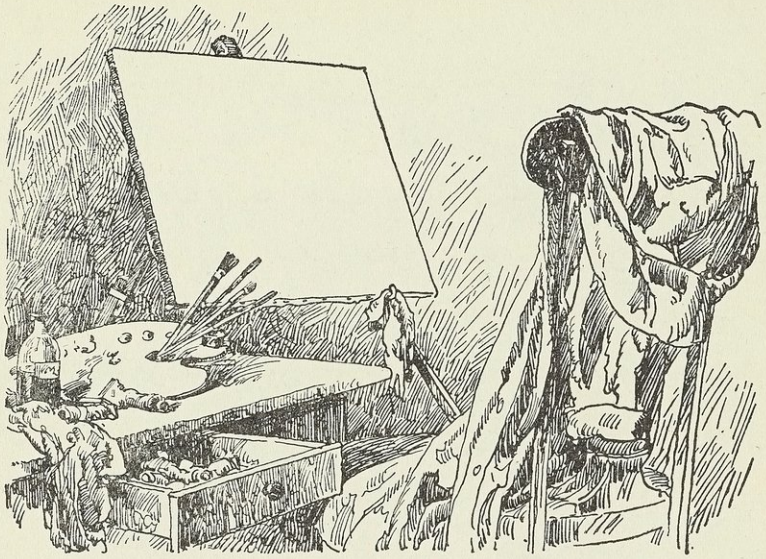

الفصل السادس والعشرون

محاولات فنية

ليس من السهل على أهل الطموح من الشباب أن يفرقوا بين الموهبة والعبقرية ، فالتفرقة بين هذه وتلك تأتى مع الزمن والتجربة ؛ وقد حاولت آمى أن تصل إلى نتائج مرضية خلال تجاربها الفنية الطويلة ، ولكنها لم تكن تفرق بين الحماسة والوحى الفنى ، فراحت تجرب حظها بجرأة الشباب فى كل درب من دروب الفن . وعندما هبطت حماستها فى فن « الفطائر الصلصالية » ، اتجهت إلى الرسم بالقلم والمداد ، فكشفت رسومها عن خبرة واستعداد . ولكن الجهد أرهق عينيها ، فهجرت القلم والمداد إلى محاولة

جديدة جريئة ، هى النقش على الخشب بالمكواة الحارقة .

وظلت الأسرة طوال هذه النوبة الفنية الجديدة ، فى رعب دائم من الحريق ، وكانت رائحة الخشب المحروق تفوح فى أرجاء البيت على الدوام ، والدخان يتصاعد من حجرة السطح بشكل مزعج . وكانت المكاوى المتوهجة متناثرة هنا وهناك ، ولم تكن حنا تأوى إلى فراشها إلا وبجانبها دلو من الماء وناقوس العشاء ، لتستعملهما إذا شبت النار . وأسفر نشاط آمى عن جهود فنية عظيمة : فعلى لوح العجين نقش وجه روفائيل الرسام الشهير ، وعلى فوهة أحد براميل البيرة أطل باخوس إله الخمر ، وعلى آنية السكر ظهرت صورة طفل يغنى ، هذا إلى محاولات كثيرة لرسم روميو وچولييت فى كل ركن من أركان البيت .

وكان طبيعياً أن تنتقل الفنانة الصغيرة إلى الرسم بالزيت ، بعد أن أصابت المكواة أصابعها الجميلة بحروق كثيرة ، فوضعت همها فى فنها الجديد ، وانصرفت إليه بهمة لا تعرف الكلل . وأعطاها صديق فنان بعض الأطباق والفرش والألوان التى استغنى عنها ، فبدأت تخلط الألوان وترسم منها مناظر برية وبحرية لا تشبه شيئاً فى البر أو البحر . وكانت تبالغ فى تصوير المواشى ، فترسم الحيوانات ضخمة تستحق أعظم الجوائز فى أى معرض زراعى ، وكانت ترسم السفن فى أوضاع خطيرة ، تبعث دوار البحر فى رءوس أكثر البحارة خبرة بالملاحة ، هذا إلى الأخطاء المضحكة ، التى تدل على جهلها التام بأبسط القواعد المعروفة فى بناء السفن .

وكانت صور الفتيان السمر ، والراقصات ذوات العيون السود ، توحى إليك بطريقة موريلاو الرسام؛ وكانت الظلال الداكنة فى الوجوه بما عليها من خطوط وضعت فى غير موضعها الصحيح ، تذكرك بأسلوب الرسام رامبراندت ، كما بانت جهودها فى محاكاة روبنز بتصويرها نساءً سمينات وأطفالاً منتفخى الأجسام . وظهرت تجاربها فى الاقتداء بتيرنر فى رسم العواصف العامرة بالرعد الأزرق والصواعق البرتقالية والمطر البنى والسحب القرمزية ، التى وضعت فى وسطها بقعاً طماطمية اللون ، قد تدل على الشمس ، أو تدل على قميص بحار ، أو ثوب ملك ، حسبما يسر الناظر إلى الصورة أن يعتقد .

وانتقلت من الرسم بالزيت إلى الرسم بالفحم ، فصنعت صوراً لجميع أفراد العائلة ، وعلقتها على الحائط فى صف واحد ، ولكن نظرات العيون التى رسمتها كانت زائغة ، وكانت الوجوه مغبرة كأنما خرج أصحابها لتوّهم من صندوق الفحم . وحين استبدلت الفحم بالقلم ، تحسنت الصور ، واقترب الشبه من الحقيقة ، فأتقنت التعبير عن شعر بث وأنف چو وفم ميج وعينى لورى . وأعقب الفحم عود إلى فن الطين والصلصال ، فملأت آمى أرجاء البيت بتماثيل ممسوخة لأصدقائها ومعارفها ، وكان بعض هذه التماثيل يسقط على رءوس الناس من فوق الرفوف التى ازدحمت بها . واتخذت من الأطفال نماذج لتماثيلها ، حتى ضاق الأطفال ذرعاً بأفعالها الغريبة ، فأطلقوا عليها اسم « الغولة الصغيرة» . ولما لم تجد نماذج جديدة ، بدأت تصنع

تماثيل لقدميها الجميلتين ، وكانت هذه خاتمة نشاطها ، إذ حدثت لها حادثة جعلتها تكف عن هذا العمل الفنى : كان ذلك يوم روعت أفراد الأسرة بصراخها الشديد ، وسمعوا استغاثتها آتية من المرسم ، فلما أسرعوا إليها يتبينون الخبر ، وجدوا المثالة النشيطة تحاول عبثاً أن تخرج قدمها من قصعة الجبس الذى تجمد حولها فى سرعة غير منتظرة . و بصعوبة شديدة أمكن تخليص قدمها بعد أن تعرضت لبعض الخطر ، فقد غاصت مدية چو فى العجينة المتجمدة وجرحت آمى ، وهكذا تركت على القدم الجميلة ندبة تحمل ذكرى دائمة للمحاولة الفنية الفاشلة .

وبعد أن هدأ نشاط آمى بعض الوقت ، عادت فغلبت عليها نوبة جديدة للرسم من الطبيعة ، فلازمت النهر والحقول والغابة ، تنقل عنها مناظرها الخلابة . وكانت تسعى وراء الحرائب فى كل مكان ، فتصورها إرضاء لنزعتها الفنية ، وطالما تعرضت للبرد الشديد وهى جالسة على الحشائش الرطبة تلتقط منظراً من هنا ومنظراً من هناك . وكان يستهويها شكل الصخور المتجمعة ، وبقايا جذوع الأشجار ، ونبات « عش الغراب » ، والسماء الملبدة بالغيوم ، فترسمها على الورق ، غير آبهة لتقلبات الجو ، حتى بلغ تحمسها لفنها ، أن حرقت أشعة الشمس بشرتها ، وهى تذرع النهر فى قاربها ، لدراسة الأضواء الظلال .

وإذا كانت العبقرية هى الصبر الخالد ، كما يقول ميكائيل أنجيلو ، فقد كان لآمى من هذه المنحة الآلهية نصيب مذكور ، لأنها صبرت

وثابرت ، على الرغم من العوائق والعقبات ، وصورت الفشل والسخرية والاستهانة ، التى صادفتها فى جهادها ، وسارت فى طريقها ، وهى شديدة الإيمان بأن سيأتى اليوم ، الذى تنتج فيه شيئاً خليقاً بخلود الفن الرفيع .

ولم تقصر آمى جهودها على الرسم ، إنما تعلمت فى الوقت ذاته ، وتمتعت بأمور كثيرة ، وكانت قد عزمت فيما بينها وبين نفسها على أنها إذا لم توفق فى فنها ، فلا أقل من أن تكون امرأة كاملة جذابة . ونجحت آمى فى هذه الناحية أكثر من نجاحها فى الرسم ، لأنها كانت من أولئك المخلوقات السعيدات ، اللواتى يفضن على ما حولهن بهجة بغير جهد ، فيجتذبن الأصدقاء فى كل مكان ، ويملأن الأجواء سروراً ومرحا . كانت واحدة ممن يأخذن الحياة بسهولة يحسدهن عليها من هن أقل حظا ، وينسبن ذلك إلى أنهن ولدن تحت نجم طالعه سعيد .

كان كل إنسان يحب آمى ، فمن مزاياها أنها كانت تعرف بفطرتها ما يسر غيرها ، وتدرك ما ينبغى أن يقال لهم ، ولذلك كانت تضع كل شىء فى موضعه ، وتخاطب كل شخص بما يرضيه ، وتتصرف بما يناسب الزمان والمكان على أحسن وجه وأتمه . وكانت آمى قادرة على ضبط نفسها ، كما كانت لبقة واسعة الحيلة ، حتى إن أخواتها اعتدن أن يقلن عنها : « إن آمى إذا ذهبت إلى قصر ملك ، دون إعداد سابق ، وبغير تدريب على ما ينبغى أن تفعل هناك ، ففى مقدورها أن تحسن التصرف من تلقاء نفسها ، وتسلك المسلك اللائق لمثل هذا الموقف » .

وكانت إحدى نواحى ضعفها ، رغبتها فى الظهور ، وحبها للاختلاط بأرقى المجتمعات ، دون فهم لحقيقة هذه المجتمعات ، أو إدراك لمعانى الرقى الصحيح ، فلم يكن يروق لها سوى المال والجاه والأزياء الحديثة والسلوك الأنيق . وكانت تميل دائماً إلى مصاحبة من تتوفر فيهم هذه الشروط ، ولكن كثيراً ما كان يختلط عليها الأمر ، فتخدع بالغث عن السمين ، وتعجب بما لا يستحق الإعجاب . ولم تكن تنسى أبداً أنها سيدة عريقة الأصل ، لذلك ظلت حريصة على تنمية ذوقها ومشاعرها الأرستقراطية ، حتى إذا سنحت لها الفرصة يوما ، كانت على أتم استعداد لتأخذ مكانها الذى سلبها إياه الفقر فى العهود الأخيرة .

وكانت « السيدة » كما كان يدعوها أصدقاؤها ، ترغب صادقة فى أن تصبح سيدة بمعنى الكلمة ، وفى الحق أنها كانت فى جوهرها ومعدنها تلك السيدة الأصيلة . ولكن الحكمة كانت تنقصها ، لتدرك أن المال لا يستطيع أن يخلق الأصل العريق ، وأن الألقاب لا تضفى على أصحابها نبل المحتد ، وأن حسن التربية وطيبَ العنصر ، ينمان عن نفسيهما ، ولا يمكن لعوامل الفقر أن تخفيهما .

ودخلت آمى على أمها ذات يوم تقول وعلى وجهها سيماء الاهتمام :

— ماما ، أريد أن تسدى إلىّ معروفا .

أجابت الأم ، وكانت لا تزال آمى فى نظرها طفلة ، بالرغم من مظهر العظمة الذى تبدو فيه :

ـ حسناً يا فتاتى الصغيرة ، ماذا تريدين منى ؟

قالت :

ـ إن دروس الرسم تنتهى فى الأسبوع القادم ، وأود أن أدعو زميلاتى لقضاء يوم معى ، قبل أن تفرقنا عطلة الصيف ، فهن متلهفات على رسم النهر والقنطرة المحطمة ، وغيرهما من المناظر التى أعجبتهن فى كراستى . لقد كن كريمات معى فى مواقف كثيرة ، ولم يقمن بينى وبينهن فروقا ، رغم فقرى وثرائهن ، وأشعر أننى مدينة بالشكر لهن .

قالت مسز مارش ، تسأل ابنتها فى كبرياء :

ـ ولماذا يقمن الفروق ؟

قالت آمى :

ـ لأن هناك فروقاً يا أماه ، وهذه الفروق قائمة فى نظر كل إنسان تقريباً ، فلا تغضبى ، كما تغضب الدجاجة حين ترى فراريجها الصغيرة تنقرها طيور أرقى منها . أنت تعرفين قصة البطة الدميمة ، التى نمت فصارت بجعة جميلة .

وضحكت آمى بلا مرارة ، لأنها كانت بطبعها ذات هدوء ومرح وتفاؤل .

وضحكت مسز مارش ، وقد هدأت كبرياء أمومتها ، ثم قالت :

ـ حسناً يا بجعتى العزيزة ، ماذا تقترحين أن نفعل ؟

قالت :

ـ أحب أن أدعو البنات لتناول الغذاء معى فى الأسبوع القادم ، وأصطحبهن إلى الأماكن التى يرغبن فى مشاهدتها ، ونمضى معاً بعض الوقت فى نزهة نهرية ، أريد على العموم أن أقيم لهن وليمة يتجلى فيها الفن بأجلى معانيه .

قالت الأم :

ـ هذا ممكن ، فماذا تريدين فى الغداء ؟ كعك وشطائر وفاكهة وقهوة ؟ هذا يكفى على ما أظن .

قالت الفتاة :

ـ لا . . يجب أن نقدم لهن لسانا باردا ، ودجاجاً مشويا ، وشكولاتة على الطريقة الفرنسية ، ومثلجات لذيذة متنوعة ، فالبنات معتادات تناول هذه الأصناف ، وأود أن يكون الغداء كاملا ممتازا ، بالرغم من أننى أعمل لأعيش .

سألتها أمها :

ـ وكم عدد البنات ؟

قالت :

ـ اثنتا عشرة بنتاً أو أربعة عشرة على الأكثر ، ولكنهن لن يأتين جميعاً .

قالت الأم :

ـ كان الله فى عونى ، هذا العدد يحتاج إلى سيارة عامة .

قالت آمى :

ــ لا تخافى يا أماه ، فلن يحضر أكثر من ست بنات أو ثمان ، وسأستأجر لهن عربة الشاطىء ، وأستعير عربة الرحلات من مستر لورنس .

قالت الأم :

ــ ولكن هذا يكلفك كثيراً يا آمى .

قالت :

ــ ليس كثيراً جداً ، فقد حسبت التكاليف ، وسأدفعها كلها من جيبى .

قالت الأم :

ــ ولكن ، ألا ترين من الأوفق لأولئك الفتيات أن نقدم لهن شيئاً غير ما اعتدن عليه ؟ إنهن معتادات تناول الأطعمة الفاخرة كل يوم ، وسيكون أدعى لسرورهن ، أن يأكلن شيئاً بسيطاً على سبيل التغيير . هذا الحل يرضينا أيضا ، ويكفينا مؤونة الشراء والاستعارة ، وهو ما لا نريده ، فليس من المستحب أن نظهر بغير حقيقتنا .

قالت آمى ، وقد بدا عليها الإصرار الذى لا تزيده المعارضة إلا عنادا :

ــ إذا لم أستطع أن أحقق ما أريد ، فلن أقيم الوليمة . أنا متأكدة من قدرتى على القيام بالواجب ، مع بعض المعونة منك ومن أخواتى ، ولست أرى سبباً يمنعنى من تحقيق أمنيتى ، ما دمت سأدفع التكاليف كلها .

وكانت مسز مارش تؤمن بأن التجربة خير معلم للإنسان ، ولذلك كانت تترك بناتها يتعلمن من الحياة ما يعارضن فى تعلمه منها ، فقالت :

ـ حسناً يا آمى ، ما دمت قد عقدت النية وتبينت موقفك وحسبت للأمر حسابه ، بحيث لا يكلفك كثيراً من المال ، والوقت والجهد ، فليس عندى ما أقوله بعد ذلك . شاورى أخواتك فى الموضوع ، ولن أتردد فى معونتك على ما تقررين أيا كان .

قالت :

ـ أنت دائمة رحيمة بى ، فشكراً لك يا أماه .

وخرجت آمى تعرض الأمر على أخواتها ، فوافقت ميج فورا ، ووعدت بالمساعدة ، وعرضت أن تعيرها كل ما فى بيتها من ملاعق الملح . أما چو فقد قطبت جبينها ، ولم توافق على المشروع كله ، ورفضت بادئ الأمر أن تشترك فيه . وكانت آمى قد فاجأتها بالحديث وهى تفكر فى خاتمة مفجعة للقصة التى تكتبها ، فقطعت عليها سلسلة تفكيرها ، وبذلك جعلتها غير مستعدة للحديث فى موضوع الولائم الاجتماعية السخيفة ، قالت :

ـ وما الذى يدعوك إلى إنفاق نقودك ، وإرهاق أسرتك ، وقلب البيت رأساً على عقب ، من أجل حفنة من البنات لا يساوين شيئاً ؟ ظننت أن فيك من الكبرياء والعقل ما يمنعك من إذلال نفسك لفتيات ميزتهن الوحيدة أنهن ثريات يرتدن الأحذية الفرنسية ، ويركبن العربات المقفلة .

قالت آمى فى غضب ، وكانت على عهدها ، لا تتأخر عن الشجار مع چو ، إذا عرضت لها الفرصة .

— أنا لا أذل نفسى لأحد ، وأكره أن تكلمينى بهذه اللهجة ، وليكن فى علمك أن البنات يملن إلى صحبتى ، كما أميل إلى صحبتهن ، هذا إلى أنهن على قدر كبير من العقل والمواهب ، على الرغم من رأيك فيما تسمينه « الموضة السخيفة » . قد لا يهمك أن يحبك الناس ، وقد لا يروقك أن تشتركى فى المجتمعات الراقية ، لتهذبى ذوقك وطباعك ، ولكنى على العكس منك أهتم بكل ذلك ، وأريد أن أستفيد بأكبر قسط ممكن من الفرص التى تسنح لى . سيرى فى العالم إن شئت رافعة الرأس مغرورة ، ثم سمى سلوكك العجيب استقلالا ، أما أنا فليست هذه طريقتى فى الحياة .

وكان فى مقدور آمى ، إذا ما شحذت سنان لسانها ، وأعملت قريحتها ، أن تحسن الكلام ، وقلما كان المنطق السليم يخذلها ، على حين كانت چو تعتز بحريتها ، ولا تهمها التقاليد ، وتبالغ فى ذلك إلى حد بعيد ، مما يورثها الهزيمة فى الجدل . وكان تعريف آمى لرأى چو فى الاستقلال ، تعريفاً بارعا ، حمل الأختين الأخريين على الضحك ، فزال التوتر ، واتخذت المناقشة اتجاهاً مرضيا . وأخيراً قبلت چو ، على غير هواها ، أن تضحى بيوم لأختها المتعاظمة ، وأن تمد يد المساعدة لآمى ، فيما تعتقد أنه عمل فارغ .

وأرسلت الدعوات ، وحدد يوم الاثنين التالى موعداً للحادث العظيم ، وقبلت الدعوات كلها ، ولم تعتذر واحدة من البنات . ولكن الأمور لم تبد

مشجعة ، إذ فقدت حنا بشاشتها ، لأن الوليمة ستربك عملها الأسبوعى ، وتنبأت بأنه إذا لم يتم الغسل والكى فى موعدهما ، فلا أمل فى انتظام البيت. وكان شعار آمى ألا شىء يدعو إلى اليأس ، ولذلك كانت تنفذ قراراتها مهما صادفها من عقبات . وكانت أول صدمة أن فشلت حنا فى طهى الدجاج ، فجاء لحماً جامداً ، وأسرفت فى تتبيل اللسان ، فكان مذاقه غاية فى الملوحة ، كما أن الشكولاتة لم تتجمد كما يجب ، وزادت تكاليف الكعك والمثلجات كثيراً عما توقعت آمى ، وكذلك جاوزت أجرة العربة تقديراتها السابقة ، واقتضى الحال مصروفات استثنائية ، بدت فى أول الأمر تافهة ، ولكنها تضخمت عن الحساب تضخماً مزعجاً . وأصيبت بث بالبرد فلزمت فراشها ، ووفد على ميج زوار مفاجئون ، فاضطرت إلى البقاء معهم فى بيتها ، وكانت چو شاردة الفكر إلى أبعد حد ، فزادت أخطاؤها ، وكثر تحطيم الصحون على يديها بصورة خطيرة مزعجة .

ولقد قالت آمى يوما — بعد مضى وقت طويل من هذه الوليمة ، التى أطلق عليها أفراد الأسرة « أحسن نكتة فى الموسم » — وكانت ما تزال تذكر دور أمها شاكرة :

— لولا والدتى ما استطعت أن أخرج من المحنة بسلام .

وكان الرأى قد اتفق على أن الجو إذا لم يكن حسناً يوم الاثنين ،

تؤجل الدعوة إلى اليوم التالى ، وهو ترتيب زاد الأمر تعقيداً فيما يختص بچو وحنا .

وجاء صباح الاثنين بجو قلق لا يستقر على حال ، فكانت السماء تمطر قليلا ثم تسكت ، وتصحو الشمس ثم تختفى ، وتهب الرياح ثم تهدأ ، ولم يلزم الجو حالة واحدة ، ظلت التغيرات تتوالى إلى وقت متأخر . وكانت آمى قد استيقظت مع الفجر ، وأخذت توقظ أخواتها من فرشهن ، وتستحثهن على تناول أفطارهن مبكراً ، حتى ينتظم البيت فى الوقت المناسب . واستوقفت حجرة الاستقبال نظرها ، إذ بدت قديمة رثة أكثر مما يجب ، فبدلا من أن تكتفى بالحسرة والأسف ، سارعت إلى الكراسى ، فوضعتها فوق الأجزاء البالية من البساط ، وأخفت البقع الموجودة على الجدران بصور ذات أطر جميلة ، وملأت الزوايا الفارغة بتماثيل صنعتها فى البيت . وكانت جهوداً موفقة ، أضفت على الحجرة رواءً فنيًّا ازداد رونقاً وبهاءً بأصص الزهور التى نثرتها چو هنا وهناك .

وبدا الطعام جذابا ، وتمنت وهى تستعرضه بنظرها أن يكون شهيا ، وتضرعت إلى الله من قلبها أن تعود الأوانى الزجاجية والفضية والخزفية ، التى استعارتها لهذه الوليمة ، سليمة إلى أصحابها . وصدر الأمر بإرسال العربات ، ووقفت ميج والأم على استعداد لاستقبال المدعوات ، واستطاعت بث أن تساعد حنا قليلا فى الخفاء ، وحرصت چو أن تبدو لطيفة المعشر ، بقدر ما يسمح به صداعها وشرودها وقلقها . وبينما كانت چو ترتدى

ملابسها فى ملل ، راحت آمى تسلى نفسها ، فتتخيل ما سيحدث فى اللحظة السعيدة ، حين ينتهى الغداء بسلام ، فتأخذ صديقاتها فى العربة لقضاء المساء فى نشوة فنية ، وكانت العربة المفتوحة ، والقنطرة المحطمة ، من أهم عناصر النزهة المرجوّة .

ومرت ساعتان فى الانتظار ، كانت فيهما دائبة على التنقل بين غرفة الجلوس والبهو ، وكان الرأى العام العائلى يتغير من لحظة إلى لحظة ، فيما يختص بالوليمة . وأمطرت السماء مدراراً فى الساعة الحادية عشرة ، مما أقنع المنتظرات بأن حماسة المدعوات لابد أن تكون قد فترت ، بدليل أن واحدة منهن لم تحضر بعد . ومضى الوقت ولا أثر للمدعوات ، فلما بلغت الساعة الثانية مساءً ، جلست الأم وبناتها فى بقعة مشمسة يأكلن الأصناف السريعة التلف ، حتى لا يضيع شىء من الوليمة هباء .

وفى صباح اليوم التالى ، أيقظت أشعة الشمس آمى من نومها ، فقالت فى نشاط وخفة :

ــ إن الجو جميل بلا شك ، ولا بد من حضورهن اليوم ، فلنلق نظرة على البيت ، ونستعد لاستقبال المدعوات .

ولكنها كانت تتمنى فى أعماق نفسها ، لو أنها لم تعط ضيفاتها فرصة يوم الثلاثاء أيضا ، بعد أن ضعف اهتمامها بالمأدبة ، وذبلت حماستها كما ذبلت كعكتها .

وبعد نصف ساعة ، قدم مستر مارش من الخارج ، وعلى وجهه

مسحة من اليأس الهادئ ، وهمس فى أذن زوجته قائلا :

— لم أجد اليوم سمكاً فى السوق ، فلا مفر من الاستغناء عن سلطة المايونيز .

فقالت زوجته :

— يصح أن نستعيض عنه بنسائل من لحم الدجاج ، وإن كانت أخشن من السمك .

فقالت بث لأختها فى أسى :

— لقد تركت حنا الدجاج على مائدة المطبخ ، فالتهمته القطط ، وإنى شديدة الأسف يا آمى .

وكانت بث ما زالت على عهدها مغرمة بالقطط ، وتقتنى عدداً مذكوراً منها .

فقالت آمى بحزم :

— إذاً لابد من السمك بأى شكل ، فاللسان وحده لا يكفى .

انبرت چو تقول فى نخوة المستشهدات :

— هل أذهب إلى المدينة وأشترى سمكة ؟

أجابت آمى ، وقد بدأت تفقد سيطرتها على نفسها :

— ستعودين بها إلى البيت ، تحملينها تحت إبطك عارية من الورق ، فتثيرين غيظى وحنقى . لا ، سأذهب بنفسى لإحضارها .

وأسدلت نقاباً على وجهها ، وحملت فى يدها سلة صغيرة ، وخرجت

من البيت وكلها أمل فى أن تهدئ برودة الجو ، فى العربة العامة ، من روعها ، وتعيد إليها نشاطها ، فتحمل متاعب اليوم راضية . واستطاعت أن تحصل على بغيتها بعد عناء غير قليل ، كما ابتاعت زيتاً مجهزاً للمايونيز ، حتى توفر الوقت فى البيت بعد هذا التأخير ، ثم عادت بالسيارة العامة مسرورة بما فعلت .

ولما لم يكن بالعربة غير عجوز نائمة فى مقعدها ، فقد رفعت آمى النقاب عن وجهها ، ووضعته فى جيبها ، وراحت تقطع الوقت بمراجعة نقودها ومصروفاتها . وانهمكت فى الأرقام التى ملأت الورقة ، فلم تلحظ وجود قادم جديد ، دخل العربة دون أن تقف لركوبه ، ولم تشعر إلا بصوت يهتف بها قائلا : « صباح الخير يا آنسة مارش » . . . فرفعت رأسها إلى محدثها ، وإذا بها وجهاً لوجه أمام أحد أصدقاء لورى المتأنقين . وردت التحية فى عذوبة ورقة ، وهنأت نفسها على أنها ارتدت ثوب الرحلات الجديد ، وتجاهلت تماماً سلة السمك الرابضة عند قدميها ، وراحت تتمنى أن يعجل الفتى بترك العربة قبلها . وظلت آمى تتحدث إلى السيد فى لهجة متعالية ، وقد استراح بالها حين علمت منه أنه سيغادر العربة قبلها ، وعلى حين غرة قامت السيدة العجوز تهيأ للانصراف ، فاصطدمت بالباب ، وقلبت السلة رأساً على عقب ، فظهرت السمكة — لهول الفضيحة — أمام عينى السيد الوجيه الذى ينحدر من سلالة آل تيودور ! !

وصاح الفتى وقد ظن أن السمكة للعجوز :

– يا إلهى ! ! لقد نسيت عشاءها !

ثم أخذ يدفع السمكة بعصاه ، حتى أعادها إلى مكانها من السلة ، وأمسك بالسلة يريد أن يعطيها للسيدة العجوز ، فصاحت به آمى ، وقد احمر وجهها احمراراً شديداً :

– أرجو ألا تفعل ذلك . . . إنها سلتى !

فقال الفتى بلباقة تؤكد أدب أبناء الأسرة العريقة :

– أرجو المعذرة . . إنها سمكة جميلة لم يسبق أن رأيت لها مثيلا .

وتنفست آمى الصعداء ، وتمالكت روعها من جديد ، فوضعت السلة فوق المقعد بشجاعة ، وقالت ضاحكة :

– ألا تحب أن يكون لك نصيب من المايونيز الذى سأصنعه بهذه السمكة وأن تتمتع بصحبة الفتيات الرشيقات اللاتى سيأكلنها ؟

وكانت عبارتها هذه غاية فى الكياسة والمهارة ، فقد أرضت بها نزوتين من نزوات الشباب ، إذ أحاطت السمكة بهالة من المعانى السارة ، وأثارت فى ذات الوقت اهتمامه بالفتيات الأنيقات ، فأبعدت ذهنه عن الحادث المضحك .

وعندما نزل تيودور من العربة ، وانحنى يودع آمى ، قالت فى نفسها :

– سوف يروى للورى ما حدث ، وسوف يضحكان ما شاء لهما الضحك ، ولكن يعزّينى أننى لن أراهما وهما يسخران منى .

وحين عادت آمى إلى البيت ، لم تذكر الحادث لأحد ، وإن كانت

قد اكتشفت فى ثوبها بقعة من الزيت ، الذى سال من الزجاجة عندما انقلبت السمكة ، ولكنها لم تلبث أن شغلت عن البقع بإعداد الطعام والاستعداد للوليمة .

وعند الظهر تماماً ، كان كل شىء على ما يرام ، وكانت تشعر طول الوقت أن الجيران يرقبونها ، مما جعلها ترجو من كل قلبها ، أن يمحو الله أثر فشلها فى اليوم السابق ، وأن يعوضها عنه بنجاح عظيم . ولم يطل بها الانتظار ، فقد جاءت العربة المكشوفة ، فركبت فيها بعظمة ، ثم ذهبت تحضر ضيفاتها ، وترحب بهن .

قالت مسز مارش وهى تهرع إلى البهو :

ــ هذا صوت العربة ، وأظن أنهن وصلن ، وسأذهب إلى الردهة لاستقبالهن كما تقضى الأصول ، فإنى أرجو أن تقضى طفلتى العزيزة وقتاً طيبا ، بعد ما تحملته من متاعب كثيرة .

ولكن ما ألقت نظرة ، حتى عادت أدراجها ، وعلى وجهها أبلغ آيات الأسف ، فقد كانت العربة فارغة إلا من آمى وفتاة واحدة أخرى .

وصاحت چو ، وهى تسرع إلى الدور الأسفل ، فى انفعال منعها من الضحك :

ــ أسرعى يا بث ، وساعدى حنا على رفع نصف الأدوات الموضوعة على المائدة ، فليس من المعقول أن تبقى على حالها لفتاة واحدة .

ودخلت آمى البيت فى غاية من الهدوء ، وأقبلت بكل جوارحها على ضيفتها الوحيدة ، التى حافظت على وعدها ، وقام أفراد الأسرة جميعهن بأدوارهن فى دقة وبراعة ، ووجدتهن الآنسة ألبوت غاية فى اللطف والظرف ، فساد الجو شعور مرح ، وتقاسمن الطعام الذى أعيد إعداده ، بسرور بالغ .

وزارت الضيفة الأستوديو والحديقة ، وتناقشت بحماسة فى شئون الفن ، ثم استأجرت آمى عربة صغيرة ، وتركت المكشوفة المطهمة وهى آسفة ، وطافت بصاحبتها فى جميع الأماكن المجاورة ، حتى غربت الشمس ، وعندئذ استأذنت الضيفة فى الانصراف ، وبذلك انتهت المأدبة .

وعادت آمى بعد أن ودعت صاحبتها ، وقد غلبها الانهاك والإعياء رغم هدوئها الظاهرى ، فوجدت أن آثار الوليمة التعسة اختفت ، ولم يبق منها إلا تقطيبة مريبة على وجه أختها چو .

قالت أمها بحنان وعطف ، كأن ضيفات ابنتها لم يتخلفن عن الحضور :

— أرجو أن تكونى قد استمتعت بجولة مسلية بعد الظهر يا عزيزتى .

قالت بث بحرارة :

— إن مس ألبوت فتاة لطيفة جداً ، وأظن أنها تمتعت بوقتها ونزهتها .

سألتها ميج فى رزانة :

— أتنزلين لى عن جزء من الكعكة يا آمى؟ إننى فى الحقيقة ، محتاجة إلى بعض منها ، فعندى ضيوف كثيرون ، وليس باستطاعتى أن أصنع

كعكة لذيذة مثلها .

قالت آمى آسفة ، وقد جال بخاطرها ما صارت إليه الأصناف الكثيرة اللذيذة التى صنعتها :

ــ خذيها كلها يا ميج ، فليس فى البيت من يحب الحلوى سواى ، وستفسد الكعكة قبل أن آتى عليها .

وعندما جلس أفراد الأسرة ، لثانى مرة فى خلال يومين ، يأكلون ما تبقى من المايونيز والمثلجات ، قالت چو تفتح الحديث :

ــ من المؤسف أن لا يكون لورى معنا ، ليقاسمنا هذا الطعام اللذيذ .

وحدجتها والدتها بنظرة تحذير ، فكفت عن الاسترسال فى إبداء ملاحظاتها ، ومضى الأكل فى جو من الصمت ، قطعه مستر مارش قائلا :

ــ كانت سلطة المايونيز من الأصناف المحببة عند القدماء ، وكانت..

وهنا انفجرت البنات ضاحكات ، وقطعن على العالم الوقور حديثه عن تاريخ سلطة المايونيز .

قالت آمى ، وهى تجفف دموعها :

احزمى كل شىء ، وضعيه فى السلة ، وأرسليه إلى أسرة هاميل ، فالألمان يحبون الأكل ، ولقد مللت منظر أكداس الطعام هذه ، ولست أرى داعياً لأن تصيبوا أنفسكم بالتخمة ، بسبب تصرفاتى الحمقاء .

وتنهدت چو ، ثم قالت ضاحكة :

— كدت أموت حزناً حين رأيت العربة فارغة إلا منكما ، ثم شاهدت والدتى تدلف إلى الباب ، لاستقبال الجموع استقبالا رسمياً حافلا .

قالت مسز مارش والأسى يملأ قلبها :

— يؤسفنى أن خيب الفتيات أملك يا عزيزتى ، ولكننا بذلنا جميعاً غاية جهدنا ، لنرضيك ، وندخل على قلبك السرور .

أجابت آمى ، وفى صوتها رجفة ظاهرة :

— إنى راضية كل الرضا ، وعزائى أننى قمت بواجبى ، ولم تفشل الوليمة لخطأ منى . شكراً لكن جميعاً ، على جهودكن ومساعدتكن ، وسأكون أكثر شكراً وتقديراً ، لو أمسكتن عن الحديث فى هذا الموضوع ، لمدة شهر على الأقل .

ولم يشر أحد إلى الموضوع شهوراً عدة ، وإن كانت كلمة « وليمه » تثير الابتسام على الشفاه كلها ، وكانت هدية لورى لآمى فى عيد ميلادها ، تعويذة على شكل سمكة صغيرة حمراء .

الفصل السابع والعشرون

دروس فى الأدب

ابتسم الحظ لچو ، كأنما ألقى السعد فى حجرها تعويذة تأتيها بالمال . حقيقة كان نصيبها من المال قليلا ، ولكن هذا القليل حقق لها من السعادة الخالصة ما لا يحققه نصف مليون من الجنيهات .

كانت چو قد اعتادت أن تحتجب فى غرفتها بين آن وآن ، فتغلق دونها الأبواب ، وترتدى ثوب التأليف ، وتغرق إلى أذنيها فى نشوة الكتابة على حد تعبيرها .

وكانت ، إذا ما أرادت إتمام قصة ، تستغرق فيها قلباً وعقلا ، فلا

تعرف للهدوء طعماً حتى تنتهى من مهمتها . وكان الثوب الذى ترتديه عند الكتابة يتألف من ميئزر صوفى أسود ، تمسح فيه قلمها عند اللزوم ، ثم قلنسوة من النسيج ذاته ، محلاة بنقوش حمراء زاهية ، تحشر فيها خصلات شعرها قبل البدء فى العمل . وكانت هذه القلنسوة دليلا يرشد أفراد الأسرة إلى حالة چو المعنوية ، فكانوا من وقت لآخر يلقون عليها نظرة من فتحة الباب ، وقد يسألونها عما إذا كانت شعلة العبقرية تضىء كما يجب ، ولكن حركات القلنسوة كانت تغنى عن هذا السؤال فى أغلب الأحيان : فإذا كانت مشدودة إلى أسفل جبهتها ، فتلك علامة الجد والانهماك ؛ وإذا كانت على جانب من رأسها بانحراف على الأذن ، فمعناه الانفعال والثورة ؛ أما إذا استعصى الوحى وتوقفت العبقرية ، خلعت چو القلنسوة وضربت بها الأرض . وفى مثل هذه الحالات ، لا يستطيع أى فضولى أن يتدخل فى الأمر ، إنما ينسحب فى هدوء ، تاركاً چو لحالتها حتى تعود القلنسوة إلى مكانها الطبيعى ، وتستقر فوق حاجبيها الموهوبين مرة أخرى .

ولم تكن چو تؤمن بأنها عبقرية ، ولكنها كانت تنصرف إلى الكتابة حين تصيبها نوبة التأليف ، فتعيش فى عالمها سعيدة قريرة العين ، لا تحس بما حولها ، ولا يعنيها شىء أو يشغلها . وكانت تمضى بها الساعات والأيام ، وهى لاهية بدنياها العامرة بأصدقاء صنعتهم بقلمها ، وتخيلت أنهم أشخاص واقعيون ينبضون بالحياة .

وكان النوم يهجر عينيها ، ولا تجد للطعام مذاقاً فى فمها ، فيظل

الأكل موضوعاً أمامها دون أن تمسه ، وكان الليل والنهار ، خلال فترة الوحى ، أقصر من أن يتسعا لسعادتها الغامرة ، التى تريد أن تتمتع بها أطول وقت ممكن . وكانت هذه السعادة الغامرة تحبب إليها الحياة ، وتجعل للأيام معانى جميلة ، حتى ولو لم تنتج خلالها شيئا ، وكانت فترة الوحى تدوم أسبوعاً أو أسبوعين ، ثم تنقضى ، فتخرج چو من نشوتها جائعة أو نعسانة أو غاضبة أو قانطة ، حسب الظروف .

وذات مرة ، عندما كانت چو خارجة لفورها من إحدى هذه النوبات ، اضطرت أن تصحب مس كروكس إلى إحدى المحاضرات العامة ، فجوزيت على ذلك بأن واتتها فكرة جديدة طيبة . كانت المحاضرة درساً عامًّا فى « الأهرام » ودهشت چو لاختيار هذا الموضوع دون غيره ، ولكنها لم تلبث أن سلمت بما استهدفه المحاضر من إصلاح العيوب الاجتماعية بعرض تاريخ الفراعنة الأمجاد على المستمعين . . . أولئك المستمعون الذين لم يكن يشغلهم من أمور الدنيا سوى أسعار الفحم والدقيق ، ولا يستنفد تفكيرهم غير مشاكل تافهة ، يجعلون منها ألغازاً تفوق لغز أبى الهول ! !

وذهبت چو ومس كروكس مبكرتين إلى قاعة المحاضرة ، وبينما راحت مس كروكس تصلح كعب جوربها ، عمدت چو إلى تسلية نفسها بالتطلع فى وجوه الجالسين على جانبيها . . . رأت إلى يسارها سيدتين وقورتين ، لهما جبهتان عريضتان ، وعلى رأسيهما قبعتان مناسبتان لضخامة جسميهما ، وكانت السيدتان تتناقشان فى حقوق المرأة . وعلى بعد منهما

جلس حبيبان ملهوفان ، تشابكت أيديهما فى منظر لا يقره الذوق السليم ، وإلى جانبهما كانت امرأة سمراء تتلهى بالتهام أقراص النعناع ، وبعدها سيد عجوز استسلم للنوم مغطياً وجهه بمنديل أصفر اللون مزركش . أما عن يمينها مباشرة ، فلم يكن هناك سوى فتى انهمك فى قراءة مجلة ، وقد بدت على وجهه سيماء الجد والاهتمام .

وكانت المجلة قصصية مصورة ، فراحت چو تشغل وقتها بالتفرج على صورها ، فأعجبها تسلسل الحوادث المنتظم ، الذى أبرزته تلك الصور الطريفة : رأت صورة رجل هندى فى كامل عدة الحرب ، يكاد يسقط فى هوة سحيقة ، وقد أنشب ذئب أنيابه فى عنقه . وإلى جانب ذلك وقف رجلان غاضبان ، أقدامهما صغيرة جداً فى غير تناسب ، وعيناهما أوسع مما يجب ، وكان كل منهما يطعن الآخر بسكين ، وفى أسفل الصورة ظهرت امرأة مشعثة الشعر ، مفتوحة الفم ، تهرول مبتعدة عنهما .

وبينما الفتى يقلب صفحات المجلة ، لحظ أن چو تنعم النظر فى الصور ، فقدم لها نصف صفحات المجلة ، وهو يقول فى جرأة :

— أتحبين القراءة ؟ هذه قصة ممتازة .

ولم تكن چو قد تغلبت على حبها للتشبه بالفتيان ، فتقبلت منه المجلة باسمة ، وما كادت تبدأ القراءة ، حتى وجدت نفسها غارقة فى قصة تفيض كالمعتاد بالحب والغموض والقتل . . . أى من ذلك النوع الأدبى الخفيف ، الذى يلجأ المؤلف فيه إلى كوارث تقضى على نصف أبطال

القصة ، وتترك نصفهم الآخر يتمتع مسروراً بمصرعهم .

وحين رأى الفتى أنها انتهت من قراءة القصة ، سألها :

ـ قصة ممتازة ، أليس كذلك ؟

أجابت چو مندهشة لإعجابه بهذا اللون الأدبى التافه :

ـ أظن أننا نستطيع أن نكتب مثلها إذا حاولنا .

فقال الفتى :

ـ ليتنى أستطيع أن أفعل ذلك .

ثم أشار إلى اسم مسز نورث برى ، مؤلفة القصة ، وقال :

ـ هذه السيدة تكسب كثيراً من تأليف القصص .

سألته چو باهتمام مفاجىء :

ـ أوَ تعرفها ؟

قال :

ـ لا ، ولكنى أقرأ لها كل ما تكتب ، وأعرف صديقاً يشتغل فى إدارة الجريدة .

فنظرت چو باحترام شديد إلى الصور التى تمثل المعارك ، وإلى علامات الاستفهام الكثيرة المنبثة فى جميع أنحاء الصفحة ، قالت :

ـ أحقًّا تكسب المؤلفة كثيراً من كتابة مثل هذه القصص ؟

قال :

ـ أظن ذلك ، فهى تعرف النوع الذى يحبه الجمهور ،

وتتقاضى عليه مبالغ كبيرة .

وعندئذ بدأت المحاضرة ، ولكن چو لم تسمع منها إلا قليلا ، إذ كانت طول الوقت مشغولة بأفكارها عما يرويه المحاضر من تاريخ خوفو ، والجعارين المقدسة ، واللغة الهيروغليفية . ونقلت الفتاة عنوان المجلة ، بعد أن عزمت على دخول المسابقة ، التى تنظمها إدارتها ، لأحسن قصة عاطفية مثيرة ، والتى رصدت لها جائزة قدرها مائة دولار .

وحين انتهت المحاضرة ، واستيقظ المستمعون ، كانت چو قد جمعت لنفسها فى الخيال ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن بطبيعة الحال أول مرة تحلم فيها بهذا النوع من الثراء . وكانت أيضاً قد فرغت من دراسة فكرة قصتها الجديدة التى ظلت مترددة فى خاتمتها ، لا تعرف إذا كان أفضل أن تأتى المبارزة الحاسمة قبل هروب الحبيبين ، أو بعد قتلهما .

وعكفت على العمل دون أن تذكر كلمة عن مشروعها الجديد ، واختفت فى الغرفة على عهدها فى نوبات التأليف ، وكانت أمها تجزع لهذا الاختفاء ، وتقلق حين تشتعل نيران عبقرية چو .

لم تكن چو قد جربت هذا الأسلوب من قبل ، إذ انحصرت مجهوداتها السابقة فى كتابة قصص غرامية لمجلة « النسر » ، ولكن تجاربها المسرحية ، وقراءاتها المتنوعة ، ساعدتها كثيراً على مهمتها الجديدة ، وأعطتها أفكاراً عن القصص المحزنة ، وعلمتها ، بعض أسرار اللغة والملابس . وكانت قصتها فى هذه المرة ، حافلة باليأس والقنوط ، رغم تجاربها المحدودة فى

هذه العواطف المحزنة ، واختارت مدينة لشبونة مسرحاً لحوادثها ، وأنهتها بزلزال مريع ظنت أنه خير خاتمة مفجعة . وأرسلت القصة سراً إلى المجلة ، وأرفقتها برسالة تقول فيها بتواضع : « إنها لا تجرؤ على التطلع إلى الجائزة الأولى ، ولكنها ترحب بأى مبلغ تدفعه المجلة ثمناً لقصتها » .

وكان عليها أن تنتظر ستة أسابيع قبل أن تظهر النتيجة ، وكان وقتاً طويلا لمن اختارت مثلها أن تطوى صدرها على سرها ، ولا تبوح به لأحد . ولكنها احتملت الانتظار صابرة ، وعندما بدأت تفقد كل أمل فى رؤية قصتها مرة أخرى ، وصل إليها من المجلة خطاب ، حين فضته ، سقط منه إلى حجرها شيك بمائة دولار . ومرت لحظة وهى تحدق النظر فى الشيك ، وهى تلهث خوفاً وانفعالا ، كأنه ثعبان مرعب . . . ثم تمالكت روعها ، وقرأت الخطاب ، ولما انتهت منه ، انهمرت الدموع من عينيها ، ولو أدرك السيد الطيب الذى صدر هذا الخطاب اللطيف ، كم ستسعد الفتاة به ، ما توانى عن أن يكرس وقت فراغه — إذ كان لديه فراغ — ليمتع نفسه برؤية المنظر الشائق : فقد اغتبطت چو بما جاء فى الخطاب من عبارات التقدير ، أضعاف ما اغتبطت بالشيك ، ووجدت فيها تشجيعاً عظيما ، يعوضها خيراً ، عن جهاد السنوات المتتالية ، ويمنيها بمستقبل باهر .

وكانت چو فى تلك اللحظة ، أسعد خلق الله كلهم ، فلما تمالكت روعها ، دخلت على أهلها تحمل الشيك بيد والخطاب باليد الأخرى ، ثم أعلنت لهم خبر فوزها بالجائزة ، فاحتفلت الأسرة بنجاحها العظيم ، وحين

نشرت القصة ، قرأها كل فرد منها ، وقرظها أحسن تقريظ . ولكن أباها ، بعد أن امتدح اللغة ، وأثنى على الرواية وما فيها من مأساة تحرك المشاعر ، هز رأسه ، وقال بلهجة المجرب :

ــ باستطاعتك أن تنتجى خيراً من هذا يا چو . انشدى الكمال قبل المال .

وقالت آمى ، وهى تتطلع بخشوع إلى القصة الساحرة :

ــ أعتقد أن المال خير ما فى المسألة كلها .

ثم انثنت على أختها تسألها :

ــ ماذا ستصنعين بهذه الثروة يا چو ؟

أجابت چو دون تردد :

ــ سأرسل بها بث ووالدتى ، ليقضيا شهراً أو شهرين على شاطئ البحر .

وصاحت بث ، وهى تصفق بيديها النحيلتين ، وتزفر زفيراً عميقاً كأنها تتنشق هواء البحر العليل :

ــ ما أبدع ذلك ! ولكنى لست أنانية لأقبل مثل هذه التضحية يا چو .

وتوقفت عن الكلام فجأة ، وأعادت الشيك إلى أختها ، وكانت قد أعطته لها ، ولكن چو قالت بحزم :

ــ لابد من ذهابك ، إنه الهدف الذى جاهدت لتحقيقه ، وهو

السر الحقيقى فى نجاحى. فما كنت لأنال توفيقاً لو أننى حصرت أمالى فى نفسى . كان يشجعنى كثيراً أن أفكر فيكم وأعمل لكم . ثم إن أمى فى حاجة إلى التغيير ، وهى لا تستطيع أن تتركك ، ولذلك يجب أن تذهبى . ألا يسرنا جميعاً أن تعودى إلينا من المصيف ممتلئة الجسم متوردة الخدين ؟ مرحى يا دكتور چو ، أنت والله طبيبة ماهرة تعرفين كيف تعالجين مرضاك .

وبعد مناقشة طويلة ذهبت الأم مع ابنتها إلى شاطئ البحر، وعادت بث أحسن حالا ، وإن كان جسمها لم يمتلىء ، وخداها لم يتوردا كما

كان مأمولا . واعترفت مسز مارش أنها استعادت شبابها ، ورجعت بسنها عشر سنوات إلى الوراء . وسرت چو للنتائج التى وصلت إليها بحسن استخدام المال الذى كسبته ، وعادت إلى العمل بنفس مبتهجة ، وقد صممت على اكتساب كثير من هذه الشيكات السارة ، وفعلا كسبت عدداً منها فى هذه السنة ، وبدأت تشعر بأنها أصبحت قوة فى الأسرة ، وأن قلمها نجح فى تحويل التوافه التى تكتبها إلى مال يسعد أهلها ، ويوفر لهم أسباب الراحة . وأمكنها أن تسدد حساب الجزار من ثمن قصة « ابنة الدوق » ، واشترت سجادة جديدة بقصة « اليد الخفية » ، كما جاءتها « لعنة كوفنترى » بكساء الأسرة وحساب البدال .

لا شك أن المال جميل مرغوب ، ولكن للحرمان أيضاً جوانب مشرقة ، أجملها الشعور بالرضا الصادق بما تنتجه اليد ، أو يجود به الفكر . وفى الواقع أننا مدينون لوحى الحاجة ، بنصف ما نتمتع به فى هذا العالم من حكمة أو عبقرية أو جمال . وكانت چو أحد هؤلاء الذين أفاء الله عليهم نعمة الرضا ، ولذلك كفت عن حسد الفتيات الموسرات . وقنعت من لذائذ الدنيا ، بقدرتها على توفير مطالب حياتها ، واستغنائها بكدها عن سؤال الغير .

ولم تثر قصصها فى الواقع اهتماماً خاصا ، ولكنها ظلت مع ذلك تجد سوقاً رائجة ، مما شجعها على اتخاذ خطوة خطيرة أخرى فى سبيل المجد والثروة . فذات مرة انتهت من نسخ قصتها للمرة الرابعة ، وفرغت من

قراءتها لأصدقائها المقربين ، ثم بعثت بها خائفة إلى ثلاثة من الناشرين . فلما جاءها الرد بقبول نشرها على شريطة أن تختصرها إلى ثلث ما هى عليه ، وأن تحذف منها جميع الأجزاء التى حازت إعجاب أصدقائها ، دعت چو مجلس الأسرة وعرضت عليه مشكلتها . قالت :

ــ أنا الآن بين أمر من ثلاثة : أن أحزم أوراقى هذه ، وأودعها الصندوق الصفيح حيث يبليها الزمن . . . أو أقوم بطبعها على نفقتى الخاصة . . . أو أقتطع منها ما شاء الناشرون وأحصل على الثمن . إن المجد شىء جميل فى داخل البيت ، ولكن المال أنفع منه ، ولقد جمعتكم لأسألكم الرأى فى هذا الموضوع الهام .

قال أبوها ناصحاً :

ــ لا تفسدى عملك يا بنيتى ، ففى كتاباتك قيم أكثر مما تقدرين ، ولقد نجحت فى اختيار الفكرة ، وأحسنت إبرازها ، فاحتفظى بها حتى تنضج .

وكان الأب مخلصاً فى كلامه ، أميناً لآرائه ومعتقداته ، لا يقول إلا ما يفعل ، ولقد انتظر ثلاثين عاماً حتى تنضج رسالته وتأتى بثمراتها المرجوة ، وعندما طابت ثمراتها بعد طول هذا الزمن ، اختار أن يتذرع بالصبر ، فلا يتعجل جنيها .

قالت مسز مارش :

ــ أعتقد أن چو تستفيد من المحاولة أكثر من الانتظار ، فالنقد خير

موجه للإنسان ، به تظهر العيوب والميزات ، ونحن فى حيرة شديدة أمام مايجب أن ننصحها به ، ولكننى أعتقد أنها تستفيد كثيراً مما يأتيها من مديح الغرباء ونصحهم ، بصرف النظر عن ثمن ما تكتبه .

وضمت چو حاجبيها وقالت :

ــ هذا حق . لقد تكلمت طويلا فى هذا الموضوع ، ولست أدرى فى الواقع ، إن كان الكلام فيه ضاراً أو مفيداً ، وأرانى على أى حال ، فى مسيس الحاجة إلى رأى محايد فى شأن هذا الكتاب الجديد .

وكانت ميج تعتقد أن هذا الكتاب هو خير قصة كتبتها چو ، فقالت :

ــ لو كنت مكانك ما تخليت عن كلمة واحدة منه ، وأخشى إن حذفت شيئاً ، أن تفسدى الموضوع كله ، فقيمة القصة تتجلى فى عرض أفكار أبطالها ، لا فى تتبع حركاتهم ، وسيختلط الأمر إذا لم تفسرى كل حركة فى كل مرحلة من مراحل القصة .

وقاطعتها چو تقول ، وهى تشير إلى مذكرة الناشر :

ــ ولكن مستر ألن يقول « اتركى التفسيرات جانباً ، واختصرى ، ثم الزمى حدود القصة ، ودعى الأبطال يتكلمون بأنفسهم .

وقالت آمى ، وقد كانت نظرتها إلى الموضوع نظرة عملية .

ــ افعلى ما يشير به عليك . فهو أكثر منك خبرة بالقصص الرائجة ، ونحن مثلك لا نعرف قدر ما يعرف ، فخذى بتوجيهه ، واجعلى قصتك

محبوبة إلى القراء ، واحصلى منها على قدر ما تستطيعين من المال . وحين يلمع اسمك فى عالم التأليف شيئاً فشيئاً ، يصبح فى مقدورك أن تخرجى عن هذا النطاق ، فتدخلى فى قصصك من تريدين من أبطال فلسفيين ونظريين .

فقالت چو ضاحكة :

ــ حسناً ليس خطئى أن يكون أبطالى فلاسفة مفكرين ، فأنا لا أعرف عن هذه الأشياء إلا ما أسمعه من أبى أحياناً ، ومن صالحى أن تختلط آراؤه الحكيمة بر واياتى . والآن يا بث ، ما رأيك أنت ؟

قالت بث فى اقتضاب :

ــ أود أن أرى هذه القصة مطبوعة فى أقرب وقت مستطاع .

ولم تفارق الابتسامة شفتيها وهى تقول ذلك ،ولكنها ضغطت دون أن تشعر على كلمة « فى أقرب وقت » ، ونظرت إلى چو نظرة بريئة ملؤها الحب . وأحست چو ببرودة الخوف تسرى إلى قلبها من هذه الكلمات المضغوطة ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة يسيرة ، قررت على أثرها أن تقامر بهذه القصة سريعاً ، وفى أقرب وقت .

ووضعت المؤلفة الشابة كتابها الأول على المائدة ، وأخذت تقطع أوصاله بعزم ثابت وقساوة بالغة . فلقد استطلعت آراءهم جميعاً واحداً بعد واحد ، لتدخل السرور على قلوبهم ، ولكنها خرجت من المعركة كما خرج صاحب الحمار من القصة المعروفة ، دون أن ترضى أحداً .

كان أبوها قد أعجب ببعض النقط الروحانية ، التى تسربت إلى القصة عن غير قصد ، فأبقت عليها إكراماً له ، واعتقدت أمها أن كثيراً من الوصف تافه لا يستحق الذكر ، فحذفت جميع الأوصاف ، ومعها بعض الروابط الضرورية للحوادث . وأعجبت ميج بالمآسى ، فاحتفظت چو بدوافع الألم كلها لترضيها ، واعترضت آمى على الجانب الضاحك من القصة ، فقضت چو على المناظر الخفيفة التى كانت تضىء جوانب الموضوع . ثم جاء التدمير النهائى حين اختصرت ثلث الكتاب ، ثم أرسلته إلى الناشر ، كعصفور صغير منتوف الريش ، خرج يجرب حظه فى هذا العالم الكبير .

وطبعت القصة ، وتسلمت چو ثلثمائة دولار ثمناً لها . واستقبل النقاد القصة بمزيد من المديح والذم ، وكان النقد أكثر مما توقعت ، فوقعت چو فى حيرة شديدة ، لم تتخلص منها إلا بعد وقت طويل .

صاحت ، وهى تقلب أكداساً من القصاصات ، كانت مطالعتها تملؤها بالزهو والفرح مرة ، وبالغضب والرعب مرة أخرى .

ــ لقد قلت يا أماه إن النقد يساعدنى على الكمال ، ولكن كيف يمكننى أن أبلغ الكمال ، وأقوال النقاد ، كما ترين ، متضاربة متنافرة ، حتى لا أكاد أعرف إذا كنت حقًّا قد كتبت كتاباً يبشر بالنجاح ، أم أنى خالفت الوصايا العشر ؟ ؟ رجل يقول : « إنه كتاب نفيس ملىء بالصدق والجمال والحزم ، كل ما فيه حلو نقى سليم ؛ والثانى يقول :

« نظرية عقيمة ، وتحليلات سقيمة ، وأفكار روحانية رجعية ، وأبطال كلهم غير طبيعيين » . ولما كنت لا أعرف لنفسى نظرية معينة ، ولا أومن بالروحانيات ، وأنقل شخصيات قصصى من الحياة نفسها ، فلست أدرى ، كيف يمكن أن يكون هذا الناقد على حق . ويقول ثالث : « إنها أحسن الروايات الأمريكية التى ظهرت منذ سنين » — وأنا أعرف أن هناك ما هو أحسن منها — ؛ ويؤكد آخر « أن القصة ، وإن كانت مبتكرة ، ومكتوبة بقوة غامرة وشعور فياض ، إلا أنها قصة خطيرة » ، مع أنى لا أرى فيها خطورة قليلة أو كثيرة ، وبجانب هذا أمعن بعضهم فى السخرية بها ، وغالى بعضهم الآخر فى مديحها ، وكلهم مجمعون تقريباً ، على أن لى نظرية غاية فى العمق تحتاج إلى الشرح ، مع أنى لا أكتب هذه القصص إلا للذة الكتابة وثمنها . وددت لو أنى طبعت القصة كاملة ، أو أنى لم أطبعها كلية ، فأنا أمقت أن يساء الحكم على بهذه الصورة .

ورغم تشجيع الأسرة والأصدقاء ، مضت بجو فترة عصيبة ، شعرت خلالها بأنها أساءت من حيث أرادت الإحسان . ومع ذلك فقد أفادت من التجربة المرة ، إذ نالت النقد الصحيح ممن تعتد بآرائهم وتقديرهم ، ذلك النقد الذى هو خير معلم للمؤلف الناشئ . وحين مرت فترة المرارة الأولى ، استطاعت أن تضحك من كتابها الصغير البائس ، ولكنها ظلت على إيمانها به ، تشعر بأنها قد صارت أكثر حكمة وأشد قوة ، بعد الحملات التى لاقتها .

قالت فى فخار :

ـ لن يقتلنى ألا أكون فى عبقرية كيتس العظيم ، ومع ذلك فإن الفكاهة اللاذعة فيما حدث تفيدنى ، فكل ما أخذته من الحياة الواقعية مباشرة ، استنكره النقاد ، وقالوا عنه إنه مستحيل وغير معقول . وكل المناظر التى ابتدعتها من خيالى ، قيل عنها إنها طبيعية وجذابة ورقيقة وصادقة. ولذلك ستهدأ نفسى بهذه النتيجة ، وحين أجد الشوق إلى الكتابة ، فسأبدأ العمل من جديد ، وأخرج قصة أخرى .

الفصل الثامن والعشرون

تجارب منزلية

بدأت ميج حياتها الجديدة وفى عزمها أن تكون ربة بيت مثالية ، شأنها شأن معظم الفتيات عندما يقبلن على الحياة الزوجية ، وقالت : إن چون يجب أن يرى وجهاً باسماً دائما ، وأن يأكل كل يوم طعاماً لذيذا ، ولا يشعر بنقص فى أزرار ملابسه ، وأن يكون البيت جنته الوارفة . وأحبت ميج مهمتها الجديدة ، وأضفت عليها من روحها نشاطاً وبهجة ، فلم يكن هناك بد من نجاحها ، على الرغم من العقبات التى صادفتها . ولكن الجنة لم يسدها الهدوء المنشود : فقد كانت ربة البيت الصغيرة كثيرة المناقشة ،

مسرفة فى القلق ، صعبة الإرضاء . وكانت دائمة الحركة تثقل نفسها بالهموم ، حتى يستبد بها الإرهاق والوجوم ، فلا تقوى على الابتسام ، كما أصيب زوجها بعسر الهضم ، لكثرة ما أكل من أطباق شهية ، فراح يطالب بطعام خفيف . أما الأزرار فكانت تضيع لغير ما سبب ، مما جعل ميج تهز رأسها عجباً وأسفاً ، وتهدد چون بأنها ستترك له مهمة تثبيتها فى المرات القادمة .

وقد أدرك الزوجان أنهما لا يستطيعان الحياة بالحب وحده ، ولكنهما كانا سعيدين كل السعادة ، ولم ينقص جمال ميج فى نظر چون ، على الرغم من انصرافها لأعمال البيت ، ولم تشعر ميج أن انشغال زوجها بسؤالها عن نوع اللحم الذى تريده فى العشاء ، خفف من حرارة قبلاته لها . وفى الواقع لم يعد البيت الصغير عش الغرام ، إنما أصبح مسكناً فقط ، وشعر الزوجان الشابان بأن هذا التغيير كان من حسن إلى أحسن . وكانت إدارة البيت فى بادئ الأمر لعبة يتجاذبانها كأطفال صغار . ولكن چون ما لبث أن شغل بالعمل ، مقدراً واجباته نحو الأسرة الجديدة ، التى يترأسها ويحمل أعباءها . كما خلعت ميج ملابسها الثمينة ، وارتدت مرولة المطبخ ، وانهمكت فى أداء أعمالها المنزلية بنشاط لم تكن تتوقعه .

وانتابت ميج حمى الطبخ ، فكانت إذا ما أصابتها هذه الحمى ، تجلس إلى كتاب « كورنيليوس » تقرأ فيه بأمعان ، كأنما هى أمام مسألة حسابية تحل ألغازها فى صبر وعناء . وكانت إذا نجحت فى عمل صنف

من الطعام ، دعت الأسرة إلى المساهمة فى تناوله ، وإذا فشلت ترسل بالطعام خفية مع لونى ، إلى بيت هامل حيث يختفى نهائيًّا فى بطون لاتعرف الشبع .

وفى المساء كانت تجلس مع چون لمراجعة حساب النفقات ، فتجد أحياناً أنها أسرفت أكثر مما يجب ، وعندئذ تفتر حماستها للطهو ، وتتلو هذا الفتور مرحلة من التقشف يتعرض فيها چون لأكل البودنج الجاف والقهوة والسمك المحفوظ ، فكانت نفسه تضيق بهذا الطعام ، ولكنه يحتمله بصبر يثير الإعجاب .

وكانت ميج تتمنى أن تملأ خزانة الطعام بما تصنعه من المربيات والحيلى ، فطلبت من چون أن يشترى لها مجموعة من العلب الصغيرة ، وكمية إضافية من السكر ، حتى تستفيد بثمار التوت ، التى نضجت فى حديقتها . ولما كان چون يؤمن بمهارتها إيماناً راسخا ، فقد قرر أن يلبى مطالبها ، ليمكنها من حفظ الفاكهة بخير طريقة تراها . وأمر بأن يرسل إلى البيت عدد كبير من العلب ، ونصف جوال من السكر ، كما استأجر صبيًّا صغيرا ، ليجمع التوت من حديقته . وحين وصلت هذه الأشياء إلى البيت ، شمرت ميج عن ساعد الجد ، وغطت شعرها الجميل بقلنسوة ، وارتدت مرولة المطبخ ، ثم بدأت تعمل واثقة بقدرتها على الإتقان ، بعد أن رأت حنا تصنع چيلى التوت مئات المرات . ولقد أدهشها أول الأمر ذلك العدد الكبير من العلب ، ولكنها عادت وتذكرت غرام چون بالحيلى

اللذيذ ، فاستقر رأيها على أن تصنع منه كمية كبيرة وتخيلت جمال منظر العلب وهى مرصوصة فى مخزن الطعام .

وأمضت يوما كاملا فى فرز التوت وغليه وتقليبه ، وبذلت فى ذلك غاية جهدها ، ورجعت إلى موسوعة الطبخ تستوحيها الرأى ، وعصرت ذهنها لتتذكر ما نسيته من أساليب حنا وحيلها ، ثم رجعت إلى المزيج تقلبه وتغليه من جديد ، وأضافت إليه مزيداً من السكر ، ولكن الحيلى رفض أن يتماسك كما يجب .

وودت لو أنها هرعت إلى بيت أبيها ، تسأل أمها المساعدة ، ولكنها عدلت عن ذلك ، إذ كانت قد اتفقت مع چون على الاحتفاظ بمشاكلهما وتجاربهما ونزاعهما . وقد ضحك كلاهما فى ذلك اليوم عند ذكر النزاع ، كأن احتمال الخلاف مستحيل ، والحق أنهما تمسكا بعهدهما ، وسارا فى طريقهما دون تدخل أو معونة من أحد ، وكان هذا العهد فى الواقع عملا بنصيحة أمها الطيبة .

ووقفت ميج وحدها تعالج التوت طوال اليوم القائظ ، فلما بلغت الساعة الخامسة دون أن يتماسك ، استبد بها اليأس ، فجلست فى المطبخ الهائج المشوش ، تعصر يديها المخضبتين بحمرة التوت ، ثم انفجرت تبكى بصوت عال ، وهى لا تدرى بما يخفيه لها هذا اليوم المشئوم من متاعب أخرى كثيرة .

كانت فى مستهل حياتها الزوجية تقول دائماً :

ـ يجب أن يكون زوجى حرًّا فى تصرفاته ، يدعو إلى البيت من يشاء ، فى أى وقت يشاء ، وعلىّ أن أكون دائماً مستعدة ، وأن يكون البيت نظيفاً هادئاً ، وأن أبدو مبتهجة ، وأن أطهو طعاماً جيداً .

وكانت تقول لچون :

ـ لا تتردد يا عزيزى فى دعوة من تشاء ، ولا تسألنى الإذن ، وثق بأنك ستجد منى كل ترحيب بضيوفك .

وكانت كلمة « ثق » تملأ قلب چون زهواً وفخاراً ، حتى ليحمد الله على ما أنعم به عليه من زوجة طيبة ممتازة . وكانا فى الواقع يستقبلان ضيوفاً بين آن وآن ، ولكن لم يحدث أبداً أن جاءت زيارات الضيوف فجأة وبغير علم سابق ، وبذلك لم تسنح لميج فرصة تختبر فيها قدرتها على مجابهة المفاجآت .

ولكن الذى لم يحدث سابقاً ، كان يجب أن يحدث فى يوم ما ، وهكذا عاد چون إلى البيت ومعه ضيف غير منتظر ، فتعقدت الأمور فى أسوأ الظروف . ولو لم يكن چون قد نسى انشغال زوجته بجيلى التوت ، ما فكر فى اصطحاب صديق غريب ، فى ذلك اليوم المشئوم . ولكن الأمر غاب عنه مع الأسف ، ولم يعد يذكر إلا أنه اشترى فى الصباح طعاماً شهيًّا لبيته ، فطاب له أن يدعو صديقاً للعشاء ، راجياً أن تترك الدعوة فى نفسه أعمق الأثر ، حين تهرع زوجته لاستقباله مرحبة ، وتقدم له صحون الأكل اللذيذة .

ولكننا نعيش فى عالم ملىء بالمفاجآت ، وليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، وقد تبين چون هذه الحقيقة حين وصل إلى « برج الحمائم » ، وهو الاسم الذى أطلق على بيته الصغير ، فوجد الباب الخارجى مغلقاً ، وكانت العادة أن يستقبله مفتوحاً على مصراعيه . وياليته كان مغلقاً فحسب ، إنما كان موصداً بالقفل ، ووحول أمس ما تزال تلطخ درجات السلم الأمامى . وكانت نوافذ غرفة الاستقبال مسدلة الستائر ، ولا أثر لزوجه الجميلة التى تجلس عادة عند المدخل ترحب بالضيوف فى ابتسامة كلها حياء . ولم يكن فى المكان أثر لإنسان ، اللهم إلا صبيًّا صغيراً يغط فى النوم تحت شجيرات التوت .

وذعر چون لهذا السكون والوحشة ، فقال لصديقه :

ــ أخشى أن يكون مكروه قد حدث ، ادخل الحديقة يا سكوت ، وسأبحث عن مسز بروك .

ودار چون حول البيت فى لهفة ، تقوده رائحة قوية لسكر محروق ، وسار الصديق خلفه فى عجب وتساؤل ، وحين دلف چون إلى البيت واختفى فيه ، وقف سكوت فى الخارج على بعد يستطيع منه أن يسمع ويرى ، ولما كان أعزب فقد استمتع بما دار بين الزوجين من حديث طريف .

دخل چون المطبخ فوجده فى اضطراب وفوضى ، ورأى عينات الحيلى متناثرة هنا وهناك ، عينه تملأ العلب ، وثانية ما زالت فى آنية موضوعة على الأرض ، وثالثة تحترق على النار ، وكانت لوتى تجلس فى برودها

المعهود ، وهى تغمس قطعة من الخبز فى سائل الچيلى الذى رفض أن يتجمد رغم الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل ذلك . وإلى جانبها جلست مسز بروك تبكى وتنوح ، فأسرع چون إلى زوجته منزعجاً ، وقد ظن أنها أحرقت يدها بالماء الساخن ، أو أصابها مكروه من نوع ما ، وكان القلق يساوره كلما فكر فى الضيف الذى ينتظره فى الحديقة . صاح بها قائلا :

ــ ماذا حدث يا فتاتى العزيزة ؟

قالت الزوجة المكدورة :

ــ أواه يا چون ! يكاد يقتلنى القلق والغضب ، فقد أمضيت النهار كله فى صنع هذا الچيلى ، حتى غلبنى الإنهاك والتعب . تعالى ساعدنى وإلا مت كمداً .

وارتمت ميج على صدر زوجها تستقبله استقبالا حلواً بكل معانى هذه الكلمة ، إذ كانت المرولة مبللة بشراب التوت ، وأرض المطبخ ملطخة بالسكر المغلى . سألها الزوج الحائر بعد أن طبع قبلة على جبينها فوق القلنسوة المائلة على جانب من رأسها :

ــ حدثينى بما يضايقك يا عزيزتى ، هل أصابك مكروه ؟

قالت ميج وهى تنشج فى يأس :

ــ نعم ! !

قال :

اذكرى ما حدث بسرعة ، وكفى عن البكاء ، فأنا لا أستطيع احتمال

هذا المنظر . علىّ بالنبأ المزعج يا حبيبتى .

صاحت تقول :

— الچيلى . . . الچيلى لا يريد أن يتجمد ، ولست أدرى ما ذا أفعل ! !

وانفجر چون ضاحكا ، بصورة لم يجرؤ على إعادتها بعد ذلك ، وابتسم سكوت الساخر حين سمع ضحكته العالية . قال چون :

— أهذا كل ما فى الأمر ؟ ألقى بالچيلى من النافذة ، ولا تشغلى نفسك بها ، وسأشترى لك منها ما تريدين . . . دعك من القلق الآن ، فقد أحضرت چاك سكوت ، ليتناول معنا العشاء ، و . . .

وقطعت ميج عليه حديثه بأن دفعته بعيداً عنها ، وارتمت على مقعد قريب ، وقد عقدت يديها فى يأس بالغ . صاحت تقول فى نبرات عامرة بالغضب والحزن واللوم :

دعوت ضيفاً للعشاء ، والبيت كله فى اضطراب وفوضى ؟ كيف أقدمت على مثل هذا العمل يا چون بروك ؟

قال فى صوت خفيض ، وهو يستعرض ما سيسفر عنه الموقف من إحراج :

— هس . . . إنه فى الحديقة . . . لقد نسيت أمر الچيلى اللعين ، ولا سبيل إلى خروجنا من المأزق .

ولكن ميج قالت ثائرة :

— كان يجب أن تعلننى بقدومه لأستعد ، أو كنت تخبرنى فى

الصباح بدعوة صديق ، وكان يجب أن تراعى مشغوليتى الكبيرة .

ولم يكن هذا الغضب بدعة من ميج ، فإن اليمام الوديع ، على ما عرف عنه من هدوء وألفة ، ينقر حين يغضب .

قال چون ، وقد غلبه الحزن :

ــ لم يكن فى نيتى هذا الصباح أن أدعو أحدا ، ولم يتسع الوقت لأعلنك بقدومه ، فقد قابلته فى طريق عودتى ، ولم يطرأ لذهنى أن أستأذنك بعد أن طلبت إلى مراراً أن أدعو من أشاء وقت ما أشاء . هذه أول مرة أفاجئك فيها بضيف ، ولن أفعل ذلك بعد الآن .

قالت :

ــ أرجو ذلك ، والآن خذ صديقك واخرج به فى الحال ، فلن أقابله ، وليس عندى أى عشاء لكما .

قال وهو يسرع نحو مخزن الطعام :

ــ حسنا ، ولكن أين اللحم والخضر التى أرسلتها هذا الصباح ، وأين البودنج الذى وعدت بصنعه ؟

قالت ميج ، وقد سبقتها عبراتها :

ــ لم يكن لدى وقت لأطهو شيئاً ، وكنت أنوى أن نتعشى مع أمى . إنى آسفة ، ولكنى كنت مشغولة جداً .

وكان چون رجلا عاقلا معتدلا ، ولكنه كان بشراً فى الوقت نفسه ، فإن يجئ إلى بيته مكدوداً جائعاً بعد عمل مضن طول اليوم ، وكله أمل

فى الراحة والطعام الشهى ، ثم لا يجد شيئاً إلا بيتاً مشوش النظام ومائدة خاوية وزوجاً غاضبة ، فهذا أمر لا يدعو إلى الهدوء أو راحة البال . ولكنه كبح جماح نفسه ، وكان من الممكن أن ينتهى الموقف بسلام ، لولا كلمة طائشة بدرت منه عن غير قصد ، إذ قال :

— أعترف بأنه موقف حرج ، ولكن فى مقدورنا أن نخرج منه إذا تعاونا . لا تضيعى الوقت فى البكاء يا عزيزتى ، واجهدى نفسك قليلا ، وحاولى أن تقدمى لنا ما نأكله ، فكلانا يكاد يموت جوعاً ، وأى شىء يكفينا ، أعدى لنا اللحم البارد والخبز والجبن ، وأعدك ألا نطلب شيئاً من چيلى التوت .

قال كلمته الأخيرة بقصد التفكه والتندر اللطيف ، ولكنها جاءت قضاء مبرماً على آماله كلها ، إذ اعتبرتها ميج تشهيراً بالغاً بها ، وتعريضاً موجعاً بفشلها ، قالت ثائرة :

— حاول أن تنقذ نفسك من هذه الورطة ، أما أنا فقد نفد جهدى ، ولن أحرك أصبعاً لمعونة أحد ، وليس فى البيت شىء مما تقترح ، وليس عندى ما أقدمه غير العظام والخبز الجاف . خذ صاحبك إلى بيت أمى ، وقل له إنى مريضة ، أو غير موجودة فى البيت ، أو إنى مت ، أو أى شىء آخر يحلو لك ، فلست أريد أن أراه ، ولكما أن تسخرا من الچيلى . قدر ما تشاءان ، ولكنكما لن تتناولا شيئاً فى هذا البيت .

وألقت ميج إليه بهذا التحدى ، ثم رمت مرولتها على الأرض ،

وسارعت بالانسحاب من ميدان المعركة ، لتنعى همومها فى غرفة نومها .

ولم تعرف ميج ما حدث للرجلين فى غيبتها ، ولا ماذا فعلا ، إنما عرفت أن سكوت لم يذهب إلى منزل أمها ، وحين نزلت إلى المطبخ بعد انصرافهما معاً ، وجدت آثاراً مشوشة للطعام ، مما زادها اشمئزازاً واستنكاراً وأخبرتها لوتى أنهما أكلا كثيراً ، وضحكا كثيراً ، وأن السيد بروك أمرها بأن تلقى بچيلى التوت فى صندوق الفضلات ، وتخفى جميع العلب عن العيون

وودت ميج أن تذهب إلى أمها وتفضى إليها بما حدث ، ولكن الوعد الذى قطعته لچون ، وخجلها الشديد من نقض هذا العهد ، أقعداها عن الذهاب . وبعد أن نظفت المطبخ والأوانى ، ارتدت ملابسها فى أناقة ، وجلست تنتظر عودة چون ، لتصفح عنه !

ولكن چون لم يحضر ، إذ كان له رأى آخر فيما حدث ، فقد حمل الأمر محمل الفكاهة مع صديقه سكوت ، والتمس لزوجته المعاذير ما استطاع ، وقام بدور المضيف خير قيام ، مما جعل الضيف يستمتع بالعشاء المفاجىء غاية الاستمتاع ، ويعد بتكرار الزيارة ثانية . وكان چون غاضباً فى قرارة نفسه رغم تظاهره بالمرح ، لأن ميج أوقعته فى مأزق حرج ، ثم تخلت عنه وهو فى أشد الحاجة إلى معونتها . راح يقول لنفسه : « لم يكن من العدل أن تحضنى على اصطحاب من شئت من الضيوف فى أى وقت وتمنينى بالحرية فيما أفعل ، وإذا أخذتها عند كلمتها خذلتنى ، وألقت علىّ اللوم ، وتركتنى لسخرية الناس وإشفاقهم . هذا لا يصح ، ويجب على

ميج أن تعرف ذلك » ؛ وجعلت الأفكار الغاضبة تتضارب فى رأس چون فى أثناء المأدبة ، ولكن حين انتهى القلق الذى ساوره ، وقفل راجعاً إلى البيت بعد أن أوصل سكوت وودعه ، كان قد استعاد بعض هدوئه ، فقال يحدث نفسه : « يا للصغيرة المسكينة ، لقد كان الموقف شديداً عليها بعد كل ما بذلت لإرضائى ، . . . لا شك أنها أخطأت ، ولكنها ما تزال شابة صغيرة ، وجدير بى أن أكون صبوراً معها ، أحاول تعليمها » . وتمنى فى قلبه ألا تكون قد ذهبت إلى بيت أمها ، إذ كان يكره الثرثرة والتدخل والقيل والقال .

وأقلقته هذه الفكرة ، ولكنه خشى فى الوقت نفسه أن يكون البكاء قد أضر بصحة ميج ، واستحث الخطا إلى البيت ، فسار إليه مسرعاً ، وقد رق قلبه ، وصح عزمه على أن يكون معها هادئاً عطوفاً حازماً ، وأن يرشدها إلى مواضع النقص فى تصرفاتها ، ويريها كيف قصرت فى أداء واجبها نحو زوجها .

وكانت ميج قد قررت فيما بينها وبين نفسها ذات الأمر ، وانتوت أن تكون هادئة عطوفة ، ولكن فى حزم ، وأن ترشده إلى واجبه نحوها . وحين رأت زوجها مقبلاً ، شعرت برغبة شديدة فى أن تسرع إليه ، لتطلب الصفح ، فيقبلها ويسترضيها ، ولكنها قاومت هذه الرغبة ، وقبعت فى مكانها ، وراحت تترنم بنغم ، وتهز كرسيها وهى تنسج خيوطها ، ككل سيدة تتمتع بفراغها فى قاعة استقبالها الأنيقة .

وشعر چون بشيء من خيبة الأمل، عند ما توانت زوجته عن استقباله بالترحيب الذى كان يتوقعه ، وأحس أن كرامته تتطلب منها أن تعتذر له أولاً ، ولذلك لم يتقدم بالاعتدار من جانبه ، بل دخل قاعة الاستقبال مبتسماً ، وجلس على الأريكة ، ولم يقل شيئاً اللهم إلا ملاحظة عابرة . قال :

ــ سنستقبل قمراً جديداً يا عزيزتى .

أجابت ميج فى هدوء :

ــ لا اعتراض لى على ذلك .

وتبادل الاثنان عبارات قليلة ، وكان مستر بروك ، يطرق من وقت لآخر موضوعات ذات أهمية لهما ، ولكن ميج كانت ترد فى غير تحمس ففتر الحديث بينهما . واتجه چون إلى إحدى النوافذ، وفتح جريدته واختفى وراءها ؛ وذهبت ميج إلى النافذة الأخرى ، وراحت تطرز فى اهتمام مضاعف ، وهكذا خيم الصمت عليهما ، رغم أنهما كانا فى قلق وضيق .

قالت ميج تحدث نفسها :

ــ إن الحياة الزوجية متعبة جداً ، وتحتاج إلى صبر لا يفرغ ، شأنها فى ذلك ــ كما تقول أمى ــ شأن الحب سواء بسواء .

وبعثت الفكرة فى رأسها ذكرى النصائح التى وجهتها إليها أمها منذ زمن طويل ، والتى كانت تستمع إليها بغير قبول أو إيمان . كانت أمها تقول : « إن چون رجل طيب ، ولكنه ككل إنسان له عيوبه وأخطاؤه ،

وعليك أن تدركى هذه الأخطاء ، وسيسهل عليك أن تحتمليها ، إذا تذكرت عيوبك وأخطاءك . إنه حازم الرأى ، ولكنه ينقلب عنيداً إذا عارضته وأنت ثائرة ، فعليك أن تأخذيه باللين والعطف والحنان . إنه متزمت فى الحق ، وهى صفة جميلة وإن كنت لا ترضين بها ، وسوف يوليك الثقة التى تستحقينها ، إذا لم تخدعيه بالقول أو بالنظر . هذا إلى أن طبعه لا يشبه طبعنا ، فنحن نثور فى لحظة ، ونهدأ سريعاً ؛ أما هو فلا يغضب إلا نادراً ، وعندئذ يكون من الصعب أن يهدأ . احذرى هذا الغضب ، واجتهدى ألا تثيريه عليك ، فعماد السعادة والوئام ، احترامك له ، واحتفاظك بكرامته ، كونى رقيبة على نفسك ، وإذا أخطأتما فابدئى بالاعتذار ، واحذرى الغمزات الصغيرة ، والكلمات الطائشة ، فإنها تفتح الطريق للحزن والأسى .

مرت هذه النصائح بذاكرة ميج وهى تجلس إلى النافذة ساعة الغروب وكان ما حدث اليوم ، أول خلاف بينهما ، فشعرت وهى تستعيد تفاصيل الخلاف ، أنها أسرفت فى كلماتها الطائشة ، وغضبت فى رعونة الأطفال ، ولان قلبها على چون لمجرد التفكير فى مقابلتها الجافة له ، عند عودته إلى البيت ، فتطلعت إليه والدموع تملأ عينيها ، ولكنه كان مستغرقاً فى قراءة الجريدة ، فلم يرها . ووضعت ميج ما فى يدها جانباً ، ووقفت تفكر فى البدء بالاعتذار ، وهمست تقول :

— سأكون البادئة . . . سامحنى .

وبدا كأنه لم يسمعها ، فتقدمت إليه بخطوات بطيئة ، حتى وقفت بجانبه ، ولكنه لم يتحرك ، ولم يلتفت نحوها . ومضت دقيقة أحست فيها أنها عاجزة عن تنفيذ عزمها ، ولكن الفكرة تجسمت فى ذهنها ، فقالت فى نفسها : « إنها البداية ، وعلىّ أن أقوم بواجبى كاملاً ، حتى لا أجد ما ألوم عليه نفسى فيما بعد :

ولم تلبث أن انحنت على زوجها ، وطبعت على جبينه قبلة ، وكانت القبلة أبلغ اعتذار ، فأخذها چون بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه فى حنان ، وقال لها :

ــ لقد أسأت إليك بسخريتى من الچيلى ، فاصفحى عنى يا عزيزتى وأعدك بأن لا أفعل ذلك مرة أخرى .

ولكنه فعل ذلك مراراً ، كما سخرت ميج بنفسها من الچيلى ، وكان كلاهما يقول : « إن تلك الچيلى التى استعصى صنعها ، كانت أجمل ما فى حياتهما ، فقد أمدتهما بذخيرة لا تفنى من الهناء الزوجى والهدوء العائلى .

وقد وجهت ميج بعد ذلك دعوة خاصة إلى مستر سكوت ، وأعدت له مأدبة فاخرة بهيجة ، وكانت طول الوقت فى منتهى المرح ، واجتهدت أن تمضى الوليمة على أحسن ما يكون ، مما حمل مستر سكوت على تهنئة چون بحظه السعيد ، وعند ماعاد إلى بيته ، ظل طول الطريق يهز رأسه ندماً على متاعب العزوبة ووحدتها .

وجاء الخريف بتجارب جديدة للزوجين الصغيرين ، فقد جددت

سالى موقات عهود صداقتها القديمة ، فكانت تأتى إلى البيت الصغير ، فتقضى فيه بعض الوقت تثرثر مع ميج ،وكانت أحياناً تدعو عزيزتها ميج لقضاء يوم فى بيتها الكبير . وكانت ميج ترحب بذلك هرباً من الوحدة والسأم ، لأن أخواتها كن دائماً مشغولات بأعمالهن ، وچون لا يعود قبل المساء ، ولم تكن هناك من تسلية لها ، سوى القراءة أو التطريز أو الحديث ، فسرى عنها إقبال سالى على صداقتها من جديد . وكانت ميج تنظر إلى تحف سالى الجميلة وتعجب بها ، وتشتهى أن يكون لها مثلها ، وتندب حظها الذى حرمها من الترف . وكانت سالى ترى ذلك ، فتهديها بعض الأشياء الجميلة ، ولكن ميج كانت ترفض الهدايا ، لعلمها بأن چون لا يرضى عن ذلك ، ولكن طيشها دفعها ذات يوم إلى إتيان أسوأ ما يكرهه زوجها .

كانت ميج تحب أن يشعرها زوجها بثقته الكاملة ، لا فى عواطفه فقط ، بل فى شئونه المالية أيضاً ، لأن بعض الرجال يقدرون المال أكثر من العاطفة . وكان لها ما أرادت ، فأطلعها چون على دخيلة أمره ، وكاشفها بالمكان الذى يحفظ فيه نقوده ، وترك لها الحرية فى أن تأخذ منها ما تشاء ، ولم يطلب فى مقابل ذلك إلا أن تقيد نفقاتها ، وتدفع المطلوبات آخر كل شهر ، وتتذكر دائماً أنها زوجة رجل فقير . ومنذ بدأت حياتهما الزوجية ، أحسنت ميج التصرف ، كانت تحرص على المال ، وتدقق فى إنفاقه ، وتقيد نفقاتها فى دفتر صغير ، وتطلع زوجها عليه دون خوف ...

إلى أن حل الخريف ، وتسلل ثعبان الإغراء إلى حياة ميج وأغراها كما أغرى كثيرات من بنات حواء الصغيرات ، ولكنه لم يغرها بالتفاحة المحرمة ، بل أغراها بالثياب .

لم يكن يرضى ميج أن تكون موضع الإشفاق والرثاء لفقرها ، وكانت تخجل من أن تعترف بحقيقة حالها ، وتطلب العزاء عن هذا الحرمان بشراء بعض الأشياء الجميلة بين حين وآخر ، حتى تثبت لسالى أنها غير مضطرة إلى الاقتصاد والتقتير على نفسها . وكانت فى كل مرة تشعر بالندم بعد شراء هذه الأشياء ، على الرغم من أنها لم تكن تدفع فيها إلا قليلا ، ولكن التوافه بدأت تكثر دون أن تشعر ، ولم تعد ميج فى زيارتها للحوانيت متفرجة فقط ، بل مشترية أيضاً .

وتكلف شراء هذه التوافه أكثر مما تتصور ، وحين جلست آخر الشهر تجمع حساباتها ، أفزعها مجموع ما أنفقته فيما لا يجدى ولا يفيد . وكان جون فى ذلك الشهر مشغولا بعمله ، فترك لها مهمة دفع المطلوبات ، وفى الشهر التالى كان متغيباً عن البيت ، أما فى الشهر الثالث فقام بتسوية حسابات الشهور الثلاثة ، وياله من وقت عصيب ، لن تنساه ميج طول العمر ! !

كانت قبل نهاية الشهر بأيام قلائل ، قد أساءت التصرف فى نقود زوجها ، وظل ضميرها يرزح تحت وطأة ما حدث ، وكان ذلك يوم خرجت مع سالى فى شراء بعض الأقمشة الحريرية ، وتاقت نفس ميج

إلى شراء قطعة من الحرير الخفيف ، مما يلبس فى الحفلات ، إذ كان ثوبها الأسود عادياً لا يستوقف النظر . وكانت العمة مارش قد اعتادت فى عيد رأس السنة ، أن تنفح كلا من الأخوات خمسة وعشرين دولاراً ، وكان موعد تلك المنحة يأتى فى الشهر التالى ، وكان ثمن قطعة الحرير الأرجوانية التى أعجبتها خمسين دولارا ، فأغرتها نفسها أن تدفع الثمن كله من نقود زوجها ، على أن ترد إليه النصف ، عندما تعطيها عمتها هدية رأس السنة . وكان چون يؤكد لها دائماً أن ماله هو مالها ، فجعلت تسأل نفسها إذا كان من حقها أن تنفق على رفاهيتها خمسة وعشرين دولاراً من صميم ميزانية الأسرة . وظل السؤال يحيرها ، ويقف بينها وبين قطعة الحرير ولكن سالى ألحت عليها بأن تشترى ما تتوق إليه ، وعرضت أن تقرضها الثمن ، وراحت تغريها بكل ما تملك من دوافع طيبة ، حتى استسلمت للإغراء . وفى ساعة منحوسة أمسك البائع بقطعة الحرير وقال :

— إنها فرصة ثمينة ولا شك !

قالت ميج ، وقد انهارت مقاومتها :

— سأشتريها .

وقصّ لها البائع القدر المطلوب ، ودفعت الثمن ، فابتهجت سالى وضحكت ، كأن ما حدث لا يعنى شيئاً ، ولكن ميج خرجت من الحانوت ، وفى نفسها شعور بأنها سرقت شيئاً ، وأن البوليس فى أعقابها ! !

وحين وصلت إلى البيت ، حاولت أن تخفف من وطأة ندمها ،

فنشرت قطعة الحرير أمامها ، وراحت تمتع النظر بجمالها ، ولكنها بدت أقل جمالا مما كانت عليه فى الحانوت . وانتابها شعور بأن لا حق لها فيها ، وخيل إليها أن ثمنها الفاحش مختوم على كل خيط من خيوطها ، فطوت قطعة الحرير ، وأزاحتها جانباً ، ولكن ذكراها ظلت تطاردها بإلحاح ، مثل روح شريرة لا تعرف كيف تتخلص منها .

وحين عاد چون إلى البيت فى تلك الليلة ، وأمسك بالدفتر يراجع حسابات الشهور الثلاثة الماضية ، غاص قلب ميج ، وانتابها الخوف من زوجها لأول مرة . وبدت عيناه العسليتان العطوفتان كأنما غشتهما القسوة ، ومع أنه كان مرحاً مبتهجاً أكثر من المعتاد ، فقد خيل إليها أنه كشف أمرها ، ولكنه يحاول أن يخفى عنها علمه بخطئها .

ودفع چون المطلوبات ، ثم أعاد الدفتر إلى موضعه ، وأثنى عليها ، وبدأ يراجع حساب النقود الموجودة بالصندوق ، الذى كانا يسميانه « البنك » ، ولكن ميج كانت تعلم أن البنك خاو على عروشه ، فاستوقفته فى عصبية وقالت :

— إنك لم تراجع حتى الآن دفتر مصروفاتى الخاصة .

ولم يكن چون يطلب منها أن يرى هذا الدفتر ، ولكنها كانت تصر دائماً على إطلاعه عليه ، وكانت تجد لذة ومتعة فيما يبدو عليه من عجب ودهشة ، حين يقرأ أسماء بعض الأشياء التى تشتريها المرأة . وكانت تبتهج حين تطلب منه أن يحدس معانى بعض الأسماء المدونة فى الدفتر ، فيندهش

عندما يعرف أن القلنسوة تتكون من ثلاث وردات وقطعة مخمل وشريطين ، وكلها تتكلف خمسة أو ستة دولارات . أما فى هذه الليلة فقد نظر إلى دفترها كأنه يريد أن يسلى نفسه بما فيه من أرقام وأسماء ، وأن يتظاهر كعادته بالارتياع من إسرافها ، وإن كان فى الحقيقة معجباً بحرصها . وأخرجت دفترها الصغير فى بطء ملحوظ ، ثم وضعته أمامه ، ووقفت خلف كرسيه تتشاغل بتدليك جبهته المتعبة .

قالت والرعب يتجلى فى نبراتها :

— يخجلنى أن ترى دفترى هذه المرة يا چون ، فقد أسرفت أخيراً إلى حد السفه ، وزرت الحوانيت مرارا ، وكان لابد لى أن أشترى بعض الأشياء التى نصحتنى بها سالى . وقد اشتريتها بالفعل ، وسأسدد جزءاً من ثمنها حين تأتينى النقود من عمتى ، ولكنى أعترف بأنى ندمت بعد شرائها ، وخفت أن تتهمنى بسوء التصرف .

وضحك چون وضمها إلى صدره ، وهو يقول بمرح :

— لا تحاولى الاختفاء وراء المقعد ، فلن أضربك لأنك اشتريت زوجاً من الأحذية ، فأنا معجب بقدميك ، ولا يسوؤنى أن تدفعى ثمانية دولارات أو تسعة ، فى شراء حذاء جديد .

وكان شراء الأحذية نزوة من نزواتها الأخيرة ، وكان ثمن زوج منها أول ما وقعت عليه أنظار چون فى الدفتر . قالت ميج لنفسها وهى ترتعد «ترى ماذا يقول حين يصل إلى الدورات الخمسين الملعونة؟ إنها أسوأ من

الحذاء كثيراً ، وقد ضاعت فى شراء ثوب لا احتياج إليه . » واستبد بها اليأس ، وضاق صدرها بالانتظار ، وتمنت أن تنتهى المسألة بأى صورة كانت .

سألها چون بهدوء :

ــ ما مجموع نفقاتك هذا الشهر ؟

ووقع سؤاله من نفسها موقعاً غريبا ، إذ لم يكن من عادته أن يسألها بهذه اللهجة ، ولكنها أدركت أنه يريد منها صراحتها المعهودة . وقلبت ميج الصفحة ، ورأسها يدور ، وأشارت إلى الرقم المدون بأسفلها ، وكان مبلغاً كبيرا ، غير الخمسين دولارا ، التى زادت الطين بلة . ومرت لحظة فى صمت رهيب ، ثم تكلم چون ببطء ، فشعرت أنه يبذل جهداً كبيراً فى السيطرة على أعصابه . قال :

ــ حسناً ، إن خمسين دولاراً ليست ثمناً غالياً لثوب حريرى ، ولكنه سيتكلف نفقات أخرى فى حياكته وتزيينه .

وتنهدت ميج فى تخاذل حين تمثلت التكاليف التى يجب أن تضاف إلى الحساب . فقالت :

ــ إن الثوب لم يصنع بعد .

قال چون بجفاء :

ــ إن خمساً وعشرين ياردة من الحرير تكفى ثوباً لامرأة صغيرة الجسم ولست أشك فى أن زوجتى ستبدو فيه رائعة الجمال كمسز موڤات .

قالت :

— أعرف أنك غاضب علىّ ، ولكننى لم أقصد تبذيرا ، ولم أكن أدرك أن الأشياء الصغيرة تكلف كثيرا . لقد غلبنى الإغراء حين رأيت سالى تشترى ما تريد ، وتظهر شفقتها علىّ لأنى لا أفعل مثلها . لقد حاولت أن أكون قانعة ، وبذلت فى سبيل ذلك جهداً كبيرا ، ولكن الأمر فاض بى ، وضاق صدرى بحياة الفقر .

ونطقت بكلماتها الأخيرة بصوت خفيض جداً ، ظنت معه أن چون لم يسمعها ، ولكنه سمعها ، وتألم لها ، فقد حرم نفسه من ملذات الحياة إكراماً لها . وندمت على قولها أشد الندم ، وتمنت لو قطع لسانها قبل أن تنطق بها ، فقد ألقى چون بالدفتر غاضبا ، وهب مذعورا ، وقال فى صوت يرتجف بالانفعال :

— هذا ما كنت أخشاه ، وأنا أبذل كل جهدى من أجلك يا ميج .

ولو أنه عنفها ، أو هزها غاضبا ، ما انخلع قلبها ، كما انخلع لوقع كلماته الموجعة الهادئة ، فهرعت نحوه ، وضمته إلى صدرها ، وهى تبكى ندماً وتقول :

— چون ، عزيزى ، أنت كريم معى دائماً ، جاد فى توفير أسباب سعادتى ، فثق أننى لم أقصد ما قلت . لقد أفلتت منى هذه الكلمات القاسية الكاذبة دون وعى ، ولست أدرى كيف طاوعنى لسانى عليها ! آه ، كيف قلتها ! !

وسامحها چون العطوف ، بما تعهده فيه من كرم عظيم ، ولم يوجه إليها كلمة لوم أو تعنيف ، ولكنها أدركت أنها ارتكبت خطأ كبيرا ، وقالت شيئاً لا يمكن أن ينسى بسهولة .

لقد أقسمت ميج أمام الله أن تحبه على الخير والشر ، وها هى ذى توجعه بفقره ولومه عليه ، بعد أن أنفقت ماله كله بطيش ورعونة . إنها أتت أمراً إدّا ، ولم يكن يؤلمها من ذلك سوى أن چون مضى فى حياته هادئاً كأن لم يحدث شىء ، ولكنه أصبح يعكف على البقاء فى المدينة إلى ساعة متأخرة من الليل ، فلا يعود إلا وهى تغط فى نومها . ومضى أسبوع وميج فى ألم بالغ ، وتضاعفت أحزانها حين رجع چون عن شراء المعطف الجديد الذى يحتاج إليه ، ولما سألته لماذا لا يشتريه ، أجاب ببساطة :

— ليس لدى ثمنه يا عزيزتى .

ولم تقل ميج شيئاً ، ولكن حين خرج إلى البهو بعد دقائق ، وجدها تدفن رأسها فى معطفه القديم ، وهى تبكى وتنشج فى حزن ما بعده حزن .

وتحدثا طويلا فى تلك الليلة ، وتعلمت ميج أن تحب زوجها من أجل فقره ، لأن الفقر يجعله رجلا ، ويمنحه القوة والشجاعة ، ليشق طريقه فى الحياة . هذا إلى ما يتحلى به چون من صبر جميل ، يواجه به أخطاء أحبابه ، ويساعدهم على النهوض من عثراتهم .

وفى اليوم التالى نزلت ميج عن كبريائها ، وذهبت إلى سالى تقص عليها ما حدث ، وطلبت إليها أن تليها معروفاً بشراء قطعة الحرير . وقبلت

مسز موفات الطيبة رجاء ميج ، وكانت من الكياسة بحيث لم تقدمه لها هدية لفورها . وعادت ميج إلى البيت ، بعد أن اشترت المعطف الذى كان چون يحتاج إليه ، وحين وصل زوجها إلى البيت ، ارتدت معطفه الجديد ، ووقفت تسأله عن رأيه فى ثوبها الحريرى الجديد !

ونترك للخيال أن يرسم صورة ما جرى بينهما من حوادث وأحاديث ، ويصف كيف تقبل چون الهدية ، وبماذا جرت الأمور بين الزوجين السعيدين بعد هذا الحادث .

وكف چون عن التأخر فى المدينة ، وصار يعود مبكراً كعادته ، ولم تعد ميج إلى جولاتها الأولى فى الأسواق ، وجعل الزوج السعيد يرتدى معطفه الجديد كل صباح ، فإذا رجع إلى البيت فى المساء ساعدته زوجته الصغيرة على خلعه . وفى منتصف الصيف مرت بميج تجربة جديدة ، أعمق التجارب أثراً فى حياة المرأة .

* * *

دخل لورى إلى المطبخ فى « عش الحمائم » ذات يوم ، بوجه عامر بالانفعال ، فاستقبلته حنا بدقات كدقات الصنوج ، إذ كانت تحمل فى إحدى يديها مصفاة ، وفى اليد الأخرى غطاء حلة . همس لورى فى أذنها يسألها :

ـ كيف حال ماما الصغيرة ؟ وأين الباقون ؟ ولماذا لم تخبرونى قبل أن أحضر ؟

قالت حنا :

ـ إن الأم السعيدة فى أحسن حال ، وجميعهم فى الطابق العلوى يصلون شكراً لله ، ولا نريد جلبة هنا ، فاذهب إلى غرفة الاستقبال ، وسأخبرهم بحضورك .

وما إن انتهت من حديثها ، حتى اختفت فى البيت وهى تزمجر .

وأقبلت چو بعد لحظة ، وهى تحمل فى فخار حزمة من صوف الفانلا ، وكانت تضعها على وسادة كبيرة . وعلى الرغم مما كان يبدو على وجهها من رزانة وهدوء ، فقد كانت عيناها تلمعان سروراً وغبطة . قالت فى صوت ينم عن انفعال مكبوت :

ـ اغمض عينيك ومد ذراعيك .

ولكن لورى تراجع إلى ركن الغرفة ، وأخفى يديه وراء ظهره وقال ضارعاً :

ـ لا ، أشكرك . أفضل ألا أحمله : أنا واثق بأنه سيقع منى !

قالت چو ، وهى تدير له ظهرها ، كأنها تهم بالخروج :

ـ إذاً لن ترى ابن أختك !

قال :

ـ بل أريد أن أراه ، ولكن عليك تقع مسئولية ما يحدث .

وأغمض عينيه فى بطولة ، ومد ذراعيه مستسلما ، وأحس بشىء يدس فيهما . وضحكت چو ضحكة عالية ، وطلب منه أفراد الأسرة جميعاً أن يفتح عينيه بعد لحظة . ولما فتحهما رأى أنه يحمل طفلين صغيرين ، لا طفلاً واحدا . ووقف حائراً مبهوتا ، ينقل بصره بين المخلوقين الصغيرين البريئين ، وقد ارتسم على وجهه تعبير مضحك للغاية ، فانفجروا جميعاً ضاحكين ، واشتد الضحك بچو حتى لم تعد تقوى على الوقوف ، فجلست على الأرض متقطعة الأنفاس .

صاح لورى فجأة :

— توأمان ! يا إله العرش العظيم !

وسكت لحظة ، ثم ألقى على السيدات نظرة كلها توسل واستعطاف ، وقال :

— خذوهما بسرعة ، فلتسرع إحداكن بحملهما ، إن الضحك يخنقنى وأخشى أن يسقطا منى ! !

وأسرع چون يأخذ طفليه ، ثم حمل كل واحد على ساعد من ساعديه ، ومضى يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة ، كأنه يمرن نفسه على رعاية الأطفال . أما لورى فقد استسلم للضحك ، حتى سالت الدموع من عينيه .

قالت چو بعد أن استرددت أنفاسها :

— أليست هذه أروع نكتة فى الموسم ؟ لقد حرصت على كتمان الأمر عنك ، لأفاجئك به ، وأمتع النفس بأثر المفاجأة فى وجهك .

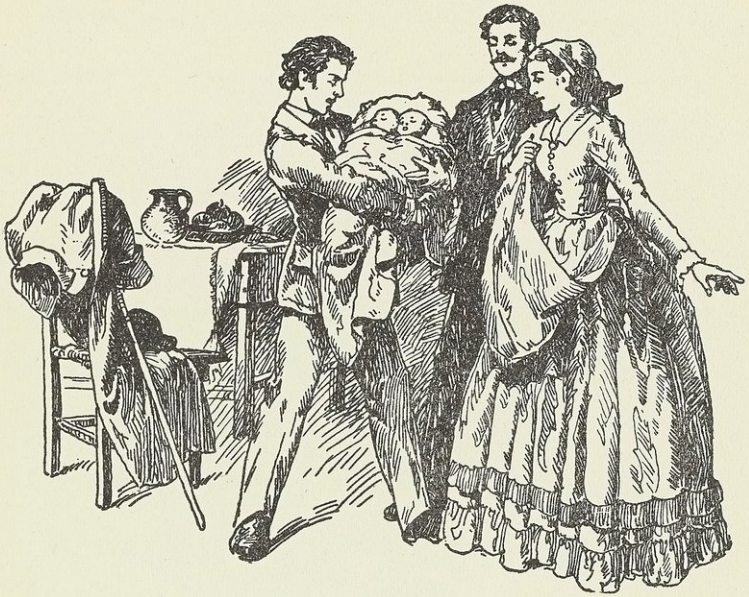

وأظن أنى وفقت .

قال وهو يحملق بعينين ملؤهما الدهشة والغبطة والحنان :

ــ هذه أعظم مفاجأة فى حياتى ، والدهشة تعقد لسانى ، فيالها من فكاهة بديعة ! أهما ولدان ؟ وهل اخترتما اسميهما ؟ دعونى أنظر إليهما مرة أخرى ، ساعدينى يا چو ، فإن الدهشة تربكنى .

قال مستر مارش ، وهو يبتسم فى وجه حفيديه ، ويرنو إليهما بحنان بالغ :

ــ إنهما ولد وبنت ، أليسا غاية فى الجمال ؟

قال لورى ، وهو ينظر إلى الطفلين ويحاول التمييز بينهما :

ــ لم أر أجمل منهما ، ولكن أيهما البنت وأيهما الولد ؟

قالت چو بخبث :

ــ لقد ربطت آمى شريطاً أزرق للصبى ، وآخر أحمر للبنت كعادة الفرنسيين . هكذا نستطيع أن نميز بينهما دائماً ، وفضلا عن ذلك فإن لأحدهما عينين زرقاوين وللآخر عينين عسليتين . هيا قبلهما أيها العم تيدى !

قال لورى بتردد :

ــ أخشى ألا يرحبا بقبلاتى .

قالت چو بلهجة الأمر ، وقد خشيت أن ينيب عنه أحداً فى أداء المهمة الجليلة :

ــ بل قبلهما الآن ، فهما يحبان القبلات ، وقد تعوداها قبل أن تحضر .

وأطاع لورى أمر چو ، فزم شفتيه ، وطبع على كل خد قبلة ، بوجه يرتسم عليه الخوف ، مما أثار ضحك الحاضرين ، وجعل الطفلين يبكيان .

قال لورى ، وقد فاض قلبه سرورا باللكمة اللطيفة التى أصابت وجهه من يد الصغير :

ــ ألم أقل لكم أنهما لا يرحبان بالقبلات ؟ انظروا كيف يلكم الصبى بيديه ، ويضرب برجليه .

ثم انثنى إلى الطفل وقال يحدثه :

— اسمع يا مستر بروك الصغير ، أرجوك أن تكبر بسرعة ، لتصبح رجلا ، وتؤدى واجبك كما ينبغى .

وقالت آمى بلهجة الخالة التى يهمها الأمر :

— سنسمى البنت مارجريت كأمها وجدتها ، وندللها باسم « ديزى » حتى لا تكون هناك ميج أخرى فى الأسرة . وسنسمى الصبى چون لورنس ، وأقترح أن نناديه « چاك » ، ما لم نجد تدليلا أفضل .

قال لورى :

— بل سمّوه « ديمى چون » واختصروه إلى « ديمى » فقط .

صاحت چو ، وهى تصفق استحسانا :

— ديزى وديمى ! يا لهما من اسمين جميلين ! ألم أقل لكم إن تيدى قدير على اختراع الأسماء ؟

وقد وفق تيدى فى الاختيار هذه المرة ، وعرف الطفلان باسمى ديزى وديمى إلى النهاية .

الفصل التاسع والعشرون

زيارات

كانت چو بالإضافة إلى ميزاتها الكثيرة، تعتبر مرجع الأسرة فى شئون التفصيـــل والحياكة ، إذ كانت تحسن استخدام الإبرة ، كما تحسن استخدام القلم سواء بسواء .

قالت لها آمى ، وهى منهمكة فى تفصيل بعض الثياب :

ـ هيا بنا يا چو ، فقد حان الوقت :

قالت تسألها :

ـ إلى أين ؟

أجابت آمى :

ــ أنسيت أنك وعدتنى اليوم بنصف دستة من الزيارات ، نؤديها معا ؟

قالت چو :

ــ أعترف بأنى أتيت حماقات عدة فى حياتى ، وقلت أشياء كثيرة بلاروية ، ولكن لا أظن أنى وصلت من الجنون إلى ذلك الحد الذى يجعلنى أعدك بست زيارات فى يوم واحد ، وأنا التى تصدعنى زيارة واحدة فى الأسبوع .

قالت :

ــ بل وعدت ، وكان شرطاً بيننا أن أنهى لك صورة بث ، مقابل أن تخرجى معى لنرد زيارات جيراننا .

قالت چو :

ــ بل اشترطت أن يكون الجو صحوا ، وكان اتفاقنا على هذا ، وأنا مستعدة لتنفيذ الاتفاق كاملا ، يا تلميذة شيلوك المرابى ، ولكنى أرى السحب تتجمع فى الشرق ، والجو ليس صحوا ، وعلى ذلك يكون أساس الاتفاق غير قائم .

وغاظ چو أن تأخذها آمى عند كلمتها ، وتتشبث بوعد قطعته على نفسها فى ظروف خاصة ، فتطالبها بمرافقتها فى زيارات رسمية ، فى يوم حار من شهر يولية . إنها تمقت هذا النوع من الزيارات ، ولم يسبق لها أن قامت به ، فلماذا تضطرها آمى إلى ذلك الآن ؟

ولكنها لم تجد مفرًّا من الخضوع والاستسلام ، فألقت بالمقص مكرهة ،

وقامت إلى المهمة البغيضة ، وهى تنذر بما فى الجو من مطر ورعد وصواعق. ولما لم يجدها التعلل فتيلا ، تركت عملها جانبا ، ثم وضعت قبعتها على رأسها ، وقفازها فى يديها ، وقالت لأختها آمى بلهجة الضحية المستسلمة لمصيرها :

— إنى على استعداد .

صاحت بها آمى فى دهشة :

— أنت مشاكسة يا چو إلى حد يستثير الملائكة ، أتنوين حقًّا أن تزورى الناس بهذا المنظر ؟

قالت چو :

— إنى أرتاح إلى الملابس الخفيفة ، وأراها تناسب هذا الجو الحار .

وإذا كان الناس يهتمون بثيابى أكثر من شخصى ، فلا أرانى الله وجوههم . إذا لم يكن حالى يعجبك ، فتأنقى بما يكفينا نحن الاثنتين ، وكونى رشيقة كما تحبين ، أما أنا فلا تهمنى المظاهر الفارغة ، التأنق والتزين يخمدان أنفاسى .

تنهدت آمى ، وقالت :

— يا إلهى ! إنها فى إحدى نوبات المشاكسة ، وسوف أجن قبل أن أقنعها بأن ترتدى الثياب اللائقة ، أؤكد لك يا چو أنى لا أسر كثيراً لهذه الزيارات ، ولكنه دين علينا للمجتمع ، ولا يمكن لأحد غيرنا أن يوفيه . سأفعل كل ما تطلبين منى إذا قبلت أن تعنى بملابسك فى هذه

الزيارات ، وليس الأمر عسيراً عليك ، فنى مقدورك عندما تريدين ، أن تتحدثى بلباقة ، وتلبسى فى أناقة ، وتحسنى معاملة الناس . إنى فخورة بك يا چو ، فخذى بنصيحتى ، وتعالى معى ، لأنى أخشى الذهاب وحدى . هيا ساعدينى على ارتداء ثيابى .

قالت چو ، وقد استبدلت مشاكستها بوادعة الحمل :

ــ أنت ماكرة واسعة الحيلة ، تمتدحين أختك لتهزميها بهذه الوسيلة الماهرة ، أنا لا أقر ولا أعقل فكرة الزينة والأناقة ، ولا أصدق أنك تخافين الذهاب وحدك ، ولكنى سأرافقك إذا لم يكن لى مفر من ذلك ، وسأبذل جهدى فى إرضائك ، فكونى قائدتى فى هذه الرحلة ، وأعدك بالطاعة العمياء . أيرضيك هذا ؟

قالت آمى :

ــ أنت ملك طاهر ، والآن ارتدى أحسن ملابسك ، وسأعلمك كيف تتصرفين فى كل مكان نذهب إليه ، حتى تتركى أثراً طيباً فى نفوس الناس ، فإنى أريد أن يعجبوا بك ، ولا بد أن يفعلوا ذلك ، إذا حاولت مجاراتى ، وتلطفت معهم . صففى شعرك بطريقة جذابة ، وضعى الوردة الحمراء فى قبعتك ، لتضفى رونقاً على ثوبك . البسى قفازك الفاتح ، وخذى منديلك المطرز ، وسوف نمر بميج ، فأقترض مظلتها البيضاء ، وأعطيك مظلتى الملونة .

وراحت آمى تصدر الأوامر ، وهى ترتدى ملابسها ، فتطيعها چو

وتعمل بأمرها ، ولكن هذه الطاعة لم تكن تخلو من الامتعاض حينا ، ومن المعارضة أحيانا . وتنهدت چو يأسا ، وهى تحشر جسمها فى ثوبها الأورجاندى الجديد ، وقطبت جبينها غيظاً وهى تربط الأشرطة فى قبعتها ، وشدت بنيقتها بعنف ، كأنما تتشاجر معها . وبدا عليها العبوس وهى تخرج المنديل المطرز ، الذى كان تطريزه يخدش أنفها ، ويزيدها ضيقاً بالرحلة التى تقوم بها مكرهة . وبعد أن حشرت يديها فى قفازها الضيق ، كانت مهمة التزين والتأنق قد انتهت ، فاتجهت إلى آمى ، وعلى وجهها تعبير من البلاهة ، وقالت فى وداعة وتواضع :

— إنى أشعر بتعاسة بالغة ، وأخشى أن أموت سعيدة إذا قلت إن منظرى وجيه .

قالت آمى :

— إن مظهرك يبعث على الرضا الكامل ، فدورى أمامى ببطء ، ودعينى ألقى عليك نظرة دقيقة .

ودارت چو ، وراحت آمى تنسق لها هندامها ، بلمسة هنا ولمسة هناك ، ثم تراجعت إلى الوراء قليلا ، ونظرت إليها من بعد ، وقالت برفق :

— هذا جميل ، ولم تبق إلا زينة الرأس ، فهذه القبعة غاية فى الفتنة . ارفعى هامتك ، وأبرزى جمال قبعتك ، وحركى يديك بخفة ورشاقة ، ولا تبالى بضيق القفاز . والآن أكملى الزينة بوضع الملفحة حول كتفيك ، ولا تهربى من ذلك ، فإنها تزيدك جمالا . كانت فكرة طيبة أن أهدتك

العمة مارش ملفحة جميلة رغم بساطتها ، فإن طياتها التى تغطى الكتفين آية من آيات الفن : انظرى إلىّ وقولى هل وشاحى منسجم ؟ وهل ثوبى مرتب ، وأزراره منسقة ؟ أحب أن أكشف عن حذائى ، لأن قدمىّ جميلتان ، أما أنفى فقبيح مع الأسف .

قالت چو ، وهى تحدق فيها بعين الناقد الخبير ، وتتأمل بإعجاب الريشة الزرقاء التى تزين شعر أختها الذهبى :

ــ إنك آية فنية ، دائماً جميلة ودائماً بهيجة .

ثم سألتها :

ــ هل أترك ذيل ثوبى يجر فى الطريق ، أم أجمعه فى يدى يا سيدتى؟

أجابت آمى :

ــ أمسكيه بيديك حين تمشين فى الطريق ، وأطلقيه حين ندخل البيوت . فالذيل الطويل خير ما يناسب قوامك ، ويجب أن تتعلمى كيف تسحبين أطرافه برشاقة . ولقد فاتتك بعض الأزرار ، فزريها الآن ، وهذا يدل على أنك لم تعنى بهندامك كما يجب ، وإلا ما فاتتك هذه الأمور الصغيرة ، مع أن الجمال لا يكتمل إلا بها.

وتنهدت چو فى ضيق ، وشرعت تزرر كمها ، وكادت تقطع أزرار قفازها وهى تفعل ذلك . وأخيراً تم استعداد الأختين ، وكملت أناقتهما وزينتهما ، فخرجتا من البيت مثل « صورتين » ، على حد تعبير حنا ، التى كانت تشيعهما مغتبطة من النافذة العليا .

ومرت الفتاتان بميج ، واستعارتا مظلتها البيضاء ، وبعد أن داعبتا التوأمين ، خرجتا إلى الطريق مرة أخرى ، لأداء أول زيارة . قالت آمى لأختها حين اقتربتا من بيت الزيارة :

— ليكن فى علمك يا عزيزتى ، أن سيدات أسرة شستر يعتقدن أنهن آية فى الأناقة ، ولذلك أرجو أن يكون مسلكك معهن ممتازا : لاتبدى ملاحظات مفاجأة ، ولا تتصرفى تصرفات شاذة ، وكل ما أطلبه منك ، أن تظلى هادئة رزينة ، فهذا أسلم طريق ، يتفق مع الأنوثة الحق . فى مقدورك أن تفعلى ذلك دون عناء ، فلن نقضى فى بيتهم أكثر من ربع ساعة .

قالت چو :

— تريدين منى أن أكون هادئة رزينة ؟ أهذا كل شىء ؟ نعم ، بوسعى أن أفعل ذلك ، فقد مثلت على المسرح دور السيدة الأنيقة ، وأستطيع أن أؤدى الدور مرة ثانية . إن مواهبى التمثيلية عظيمة ، وسترين من قدرتى عجبا ، فليهدأ بالك يا صغيرتى . ولا يقلقك أمرى..

وتنفست آمى الصعداء لهذا الوعد، ولكن چو المشاكسة نفذته حرفيا : ففى الزيارة الأولى جلست وكل عضو فيها ينطق بالرشاقة . كانت هادئة كمياه البحر فى الصيف ، جامدة كالثلج فى الشتاء ، صامتة كأبى الهول . وعبثاً حاولت مسز شستر أن تخرجها عن صمتها بامتداح قصتها الجديدة ، وعبثاً حاول بنات مسز شستر أن يثرن فضولها بالكلام عن الحفلات

والرحلات والأوبرات والمودات ، فقد لزمت چو الوقار ، واقتصرت فى ردودها على ابتسامة أو إيماءة ، أو كانت تجيب « بلا » أو « بنعم » فى خجل وحياء . وراحت آمى تومئ إليها عسى أن تستجيب لمحاولات مضيفاتها ، وحاولت دون جدوى أن تشركها فى الحديث ، ولجأت إلى لكزها بقدمها لتحركها ؛ ولكن چو ظلت صامتة جامدة ، كأنها لا تعى شيئاً مما يدور حولها .

وخرجت الأختان بعد انتهاء الزيارة ، وحين أغلق الباب وراءهما ، قالت إحدى السيدات بصوت وصل إلى مسامعهما :

ــ يا لمس مارش من مخلوقة متكبرة سمجة !

وضحكت چو بصوت خافت وهى تعبر البهو ، ولكن آمى امتعضت لفشل تعليماتها فى توجيه أختها ، فقالت تلومها :

ــ كيف أسأت فهم قصدى إلى هذا الحد ؟ ما أردت منك إلا الوقار والهدوء ، لا أن تتحولى إلى حجر أخرس أصم . جربى أن تكونى سيدة اجتماعية فى زيارتنا لآل لام ، ثرثرى كما تثرثر الفتيات ، وتحدثى باهتمام عن الأزياء والمغازلات ، إن آل لام على صلة بأرقى الأوساط ، ومن صالحنا أن ننال عطفهم ، بودى أن تتركى أثراً طيباً فى نفوسهم بأى ثمن .

قالت چو :

ــ سأكون غاية فى اللباقة والانسجام ، فأثرثر وأضحك وأعبث ،

وأشترك فى كل صغيرة وكبيرة ، فإنى أحب هذا الهذر ، ومن السهل أن أتقن دور الفتاة المرحة ، وسأتخذ من ماى شستر مثلا أحتذيه وأتفوق عليه ، وسأجعل آل لام يقولون : « يا لچو مارش من فتاة كلها لطف وحيوية ! »

وأقلق هذا القول آمى ، فهى تعرف چو حين تغلبها نزواتها ، فلاتقف فى تصرفاتها عند حد ، وبدا الحزن على وجه آمى حين شاهدت أختها تنساب إلى حجرة الاستقبال فى البيت التالى ضاحكة ، وتقبل على الفتيات جميعهن ، وهى تسرف فى قبلاتها لهن ، ثم تنثنى إلى الشبان فتبتسم لهم برشاقة ، وتشاركهم فى الحديث فى حيوية مدهشة . وكانت مسز لام تعجب بآمى ، وتؤثرها على أخواتها ، فراحت تختصها بالحديث ، وتقص عليها قصة طويلة ، فى حين وقف ثلاثة من الشبان يحومون حول الفتاة ، منتظرين أن تنتهى القصة ، ليتقدموا لإنقاذها . وكانت آمى بهذا الوضع ، لا تستطيع مراقبة چو ، التى بدا أن روح الشر قد تملكتها ، فأخذت تتكلم بسرعة شديدة كمسز لام العجوز تماما . ولكن الفضول استبد بآمى حين رأت الرءوس تتجمع حول أختها ، والعيون تستدير دهشة ، والأيدى تلوح عجبا ، كما أثارت فيها ضحكات الشبان رغبة فى الاستمتاع بنصيبها من المرح ، الذى ينغمسون فيه . وبذلت آمى جهداً لتسمع بعض ما تقوله چو ، ثم فاض بها الألم ، حين وصلت إلى أذنيها نتف من حديث أختها ، وسمعتها تقول : « إنها تحسن ركوب الخيل بمهارة » ، وسألها أحدهم :

« ومن علمها ؟ » ، قالت چو : « لا أحد ، كان لديها سرج قديم ، فكانت تمتطيه ، لتتمرن على أصول الركوب ، وقواعد إمساك الأعنة ، وهى الآن تركب كل شىء ، لأنها لا تعرف الخوف . وصاحب الحظيرة يسمح لها باستئجار خيوله بأجر زهيد ، لأنها تدربها أحسن تدريب . ثم إن لها ميلا للفروسية ، وأنا أقول لها دائماً ، صنعة فى اليد أمان من الفقر ، وسيكون فى وسعك أن تكسبى عيشك عن هذا الطريق ، إذا فشلت فى وجوه الحياة الأخرى . »

وكظمت آمى غيظها مما سمعت ، إذ كان الحديث يعطى فكرة سيئة عنها ، ويظهرها بمظهر المتبذلة ، وهو أبغض شىء إلى نفسها . ولكن ما حيلتها والعجوز ما زالت فى منتصف قصتها ؟ وقبل أن تنتهى السيدة من حديثها بوقت طويل ، عادت چو إلى الحديث ، مغرقة فى خيالها الماجن ، ترتكب خطأ بعد خطأ . سمعتها آمى تقول للشبان :

ـ . . فى ذلك اليوم استبد اليأس بآمى ، إذ كانت الخيول الجيدة كلها فى الخارج ، ولم يبق فى الحظيرة إلا ثلاثة فى أسوأ حال : أحدها أعرج ، والثانى أعمى ، والثالث عاجز لا يستطيع الحركة إلا إذا حشوت فمه ترابا .

وسألها شاب من الحاضرين ، الذين كانوا مستغرقين فى الضحك :

ـ وأيهما اختارت ؟

قالت چو :

— لم تختر واحداً منها، ولكنها سمعت أن هناك حصاناً فتيًّا فى مزرعة وراء النهر، ولم تكن سيدة قد ركبته من قبل، ومع ذلك قررت آمى أن تجربه، لما اشتهر به من جمال وقوة. وكانت جهودها مثيرة حقًّا، إذ لم يكن فى المزرعة من يعد لها السرج، فحملت سرجاً ووضعته فى القارب، وراحت تضرب صفحة الماء بمجدافيها حتى وصلت إلى الشاطىء، وهناك حملت السرج فوق رأسها، وسارت به — تلك المخلوقة العزيزة — إلى أن وصلت إلى الجرن، فلما رآها صاحبه العجوز، كاد يغشى عليه لفرط الدهشة!

وسألها أحدهم:

— وهل استطاعت أن تركب الحصان؟

قالت:

— نعم ركبته، وتمتعت بوقت طيب، وكنت أظن أنها ستعود إلى البيت مهشمة الجسد، ولكنها استطاعت أن تروض الحصان فى مهارة، وأن تكون محور النشاط فى الجماعة كلها.

قال مستر لام الابن، وهو ينظر إلى آمى معجباً بمهارتها وتفوقها:

— إنها جسورة بلا شك.

ورأى حمرة الخجل تخضب وجه آمى، فارتد بصره عنها وهو يتساءل: ترى ماذا تقول أمه للفتاة، حتى يحمر وجهها بهذا الشكل، وتبدو قلقة غير مطمئنة؟

وازداد احمرار وجه آمى ، وتضاعف قلقها ، حين تحول حديث الجماعة إلى الأزياء ، وسمعت إحدى الفتيات تسأل چو عن الحانوت الذى اشترت منه قبعتها السمراء الجميلة ، وبدل أن تذكر چو اسم الحانوت الذى اشترتها منه منذ عامين ، قالت الغبية بصراحة لا داعى لها :

ــ لقد لونتها آمى بهذا اللون الذى لا يوجد له مثيل فى الحوانيت ، ونحن عادة نلون قبعاتنا بأى لون نريد ، ومن حسن الحظ أن يكون للمرء أخت فنانة مثل آمى .

صاحت مس لام ، وقد وجدت فى حديث چو متعة كبيرة :

ــ يا لها من فكرة مبتكرة !

قالت چو ، بلهجة تنم عن الزهو والاعتداد بمهارة أختها وأعمالها ، وكان زهواً واعتداداً ضاق لهما صدر آمى ، حتى تمنت لو كان فى مقدورها أن تقذف چو بحقيبة يدها ، لتنفث عن صدرها الغيظ المكبوت :

ــ هذا لا يعد شيئاً بالمقارنة إلى أعمالها الباهرة الأخرى ، فما من شىء يصعب عمله على هذه الصغيرة . لقد احتاجت يوماً إلى حذاء أزرق ، تلبسه فى حفل سالى ، فدهنت حذاءها الموحل بلون السماء الصافية ، فبدا كأنه مصنوع من الحرير .

قالت مس لام الكبرى تطرى مواهب چو الأدبية ، وقد اعترفت فى نفسها بأنها لم ترها فى مثل هذه الشخصية من قبل :

ــ لقد قرأنا إحدى قصصك أول أمس ، وكان سرورنا بها عظيما .

وكان ذكر مؤلفاتها يترك فى نفسها أثراً سيئاً ، فأحياناً تقف متصلبة كأنما أهينت ، وأحياناً أخرى تغير موضوع الحديث بكلمة عابرة : وهذا ما فعلته مع مس لام ، إذ قالت :

— يؤسفنى ألا تختارى لقراءتك ما هو أحسن من قصصى ، فأنا أكتب هذا الهراء لأنه يلقى رواجاً بين الأوساط العادية ، أذاهبة أنت إلى نيويورك هذا الشتاء ؟

وكانت مس لام قد أعجبت حقيقة بالقصة ، ولذلك رأت فى إجابة چو خشونة وقحة . وأدركت چو خطأها بعد فوات الأوان ، ولكنها خشيت أن تزيد الموقف سوءاً بكلام آخر ، وتذكرت فجأة أن الوقت قد حان للانصراف ، فقاطعت حديث الشبان الثلاثة قائلة :

— آمى ، يجب أن نذهب الآن : وداعاً يا عزيزتى ، أرجو أن تتفضلى بزيارتنا قريباً ، ويسرنا أن تفعلى ذلك ؛ أما أنت يا مستر لام فلا أستطيع أن أطالبك بزيارتنا ، ولكنا سنرحب بك إذا جئت .

وكانت تحاول بعباراتها هذه ، أن تقلد دلال مای شستر ، فجاء تقليداً مضحكا ، دفع آمى إلى الإسراع بالخروج من الغرفة ، وقد تملكتها رغبة قوية ، فى أن تضحك وتصرخ فى آن واحد .

وعندما خرجتا إلى الطريق ، سألت چو أختها بارتياح ملحوظ :

— ألم أحسن التصرف هذه المرة ؟

أجابت آمى باقتضاب :

ـ لم يكن فى الإمكان أسوأ مما كان ؛ ما الذى حملك على رواية هذه القصص السمجة عن السرج والقبعات والأحذية ؟

قالت :

ـ ولكنها كانت قصصاً مضحكة سُرّ لها الحاضرون واغتبطوا ؛ إنهم يعرفون فقرنا ، فلماذا نتظاهر بأننا نملك حظائر للخيول ، ونشترى ثلاث أو أربع قبعات فى الموسم ، ونستطيع أن نجاريهم فى شراء الأشياء الجميلة ؟

فقالت آمى يائسة من أصلاح أختها :

ـ لا أرى داعياً لأن نتحدث عن حياتنا ، ولا أجد لذة فى التشدق بفقرنا . أنت عديمة الكبرياء ، لا تميزين بين ما يقال وما لا يقال .

وخجلت چو ، وراحت تحك طرف أنفها بمنديلها الخشن ، كأنما تكفر بذلك عن سلوكها القبيح ، ثم سألت أختها ، وهما تقتربان من ثالث قصر فى برنامج الزيارات :

ـ وكيف تحبين أن يكون سلوكى هنا ؟

أجابت آمى فى اقتضاب :

ـ تصرفى كما تشائين ، فقد نفضت يدى منك ، ويئست من سلوكك .

فقالت چو بخشونة ، وقد ضاق صدرها بفشلها :

ـ إذاً سأمتع نفسى كما أريد ، فالأطفال فى البيت ، وسأقضى

معهم وقتاً طيباً ، إن الأناقة تضايقنى ، ويعلم الله أنى فى أشد الحاجة إلى بعض الترفيه .

ولكن سرعان ما خف شعورها بالضيق والقلق حين لقيها الأطفال الصغار ، والأولاد الثلاثة الكبار ، بمنتهى الحماسة والترحيب ، فانصرفت إليهم كلية ، وتركت لآمى تحية المضيفة ، وكذلك تحية مستر تيودور ، الذى تصادف وجوده للزيارة فى الوقت نفسه . وانتعشت چو ، وأقبلت على أبناء الأسرة تسمع حكاياتهم باهتمام ، وتداعب كلابهم الصغيرة بهدوء ، وتوافق من كل قلبها على ما يقولون . وحين طلب منها أحدهم أن تذهب معه إلى السلحفاة التى يربيها ، تبعته بخفة ونشاط ، وابتسمت صاحبة البيت حين رأت چو تسوى قبعتها ، التى شوشتها أحضان الأطفال ، من كانت تحبهم بإخلاص ، وتعتز صادقة بمحبتهم لها .

وانطلقت چو على سجيتها تستمتع بالزيارة كما يروق لها ، وتركت أختها تتصرف حسب الأصول التى توافقها . وكان عم مستر تيودور متزوجاً من إحدى شريفات الإنجليز ، وكانت زوجه هذه الابنة الثالثة للورد معروف ، فحبتها آمى بقسط مضاعف من الإجلال والاحترام ، متأثرة فى ذلك بوجاهة الألقاب ، على الرغم من نشأتها الأمريكية ، وتربيتها الديمقراطية . وكان الولاء القديم للنظام الملكى ، قد خرج بأهل أمريكا منذ سنوات لاستقبال إحدى الأميرات الإنجليزيات ، وظل هذا الولاء عاملا رئيسيًّا فى عطف أمريكا الشابة على زميلتها إنجلترا العجوز ، وجعلت

الأولى تحبها مثلما يحب الابن الأكبر أمه ، التى تأبى لفرط شغفها به أن تتركه حتى يثور عليها . واستغرقت آمى فى لذة الحديث مع هؤلاء النبلاء البريطانيين ، ولكنها لم تنس الوقت المحدد للزيارة ، فلما حانت اللحظة المناسبة ، قامت على كره منها تستأذن فى الانصراف ، وراحت تبحث عن چو — التى تعبت فى إصلاحها — وهى ترجو ألا تكون قد ارتكبت خطأ يسىء إلى سمعة آل مارش .

وعثرت على چو تجلس على الحشائش مع الأولاد ، وقد قبع كلب قذر على ذيل ثوبها الأنيق ، وكانت تقص عليهم بعض فكاهات لورى ، وهم يصغون إليها معجبين . وكان أحدهم يداعب السلحفاة بمظلة آمى الجميلة ، والثانى يأكل فطائر الزنجبيل فوق قبعة چو ، والثالث يلعب الكرة بقفازها الأنيق . وكانوا يستمتعون بوقت جميل فى صحبة چو ، فلما قامت تجمع متاعها المشتت ، استعداداً للانصراف ، صحبها الأولاد حتى الباب ، راجين أن تعود إلى زيارتهم مرة ثانية . وقد اعتبرت آمى أن چو أساءت التصرف ، وكان من الجائز أن يتطور الموقف إلى أسوأ ، ولكن الله سلم .

قالت چو ، وهى تسير مع أختها ، وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، لتخفى المظلة التى لوثتها الأوساخ .

— أليسوا أطفالا مدهشين يا آمى ؟ إنى أحس بالشباب والمرح حين أجلس إليهم .

فسألتها آمى ، وهى تتجاهل ما أصاب أناقة چو من عبث الأطفال :

— لماذا تتحاشين مستر تيودور دائماً ؟

قالت چو :

— إنى لا أحبه ، لأنه يجلب المتاعب لأبيه ، ويكثر من تعنيف إخوته ، وهو مغرور لا يتحدث عن والدته بالاحترام الواجب . ولورى يقول إنه شاب فاسد ، ولذلك أكره أن أختلط به ، وأفضل أن أتركه كمًّا مهملا .

قالت آمى :

— ولكن هذا لا يمنعك من أن تعامليه بكياسة ، فقد رأيتك تومئين إليه بتحية باردة ، مع أنك ابتسمت فى أدب بالغ لتومى تشامبرلين ابن البدال ، وكانت الحكمة تقضى بأن تؤثرى تيودور بالتحية اللائقة .

ولم تسكت چو المشاكسة عن هذه الملاحظة ، بل قالت :

— لن يحدث هذا أبداً ، فأنا لا أحب هذا التيودور ، ولا أحترمه ولا أعجب به ، ولا يهمنى إذا كان ينحدر من سبعة لوردات على التوالى ؛ أما تومى فهو سيد ممتاز على الرغم من أنه ابن بدال ، وأنا أقدره لحيائه واجتهاده ، وأحب أن أشعره بتقديرى .

قالت آمى :

— إن المجادلة معك مضيعة للوقت . . .

قاطعتها چو قائلة :

ـ بالعكس يا سيدتى ، ومع ذلك دعينا من هذا الموضوع ، حتى لا نعكر مزاجنا ، وهيا بنا نترك بطاقة لآل كنج ، إذ يبدوا أنهم ليسوا فى البيت من حسن الحظ .

وتركت الفتاتان بطاقة لآل كنج ، ثم استأنفتا مسيرهما إلى باقى الزيارات ، وتنفست چو الصعداء حين وصلت إلى البيت الخامس ، وقيل لهما إن الفتيات مشغولات عن مقابلة الضيوف . قالت لأختها :

ـ أرى أن نعود إلى البيت ، ولا داعى اليوم لزيارة العمة مارش ، فباستطاعتنا أن نفعل ذلك فى وقت آخر . إنى أكره أن نواصل السير بملابسنا الأنيقة ، ونحن متعبتان مجهدتان .

فقالت آمى :

ـ تكلمى عن نفسك من فضلك ، فإن عمتى يسرها أن نزورها فى أبهى حلة وأكمل منظر ، ولا أحب أن أحرمها من هذه المتعة ، ولن تسىء الزيارات الرسمية البسيطة إلى هندامك ، نصف ما أساء الأطفال والكلاب الذين كنت تلاعبينهم . انحنى قليلا لأنفض عن قبعتك فتات الخبز والفطائر .

قالت چو نادمة ، وهى تنقل بصرها من ثوبها المشوش إلى ثوب أختها النظيف :

ـ يا لك من فتاة طيبة يا آمى ؛ وددت لو كان لى بعض قدرتك على خدمة الناس حتى أدخل السرور على قلوبهم . إنى أفكر فى هذا ، ولكن

التنفيذ يستغرق منى وقتاً طويلا ، ولذلك أفضل الانتظار حتى تحين الفرصة ، فأؤدى لهم خدمة كبيرة تعوضهم عن إهمالى فى الخدمات الصغيرة . ولكنى أعترف بأن الخدمات الصغيرة تترك فى النفس أثراً أكبر فى آخر الأمر .

ولان قلب آمى فى الحال ، ورقت عاطفتها ، فابتسمت ثم قالت بلهجة الأم الحنون :

— من واجب النساء — خصوصاً الفقيرات — أن يعودن أنفسهن معاملة الناس باللطف والبشاشة ، فإنها سبيلهن الوحيد إلى رد الجميل . وإذا تذكرت نصيحتى هذه وعملت بها ، فسيحبك الناس أكثر منى ، لما حباك الله به من دواعى المحبة .

قالت چو :

— إنى مؤمنة بصواب ما تقولين ، ولكنى امرأة هوائية المزاج ، وسأظل كذلك دائما ، وأؤكد لك أنه أسهل على أن أغامر بحياتى من أجل شخص ، من أن ألاطفه مكرهة . من سوء الحظ أن تكون للإنسان أهواء فى الحب أو البغض ، أليس كذلك ؟

قالت آمى :

— وأسوأ منه أن لا يستطيع الإنسان إخفاء أهوائه . أنا لا أقر سلوك تيودور ، ولست أقل منك إنكاراً لأفعاله ، ولكن شعورى الشخصى لا يصح أن يدفعنى إلى جرح إحساسه ، أو إلى التقصير فى مجاملته كما

فعلت ، فهذا سلوك سيئ .

قالت چو :

— بل يجب أن نظهر نفورنا من سلوك الفتيان الطائشين ، والمجاملات العادية وسيلتنا إلى ذلك ، لأن النصيحة والإرشاد لا يجديان شيئا . لقد تعلمت ذلك من صداقتى لتيدى ، وتبينت بالتجربة أن بعض التصرفات الصامتة تؤثر فيه أكثر من الكلام ، وأرى أن نطبق هذه القاعدة على الآخرين ، كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

قالت آمى بلهجة جادة ، لو سمعها تيدى لأغرق فى الضحك :

— إن تيدى فتى ممتاز ، ولا يمكن أن يقارن بالآخرين ، ولو كنا جميلات أو ثريات أو شهيرات ، لجاز لنا أن نفعل ما نريد . أما أن نكون غير ذلك ، ثم ننظر شزراً إلى من لا يعجبنا ، ونبتسم لمن يعجبنا ، فسلوك يضربنا ولا يؤثر فى غيرنا ، ولن يقال عنا إلا أننا أهل شذوذ وتزمت .

قالت چو :

— وهل نجامل من نكره ، ونجافى من نحب ، لأننا لسنا جميلات أو مليونيرات ؟ هذا والله ضرب جديد من الأدب غاية فى العجب والطرافة !

قالت آمى :

— ليس فى مقدورى أن أقنعك ، ولكنى أعلم أنها تقاليد الحياة فى العالم كله ، ومن يخرج عليها ينال السخرية والاشمئزاز . وأنا شخصياً لا أحب المصلحين ، ولا أريد أن تنصبى نفسك مصلحةً للناس .

قالت :

ــ وأنا أحب المصلحين ، وسأكون واحدة منهم إذا استطعت ، إذ لا تقدم للدنيا بغيرهم ، مهما سخر العالم منهم واشمأز ، نحن نختلف فى هذه النقطة كل الاختلاف ؛ أنت تنتمين إلى القديم بعتيقه ، وأنا أنتمى إلى الحديث بجديده . وستوصلك طريقتك إلى خير ما تتمنين ، أما أنا فسأتمتع ، عن طريق التجديد ، بوقت حافل بالحيوية والنشاط ، وسأتلذذ بصيحات السخرية والاستهزاء .

قالت آمى :

ــ حسناً . . . أمسكى عن هذا الحديث الآن ، ولا تشغلى عمتك بأفكارك التقدمية .

قالت چو :

ــ سأحاول ، وإن كانت الرغبة تتملكنى أحياناً فى الانفجار أمامها بحديث جرىء أو رأى ثائر ، ولكن ماحيلتى ، وهذا نصيبى من الحياة ؟

وكانت العمتان كارول ومارش تجلسان معاً غارقتين فى حديث طويل ، فما إن دخلت الفتاتان حتى سكتتا عن الكلام ، وفى نظراتهما مايوحى بأن حديثهما كان يتناول بنات أخيهما . وكانت چو قد فقدت مرحها ، وتملكتها روح المشاكسة ، ولكن آمى أدت الواجب على أكمله ، وأرضت العجوزين بهدوئها وأدبها ، واستمالتهما ببشاشتها وصفاء ذهنها وبراءة قلبها ، فرحبتا أجمل ترحيب بها وأسبغتا عليها تحيات حارة ، حتى

قالتا بعد انصراف الأختين : « إن هذه الفتاة تتحسن يوماً بعد يوم » .

وجلست آمى إلى جانب عمتها كارول ، وفى محياها أبلغ معانى الثقة بالنفس ، وهى التى يقدرها الكبار فى الشباب ويحبونها . سألتها العمة :

ــ أتشتركين فى السوق الخيرية يا عزيزتى ؟

أجابت :

ــ نعم يا عمتى . . لقد طلبت منى مسز شستر أن أمدّ لها يد المعونة ، فتطوعت بالبيع عند إحدى الموائد ، إذ ليس لدى ما أقدمه إلا وقتى .

وقالت چو فى حزم :

ــ أما أنا فلن أشترك فى هذه السوق ، وإنى أكره أن يمن الناس علىّ ، ويصدروا إلىّ الأوامر ، يظن آل شستر أنهم يسبغون علينا جميلاً كبيراً بدعوتنا إلى مشاركتهن فى هذه السوق ، ويدهشنى أن توافقى على الذهاب يا آمى ، فهم لا يريدون منك إلا العمل والخدمة .

قالت آمى :

ــ وإنى أرحب بهذا ، فليس السوق لآل شستر ، بل للمحرومين والفقراء ، ولا شك أنها مجاملة منهم أن يطلبوا منى نصيباً من العمل ، لأنال نصيباً من السرور والمتعة . أما الرئاسة فلا تفيدنى ما دام الغرض منها سامياً سليما .

قالت العمة مارش ، وهى تنظر إلى چو من فوق نظارتها فى عبوس وتجهم :

— أنت على حق يا آمى ، وأنا أحب روحك الطيبة الراقية ، ومن دواعى السرور أن نساعد من يقدرون جهودنا ، وليس أدعى إلى النفور من أن ينكر بعض الناس قيمة هذه الجهود النبيلة .

ولو كانت چو تعلم ما تخفيه المقادير من سعادة لأحداهما ، لتحولت فى طرفة عين إلى حمامة وديعة ، ولكن ليس لقلوبنا — لسوء الحظ — نوافذ تطل منها على عقول الآخرين ، فتعرف ما يدور بخلد الأصدقاء من خير لنا . حقيقة أن الخير عموماً لا بمعرفة المستقبل ، ولكن المعرفة أحياناً توفر الوقت إلى الهدوء وراحة البال . وكان من سوء حظ چو أن أفلت زمام لسانها ، فقالت شيئاً حرمها من السرور سنوات عدة ، وعلمها درساً لا ينسى فى وجوب السيطرة على النفس والكلام . إذ قالت لعمتها :

— إنى لا أحب أفضال الناس وجمائلهم ، لأنها تخمد أنفاسى ، وتبعث فى نفسى إحساساً بالذلة والعبودية ، وأفضل أن أعمل بنفسى لنفسى ، وأتمتع بحريتى كاملة .

وتنحنحت العمة كارول برفق ، وتطلعت إلى العمة مارش فى نظرة ذات مغزى ، ثم قالت بإيماءة حاسمة :

— ألم أقل لك هذا ؟ !

وجلست چو شامخة بأنفها فى الهواء ، وعلى وجهها دلائل الثورة والانفعال ، وبدت على الرغم من ذلك جذابة لطيفة ، وهى تجهل أثر كلامها فى مستمعاتها .

سألت العمة مارش آمى ، وهى تربت على كتفها :

ــ أتتكلمين الفرنسية يا عزيزتى ؟

أجابت آمى ، وهى تنظر للعمة مارش نظرة مفعمة بالشكر :

ــ أتكلمها بطلاقة ، بفضل عمتى مارش ، فقد جعلت أستر تمرننى عليها كلما أردت .

والتفتت العمة كارول إلى چو تسألها :

ــ وأنت ، كيف حال اللغات معك ؟

أجابت چو بسرعة :

ــ لا أعرف كلمة منها ، لأنى محرومة من نعمة الحفظ ، فضلا عن أنى لا أطيق الفرنسية ، إنها لغة فى منتهى الذلاقة ونفسى تضيق بها .

وتبادلت العمتان النظرات مرة أخرى ، ثم قالت العمة مارش لآمى :

ــ أعتقد أنك بخير الآن يا عزيزتى ، وصحتك على ما يرام ، فهل ما زلت تشعرين بتعب فى عينيك ؟

أجابت آمى :

ــ لا ، شكراً لك يا سيدتى ؛ إنى على خير حال ، وأرجو أن يمكننى الله من أداء أشياء عظيمة فى الشتاء القادم ، حتى أكون مستعدة للذهاب إلى روما حين ما يحل الموعد السعيد .

قالت العمة مارش :

– أيتها الفتاة الطيبة ، أنت تستحقين الذهاب إلى روما ، وسوف تذهبين فى يوم ما .

وربتت على رأسها ، وهى تنحنى لتلتقط لها بكرة الخيط .

وصاح الببغاء پولى يغنى :

رقعى الثيـــاب وأقفلى البـــاب
وأوقدى النـــار وانسجى الخمـــار

وهبط على كرسى العمة ، ووقف على ظهره ينظر إلى چو ، تساؤل وقح ، طربت له الحاضرات وضحكن ، فقالت العمة العجوز :

– يا لك من طائر دقيق الملاحظة .

وصاح الببغاء يقول ثانية :

– أليس فى نيتك أن تتمشى قليلا يا عزيزتى ؟

وقفز نحو الصيوان ، ونظر إليه بما ينم عن رغبته فى قطعة من السكر .

فقالت چو تجيب الببغاء :

– هذا ما أنتويه بالفعل ، هيا بنا يا آمى ؛

وأنهت چو الزيارة بهذه الجملة ، وقد ازداد يقينها بسوء أثر الزيارات فى نفسها ومزاجها . وصافحت عمتها على طريقة الرجال ، أما آمى فقبلتهما ، وانصرفت الفتاتان تاركتين وراءهما أثرين مختلفين اختلاف الظل والشمس المشرقة .

قالت العمة مارش :

ـ من الخير يا مارى أن تفعلى ما اتفقنا عليه ، وسأتكفل بالنفقات .

فأجابت العمة كارول :

ـ سأفعل بالتأكيد ، إذا وافق أبوها .

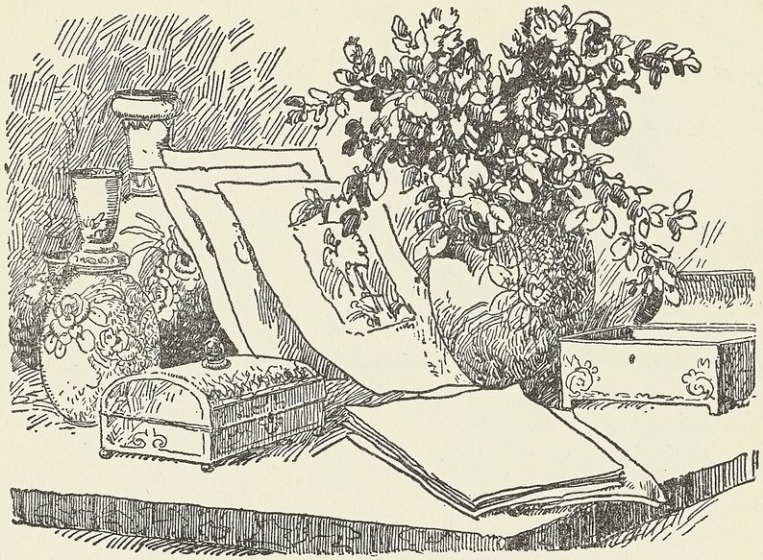

الفصل الثلاثون

(نتائج)

كانت سوق مسز شستر الخيرية آية فى الأناقة وحسن الذوق ، حتى اعتبر فتيات الجيرة أن دعوتهن إلى الاشتراك فيها شرف ما بعده شرف . وقد وجهت الدعوة إلى آمى دون أختها چو ، فكان خيراً جزيلا ، إذ كانت چو فى هذه الفترة من حياتها ذات كبرياء عظيمة ، واعتزاز شديد بالنفس ، ولذلك تلقت صدمات كثيرة قبل أن تدرك كيف تسير مع الحياة بسهولة ويسر . ولا شك أن الصدمات تركت چو المترفعة المشاكسة فى وحدة قاسية ، بعكس آمى التى كوفئت على كياستها وذوقها خير مكافأة ،

فعهد إليها الإشراف على مائدة الفن فى السوق ، والحق أنها أجهدت نفسها فى إعداد هذه المائدة ، حتى تكون قد ساهمت بنصيب موفور ، فى هذا العمل الخيرى الجليل .

وسارت أمور السوق فى سهولة ويسر ، حتى كان اليوم السابق لافتتاحها ، عندما حدثت بعض مناوشات ، لم يكن من حدوثها بد ، فى مكان يجمع نحو خمس وعشرين سيدة يعملن فى صعيد واحد ، على الرغم من اختلاف أعمارهن ومشاربهن .

كانت مای شستر تغار من محبة الناس لآمی ، وازدادت غيرتها وتأججت لهيبها لبعض الحوادث التافهة ، منها أن جمال لوحات آمی ، طغى على الأوانى التى صنعتها مای وتعبت فى زخرفتها ؛ ومنها أيضاً أن آثر تيودور آمی بأربع رقصات فى الحفل الذى أقيم بعد ذلك ، ولم يرقص مع مای إلا مرة واحدة . وجاء الحادث الثالث بما حز فى قلب مای ، وأعطاها العذر لتكشف عن عدائها سافرا ، وكان ذلك عندما همس بعض المتملقين فى أذنها بأن بنات مارش سخرن منها ، فى أثناء زيارتهن لآل لام ، وجعلنها محور تفكههن . ولعل جزءاً من اللوم فى هذا يقع على عاتق چو ، التى جاء تقليدها الخبيث لمای شستر حيا ناطقاً ، بحيث لم يخف أمره على أحد كما أن جزءاً آخر من اللوم يقع على آل لام الذين تسربت منهم هذه الفكاهة إلى مسامع مای . وعلى أى حال لم يشعر أحد من آل مارش بالحقد الذى يعتلج فى قلب مای ، ولذلك كان حزن آمی بالغاً ، عندما

جاءتها مسز شستر – التى ساءتها بطبيعة الحال السخرية بابنتها – فى اليوم السابق للافتتاح ، وقالت لها بلهجة تسيل عذوبة ، وإن كانت نظراتها صلبة جامدة :

– لقد تضايقت فتيات كثيرات لأنى أعطيت هذه المائدة لواحدة من غير بناتى ، باعتبار أنها أبرز الموائد ، وأكثرها جاذبية . ولما كانت بناتى أول من ساهمن فى هذه السوق ، فقد رأين أن نعهد إليهن بالإشراف على المائدة ، وإنى آسفة لهذا التعديل يا عزيزتى ، ولكنى واثقة بأنك أكثر إخلاصاً للمبدأ من أن تعيرى المسائل الشخصية اهتماما . ستعطين مائدة أخرى إذا شئت .

وكانت مسز شستر تظن أن الأمر سينتهى بانتهاء كلماتها ، ولكنها وجدت المهمة عسيرة تحت نظرات آمى المسلطة ، فتملكها الاضطراب حتى لم تستطع أن تنطلق على سجيتها .

وأحست آمى بأن وراء هذه المسألة ما وراءها ، وإن لم تستطع التكهن بما هنالك ، وشعرت بجرح كبريائها ، وأرادت أن تشعر محدثتها بهذا الجرح فقالت :

– أظنك تفضلين أن لا أشرف على أية مائدة فى السوق ؟

فقالت مسز شستر :

– لا . . . لا . . . يا عزيزتى ، أرجو أن لا تسىء الظن بى ؛ المسألة لا تعدو وضع الأمور فى نصابها ، فمن الطبيعى أن يكون لبناتى مكان

الصدارة فى السوق ، وهذه المائدة أليق بهن من غيرها ، وقد رأيت أن أوضح لك الأمر بطريقة لطيفة ، تقديراً لجهودك الثمينة ، ومن واجبنا فى مثل هذه الظروف أن نتخلى عن رغباتنا الشخصية فى سبيل الغاية السامية . سأختار لك مكاناً حسناً على مائدة أخرى ، ألا تحبين مائدة الزهور ؟ إن المشرفات عليها صغيرات ، وفى حاجة إلى المعونة ، ويقينى أنك ستخلقين منها شيئاً جميلا أنيقاً ، والزهور كما تعلمين جذابة دائماً .

وأضافت مای شستر ، وفی عینیها نظرة ذات مغزی :

ـ جذابة للرجال علی الأخص !

وأدرکت آمی سبباً واحداً من الأسباب التی أفقدتها الحظوة لدی آل شستر ، واحمر وجهها غضباً ، ولکن فیما عدا ذلك ، لم تهتم بسخریة الفتاة ، وأجابت بلطف غیر منتظر :

ـ سأذهب حیث تریدین یا مسز شستر ، وسأترك مکانی فوراً ، لأعنی بمائدة الزهور کما تحبین .

قالت مای ، وقد بدأت تحس بتأنیب الضمیر :

ـ بوسعك أن تضعی معروضاتك الخاصة علی مائدة الزهور إن أردت .

وکانت فی الحقیقة تریدأن تتلطف مع آمی ، ولکن آمی أساءت فهم ذلك ، فقالت بسرعة :

ـ سآخذها بالطبع ، ما دامت تقف فی طریقك .

وأسرعت تجمع أشیاءها فی مرولتها ، وسارت بها وقد اختلطت علیها الأمور ، وأحست بأن الإهانة لم تقتصر علی شخصها ، بل نالت أعمالها الفنیة أیضاً .

وعندما ابتعدت قالت مای لأمها ، وهی تنظر فی قلق إلی الفراغ الذی خلفه نقل صور آمی من مائدتها :

ـ رباه ! لقد جنت الفتاة ! لیتنی لم أطلب إلیك أن تکلمیها یا أماه.

فقالت الأم ، وقد أحست بصغر شأنهـا لاشتراكها فى هـذه المشاحنات :

— إن مشاحنات البنات سرعان ما تنتهى .

وعندما ذهبت آمى إلى مائدة الزهور ، قابلتها الفتيات الصغيرات بسرور عظيم ، وبالغن فى الترحيب بها وبكنوزها الفنية ، مما كان له أثر كبير فى تهدئة عواطفها الثائرة . وبدأت تعمل فى الحال ، وكلها عزم على أن تبلغ ذروة النجاح بزهورها ، ما دامت لم تستطع ذلك برسومها .

ولكن خيل إليها أن الظروف تتحالف كلها ضدها : فالوقت متأخر ، وهى منهكة القوى متعبة ، وكل من بالسوق مشغول عنها بعمله الخاص ، وليس هناك من يعاونها ، حتى الفتيات الصغيرات كن يعطلنها أكثر مما يساعدنها بجلبتهن وثرثرتهن ، ومحاولتهن الفاشلة فى المحافظة على النظام .

وظل قوس النصر — المجدول من الفروع الخضراء والزهور اليانعة — يتمايل مهدداً بالسقوط فوق رأسها ، وهى تملأ السلال المعلقة فيه بالورود . وأصيبت يداها بجروح وكدمات لكثرة ما دقتهما بالمطرقة ، وهى تثبت القوس فى مكانها ، كما كان تيار الهواء البارد يلفحها ، فانتابها القلق ، وخافت أن تمرض ، فتتخلف عن حضور الافتتاح فى اليوم التالى .

ولعل كل قارئة مرت بمثل هذه التجربة ، تقدر محنة آمى ، وتدعو لها بالتوفيق فى أداء واجبها .

وحين عادت إلى البيت فى المساء ، وروت القصة لأهلها ، ثاروا

جميعاً ثورة عنيفة ، وقالت والدتها :

ـ إن آمى أحسنت التصرف ، ولكن سلوك آل شستر كان فضيحة كبرى .

وأعلنت بث عزمها على مقاطعة السوق ، وأقسمت ألا تذهب إليه بأى حال من الأحوال ؛ وتساءلت چو لماذا لا تجمع آمى لوحاتها الجميلة وتنسحب بها فوراً ، وتترك أولئك الدنيئات يمضين بدونها ؟

قالت آمى :

ـ لا يصح أن أقابل دناءتهن بمثلها ، ولقد كان من حقى أن أثور وأغضب ، ولكنى اخترت أن أكبت شعورى فى صدرى ، وقد يشعرهن مسلكى هذا بالخطأ أكثر من الثورة والغضب . أليس كذلك يا أماه ؟

فقالت الأم بلهجة السيدة الحكيمة المجربة :

ـ لقد أحسنت صنعاً يا عزيزتى ، وليس أقوى أثراً من مقابلة الإساءة بالإحسان ، وإن كان يصعب علينا أحياناً أن نكظم غيظنا ، ونغفر الإساءة لخصومنا .

وظلت آمى طوال اليوم التالى متمسكة بقرارها ، بالرغم من توافر العوامل التى تغريها بالاحتجاج والانتقام ، وكان غرضها أن تنحنى أمام العاصفة ، لتقهر غريمتها بالحسنى ، وساعدها على تحقيق هذا الغرض حادث صغير ، وقع فى بداية اليوم ، فترك فى نفسها أبعد الأثر : إذ بينما كانت البنات الصغيرات يملأن سلال الزهور فى حجرة جانبية ، وقفت تشغل نفسها

بتنظيم مائدتها ، فوقعت عيناها على رسومها الحبيبة ، ورأت بينها كتيباً بغلاف قديم كان أبوها قد عثر عليه بين تحفه وذخائره . وكان الكتيب يحوى نصائح رائعة مختلفة ، فعكفت عليه تتصفحه ، حتى استوقف نظرها بيت من الشعر جعلها تقف عنده وتفكر . وكان الشعر مخطوطاً بين رسوم ونقوش متعددة الألوان ، موشاة بالأزرق والذهبى ، وسط زهور وأشواك ، وكان الشعر يقول : « أحبب لجارك ما تحب لنفسك » .

وراحت آمى تنقل بصرها بين الكتيب ووجه مای ، فرأت من خلف أوانى الزهور ، أن الفتاة غاضبة ، لأنها لم تستطع ملء الفراغ الذى نشأ عن سحب لوحات غريمتها . فقالت آمى لنفسها : « نعم » كان يجب أن أحب لجارى ما أحب لنفسى ، ولكنى لم أفعل ذلك » .

ووقفت برهة تقلب صفحات الكتاب فى يدها ، فتقرأ فى كل صفحة منها لوماً هادئاً على جموح النفس وقساوتها . والنصائح الغالية تأتينا كل يوم فى الطريق والمدرسة وفى المكتب وفى البيت ، وحتى أمام الموائد وفى الأسواق الخيرية قد تصل إلينا كلمات طيبة ، لا تبلى حكمتها الأيام . وهـذا ما حدث لآمى ، فقام ضميرها يعظها بما استوحاه من نصوص الكتيب ، وكان أن فعلت ما لا تفعله عادة ، وهو أنها آمنت بالموعظة من كل قلبها ، وانبرت إلى تنفيذها فوراً .

وكانت ثلة من البنات يقفن إلى جانب مائدة مای ، وهن يطرين المعروضات الجميلة ، ويتساءلن هامسات عما دعا إلى تغيير نظام البائعات

على الموائد . وأدركت آمى أنهن يتحدثن عنها ، بعد أن سمعن جانباً واحداً من القصة ، واستخلصن منه نتيجة تظلمها ، فتضايقت لذلك ، ولكن روح الخير غلبت عليها ، فلما سمعت مای تقول فى أسى :

ــ إن الموقف غاية فى السوء ، والوقت لايتسع لإعداد أشياء أخرى ، ولايصح أن نملأ الفراغ بالتوافه ، لقد كانت المائدة كاملة ولكنها فسدت الآن .

قالت إحدى الفتيات تقترح حلا :

ــ أعتقد أنها لن ترفض إعادة الأشياء إلى مكانها ، إذا طلبت منها ذلك .

فبدأت مای تقول :

ــ وكيف أطلب منها بعد كل ما حدث بيننا ؟

ووجدت آمى الفرصة لتظهر روحها الطيبة ، فصاحت بغريمتها تقول لها من أقصى البهو باسمة :

ــ لست فى حاجة لأن تسأليني إذا كنت تريدينها ، خذيها بكل سرور ، لقد كنت أنوى إعادتها من تلقاء نفسى ، لأنها أليق بمائدتك من مائدتى . إليك الأشياء فخذيها من فضلك ، وسامحيني إن كنت قد تسرعت بسحبها ليلة أمس .

وما انتهت من إعادة الصور إلى مكانها . حتى سارعت بالعودة ، وهى تشعر أن إسداء الجميل أسهل من طلب الشكر .

قالت إحدى البنات :

ــ أليس جميلا منها أن تفعل ذلك ؟

ووافقتها مای بصوت خفيض ، ولكن فتاة لاذعة اللسان قالت وهى تضحك بخبث :

ــ تصرف جميل جداً ، ولكنها لم تلجأ إليه إلا حين أدركت ألا أمل لها فى بيع الصور على مائدتها .

وكان تعليقاً ظالما ، فنحن حين نقدم تضحياتنا الصغيرة ، لا ننشد غير التقدير ، لذلك أحست آمى ، بأسف بالغ على ما أسدت من جميل قوبل بالنكران . ولكنها لم تكن تعرف أن المستقبل القريب يدخر لها خير الجزاء : فقد وقع حادث صغير ، رفع روحها المعنوية ، وجعل مائدتها تتألق وتزدهر بفضل حذقها ومهارتها ، وكذلك بدد التوتر وأعاد الأمور إلى مجاريها .

مضى اليوم بآمى طويلا شاقاً ، بعد أن هجرتها الصغيرات اللواتى كن يساعدنها ، ولم يقبل على زيارة مائدتها إلا رواد قليلون ، فجلست بجوار زهورها وحيدة حزينة ، تتحسر على الباقات التى ذبلت ، قبل أن يأتى المساء بوقت طويل .

وكان الازدحام حول مائدة الفن عظيما طيلة اليوم ، لأنها كانت أكثر الموائد جاذبية وجمالا ، وأقبل الوجهاء على شراء معروضاتها ، فامتلأت صناديقها بالمال . وظلت آمى تتطلع إلى تلك المائدة ، وفى نفسها

حسرة على حرمانها من مكانها الطبيعى فيها ، وشعرت أنها فقدت كثيراً من سعادتها بانزوائها فى ذلك الركن دون عمل مفيد . وقد يستهين بعضنا بهذا الوضع ، ويعتبرونه أتفه من أن يستحق الاهتمام ، ولكن آمى كانت شابة جميلة مرحة ، ووضع كهذا لا يدعوها إلى السأم والملل فحسب ، بل يخنق أنفاسها أيضاً ، ويملأ صدرها بالضيق والشجن . وبلغ بها الحزن أقصاه حين تخيلت أهلها عندما يجتمعون بلورى وأصدقائه فى المساء ، ويعلمون بما جرى لها ، فيرون فيها أصدق صورة للشهيدة التى ذهبت فداء المبدأ .

ولم تعد آمى إلى البيت إلا وقد أرخى الليل سدوله ، ورغم أنها لم تشكُ لأهلها ، ولم تقص عليهم شيئاً مما جرى ، فقد أدركوا من سكونها وشحوبها كيف كان يومها شاقًّا متعباً . وأعطتها أمها فنجاناً إضافيًّا من الشاى ، وساعدتها بث على تنسيق ثوبها ، وزينت لها شعرها بتاج من الزهور ؛ أما چو فقد أدهشت أهلها بإشارات غامضة إلى ما ينتظر من انقلاب فى شأن الموائد .

وخرجت آمى فى الصباح التالى مبكرة ، عسى أن تجد مزيداً من الزهور اليانعة تعزز بها مائدتها وتنعشها ، قالت تحدث چو وهى بسبيلها إلى الانصراف :

— أرجو ألا تقومى بأى عمل عنيف يا چو ، إذ لا أريد أن أحدث جلبة . اسلكى مسلكاً حسناً ، ودعى الأمور تسير فى مجاريها .

قالت چو ، وهى تطل من فوق البوابة فى انتظار قدوم لورى :

ــ ليس فى نيتى إلا أن أكون لطيفة هادئة ، وسأقف مع أصحابى على مائدتك أطول وقت ممكن ، وسوف يساعدنى تيدى وأصدقاؤه فى ذلك ، وأملى أن نقضى وقتاً طيباً .

وتعالى وقع أقدام لورى ، وهو آت فى ضوء الصباح الباهت ، فأسرعت إليه چو تستقبله وتقول :

ــ أهذا أنت يا صديقى ؟

قال ، وهو يتأبط ذراعها منشرحاً ، كأنما تحققت أمانيه كلها :

ــ نعم يا صديقتى ، أنا هو .

قالت چو :

ــ آه يا لورى ، لو علمت بما حدث .

وراحت تقص عليه متاعب آمى بحرارة الأخوة وإخلاصها ، فقال وقد سرت فيه الحماسة لقصتها :

ــ سيذهب أصدقائى إلى السوق زرافات زرافات ، ولن أكون لورى إذا لم أجعلهم يشترون كل وردة على مائدة آمى ، ويعسكرون أمامها طول الوقت .

قالت چو بلهجة يشوبها الاشمئزاز :

ــ تقول آمى إن الزهور على مائدتها ذبلت ، والجديد منها لا يصل إلا فى وقت متأخر ، أنا لا أحب أن أتجنى على الناس أو أظلمهم ،

ولكنى أشك أن أحدهم يؤخر وصولها عمداً . إن من يرتكب الكبائر مرة ، لا يكثر عليه أن يرتكبها مراراً .

فسألها لورى :

— ألم يعطكم البستانى أجمل زهور حديقتنا ؟ لقد طلبت إليه أن يقدم لكم ما تريدون .

أجابت چو :

— لا علم لى بذلك ، ولعله نسى ، فلا داعى لإزعاجه بالطلب مرة أخرى ، وإن كنت حقاً فى حاجة إلى بعض الزهور النضرة .

فقال لورى بلهجته الودية المؤثرة :

— الزهور كلها ملكك ، كما هى ملكى ، ألسنا نتقاسم كل شىء دائماً ، كيف تظنين أنك فى حاجة إلى السؤال ؟

قالت :

— رحمة يا إلهى ! أنى لا أحب أن أشاركك على كل ما تفعل ، ولكن لا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشة هذه المسألة ، على أن أساعد آمى ، وعليك أن تستعد ، ولن أنسى لك هذا الجميل ما حييت .

فقال لورى :

— ولم لا تردين الجميل الآن ؟

وكان فى لهجته إيحاء ماكر ، حمل چو على أن تغلق الباب فى وجهه ، لتسرع بصده عنها ، ثم صاحت تقول له من وراء القضبان :

ـ اذهب يا تيدى ، فأنا الآن مشغولة .

ومضى اليوم على ما يرام ، وبفضل المتآمرين من أجل سعادة آمى ، حدث الانقلاب المنتظر فى شأن موائد السوق . فقد حمل هينز البستانى إلى الفتاة مجموعة من الزهور النادرة ، مع سلة جميلة نسقها بطريقته الخاصة ، التى اعتاد أن ينسق بها السلال للأوساط الممتازة ، فكانت تحفة فى جمالها . وجاءت أسرة مارش إلى السوق بكامل هيئتها ، وراحت چو تبذل منتهى براعتها فى تحقيق غرضها ، فكان نجاحها رائعاً ، إذ كان رواد السوق يقفون معها ليستمتعوا بعبثها اللطيف ، ويعجبوا بذوق آمى الرفيع فى التنسيق . وأقبل لورى وأصدقاؤه على المائدة يشترون باقات الزهور ، ويدفعون فيها أثماناً سخية ، حتى أتوا عليها ، ولم يبقوا على شىء منها ، ثم عسكروا أمام الفتاة وحولوا ركنها الهادئ إلى جنة تفيض بالمرح وتنبض بالحياة . وهدأت نفس آمى ، وعاودها إشراقها ونشاطها ، وبدت على وجهها أمارات التأثر بما فعل هؤلاء الفتيان الطيبون ، وراحت تفكر فيما كانت تغرى به نفسها فى الصباح ، من أن أجر الخير لا يضيع ، فتحمد الله على أنها جوزيت أحسن جزاء على عملها الطيب .

وسلكت چو طول اليوم مسلكاً مثاليا ، وحين طوقت حاشية الشرف آمى السعيدة ، قامت هى بجولة فى السوق ، تتلمس أخبار ما يدور هنا وهناك ، فعلمت من شتات الأحاديث ، أثر تغيير أحوال الموائد فى نفوس الحاضرات . كما اكتشفت أيضاً ما صنعته آمى من إعادة رسومها إلى مائدة

الفن ، فاعتبرت صنيع أختها مثلا أعلى فى الشهامة وكرم الأخلاق . وعندما مرت بمائدة الفن ، ألقت عليها نظرة ، لتتبين ما صارت إليه رسوم أختها ؛ فلما لم تجد لها أثراً ، دار بخلدها أن الرسوم قد أخفيت عمداً عن الأنظار . وكانت چو تتسامح مع بعض من يخطئون فى حقها ، ولكنها تثور إذا أهين فرد من أسرتها ، لذلك تملكها الغضب ، ولم تستطع أن تسيطر عليه إلا بصعوبة شديدة . وكانت مای تقف عند المائدة ، فلما رأت چو ، أبت إلا أن تكون كريمة متسامحة مثل آمی ، فقالت بلهجة تنم عن رغبة فى الاسترضاء :

— مساء الخير يا چو ، كيف تسير آمی فى عملها ؟

ولم تستطع چو أن تقاوم نفسها ، فقالت :

— لقد باعت كل ما يستحق البيع ، وهى الآن تستمتع بوقتها ، فمائدة الأزهار كما تعلمين ، جذابة دائماً « خصوصاً للرجال » .

وتلقت مای هذه الصفعة الصغيرة بهدوء ، مما جعل چو تشعر بالندم بعد لحظة قصيرة ، فراحت تصلح خطاها بامتداح الأوانى الجميلة الكبيرة التى لم تجد إلى الآن شارياً ، وأرادت أن تطمئن على مصير رسوم أختها ، فقالت تسأل مای :

— أين رسوم آمی ، إنى أريد أن أشترى بعضها لأبى .

فقالت مای :

لقد بيعت كلها منذ وقت طويل ، فقد حرصت على تقديمها لمن

يقدرون الفن حق قدره ، فاشتروها بمال كثير .

وفرحت چو جداً بهذا النبأ ، وعادت إلى آمى تبلغها الأخبار الطيبة ، فاغتبطت الفتاة بدورها ، وقالت لأصدقاء تيدى :

— والآن أيها السادة ، أرجوكم أن تذهبوا إلى زيارة الموائد الأخرى ، وتؤدوا نحوها واجبكم كما فعلتم معى ، وأوصيكم بمائدة الفن على الأخص .

وعندما بدأ الفتيان يتحركون فى ميدان السوق ، قالت چو :

— عليكم بمائدة شستر ، واشتروا منها كل شىء ، وستأخذون فى مقابل نقودكم فناً رفيعاً بمعنى الكلمة . هيا إلى الواجب كرجال كرماء .

وقال پاركر الصغير متظرفاً :

— سمعاً وطاعة ، ولكنى أفضل مارس على مايو .

وكان يشير بذلك إلى أن مارش (اسم شهر مارس بالإنجليزية) أجمل من ماى (اسم شهر مايو) ، ولكن لورى أسكته فى الحال قائلا :

— حسناً يا بنى إنه أجمل فى عيون الصغار !

وجذبه من يده ، وهو يربت على رأسه فى حنان الأب . وأرادت آمى أن تجرد غريمتها من آخر سلاح فى يدها ، فقالت تهمس فى أذن لورى :

— اشتر أوانى الزهور .

ولم يكتف لورى بشراء الأوانى ، بل سار فى البهو يتأبط آنية تحت كل ذراع من ذراعيه ، واشترك السادة الآخرون فى مزايدات حامية ، لشراء بقية المعروضات ، فابتاعوا كثيراً من الأشياء التافهة ، ثم طافوا

بأرجاء البهو محملين بالزهور الصناعية والمراوح الملونة، والمحافظ المزركشة، مما زاد فى سرور مای شستر وابتهاجها .

وكانت العمة كارول هناك ، فلما سمعت بما حدث لآمى ، انتحت جانباً بمسز مارش وأسرت إليها بكلمات جعلتها تبتسم راضية، وترقب ابنتها بوجه اختلط فيه السرور بالقلق ، ولكنها احتفظت لنفسها بما سمعته، ولم تفصح عن أسباب سرورها إلا بعد أيام عدة .

وعندما انتهت السوق ، وأعلن خبر نجاحها العظيم ، قالت مای لآمى تودعها :

— ليلة سعيدة .

ولم تتبسط فى حديثها كالمعتاد ، ولكنها قبلتها قبلة حارة ، ونظرت إليها بندم وأسف على ما بدر منها ، فارتاح قلب آمى لذلك ، واعتبرتها ترضية كافية . وحين عادت إلى البيت ، وجدت أوانى الزهور مصفوفة على المدفأة ، وجعل لورى يقدم إليها كل آنية بحركة تمثيلية ، ويقول إنها جزاء الفضل لمس مارش ذات الكرم والشهامة .

وفى ساعة متأخرة من الليل ، جلست آمى وچو تمشطان شعرهما استعداداً للنوم ، وقالت چو بحرارة :

— ما كنت أعتقد يا آمى أنك على هذا الخلق والمبادئ ، وأنى أحترمك من كل قلبى لمثلك العليا ، وتصرفاتك المهذبة .

وأضافت بث ، وهى تضع رأسها على وسادتها :

ـ نعم ، أنت بسماحتك موضع حبنا واحترامنا ، وكان موقفك طوال الوقت شاقاً عسيرا ، ولكنك بذلت جهدك فى العمل ، وكرست قلبك للمبدأ ، وعاهدت النفس مخلصة على أداء الواجب . لا أظن أننى كنت أستطيع فى مثل هذا الموقف ، أن أتصرف مثلك بالرفق واللين .

وقالت آمى :

ـ ما هذا المديح يا بنات ؟ لست أرى داعياً له ، فما فعلت إلا ما أحب أن يفعله الآخرون معى ، كنتن تضحكن منى عندما أقول : « إنى أريد أن أكون سيدة نبيلة » ، ولكنى كنت أعنى ذلك ، وأتوق بالفعل إلى أن أكون سيدة نبيلة . فى تفكيرى وتصرفاتى ، فأعلو بنفسى عن صغائر النزوات والترهات التى تفسد سيدات كثيرات ، وأعترف بأننى ما زلت بعيدة عن بلوغ غايتى الكاملة .

وكانت تتكلم بحزم ، فقالت لها چو وهى تحتضنها بعطف :

ـ لقد أدركت الآن ما تعنين ، ولن أضحك منك بعد اليوم . إنك تتقدمين إلى هدفك بأسرع مما تظنين ، وسآخذ عنك دروساً فى الأدب الصحيح ، لأنك عرفت سر الحياة على ما أعتقد . استمرى فى محاولتك يا عزيزتى ، وستنالين جزاءك يوماً ما ، وعندئذ لن تجدى أسعد منى بتوفيقك .

ولم يمض أسبوع واحد على هذا الحديث ، حتى نالت آمى جزاءها ، ولكن چو المسكينة لم تستطع أن تفرح كما وعدت ، لأنها كانت فى عراك

مع نفسها ، فقد جاء خطاب من العمة كارول ، فلما قرأته مسز مارش ، أشرق وجهها بالسرور إلى درجة حملت چو وبث — وقد كانتا تجلسان إلى جوارها — على أن تسألاها عما جاء فى الخطاب من أنباء سارة ، فقالت الأم :

— إن العمة كارول مسافرة إلى أوروبا فى الشهر القادم ، وتريد ...

وصاحت چو تقاطعها ، وهى تهب واقفة ، وقد فاض بها السرور فلم تستطع ضبط مشاعرها ، وقالت :

— وتريد أن أذهب معها !

أجابت الأم :

— لا يا عزيزتى ، إنها لا تريدك أنت ، بل تريد آمى .

قالت چو :

— آه ، إنها لا تزال صغيرة جداً يا أماه ، والدوردورى أولا ، وقد كنت أحلم بهذه الفرصة منذ زمن طويل ، والسفر كما تعلمين يفيدنى ، ويمنحنى أحسن الفرص . . . يجب أن أسافر .

قالت الأم :

— أخشى أن يكون هذا مستحيلا يا چو ، فالعمة حاسمة فى طلب آمى ، وليس لنا أن نملى إرادتنا ، حين تعرض علينا جميلا كهذا .

وانحدرت الدموع من عينى چو ، وهى تقول :

— هكذا الحال دائماً ، المسرات من نصيب آمى ، والأعمال والمتاعب

من نصيبي أنا ، ليس هذا من العدل فى شىء . . لا ، ليس هذا من العدل فى شىء .

قالت الأم :

ـ أخشى أنك الملومة يا عزيزتى ، فقد تحدثت إلى عمتك فى الأسبوع الماضى ، وأبدت أسفها لمسلكك الجاف ونزعتك الاستقلالية ، وإليك بعض مقتطفات مما تقول فى خطابها : « لقد فكرت بادئ الأمر فى اصطحاب چو ، ولكنها تكره الفرنسية ، ولا تحتمل أفضال الناس وجمائلهم ، فلم أجد ما يدعونى إلى المغامرة باصطحابها ، أما آمى فأكثر منها ألفة ، وستكون رفيقة طيبة « لفلو » ، وستتقبل بالشكر والامتنان كل فائدة تنالها من هذه الرحلة .

قالت چو ، وهى تزفر زفرة حارة ، وقد تذكرت تفاصيل الحديث الذى قضى على آمالها :

ـ آه من لسانى ! . . لسانى اللاذع ! لماذا أعجز عن السيطرة عليه ؟

وراحت تقص على أمها حديثها مع عمتها ، فقالت الأم بحزن :

ـ ليتك تستطيعين الذهاب ، ولكن لا أمل الآن ، فتحملى الأمر بشجاعة ، ولا تفسدى على آمى فرحتها ، بالتفجع والتحسر على ما فات .

وكانت چو قدأسقطت سلة الورودحين قفزت فرحة فى بداية الموقف ، فقالت وهى تعيدها إلى مكانها :

ـ سأحاول : وسأكون على مثالها ، وأرجو أن لا يظهر السرور على

وجهى فحسب بل أكون مسرورة فعلا ، إنها مهمة شاقة ، وخيبة الأمل عميقة الأثر فى النفس ، ولكن واجبى أن لا أفسد سعادة أختى بمشاعرى الخاصة .

وانحنت على الوسادة تعضها غيظاً ، وتبللها بدموع الحزن والألم .

وهمست بث فى أذنها ، وهى تضمها إلى صدرها فى عطف وحب :

— عزيزتى چو ، إنى سعيدة ببقائك معى ، وأنانيتى تجعلنى أتمسك بصحبتك .

وكان الأسى يحز فى نفس چو ، ويغريها بأن تذهب إلى العمة كارول ، وتتوسل إليها وتضرع ، لتثبت لها كيف يكون العرفان بالجميل ، ولكن كلمات بث نزلت عليها برداً وسلاما ، وأعادت إليها هدوءها وراحتها .

وحين عادت آمى إلى البيت ، كانت چو قد استعادت حالتها الطبيعية ، وأمكنها أن تشارك الأسرة فى احتفالها ، لا من كل قلبها كما اعتادت دائماً ، ولكن دون حقد أو حسد . واستقبلت آمى النبأ فى حبور ، وأخذت تدور فى أنحاء البيت نشوانة مسرورة ، وبدأت فى المساء تجمع أقلامها وألوانها التى ستأخذها معها ، وتركت المسائل التافهة الأخرى — كالملابس والنقود وجواز السفر — لمن هم دونها انهماكاً فى دنيا الفن .

قالت آمى لأخواتها بانفعال ، وهى تزيل بعض الألوان الجافة عن لوحة الألوان :

— لن أطلب مجرد المتعة من هذه الرحلة . فإنى أرجو أن يتقرر فيها

مصيرى الفنى ، وسأعرف فى روما إذا كنت من أصحاب الموهبة ، وسأحاول أن أثبت وجود هذه الموهبة بأعمال قيمة .

وقالت چو ، وهى تخيط البنيقات الجديدة التى ستأخذها آمى ، وقد احمرت عيناها :

— وإذا لم تكونى من أصحاب المواهب ؟

وتقلصت عضلات وجه آمى الطموح ، لمجرد التفكير فى هذا الاحتمال ، ولكنها قالت بهدوء الفلاسفة :

— حينئذ أعود إلى الوطن ، وأكسب عيشى من تدريس الرسم .

فقالت چو :

— لا . . لن تفعلى هذا ، فأنت تكرهين الأعمال الشاقة ، وأعتقد أنك ستتزوجين رجلا غنياً ، وتعودين إلى الوطن لتعيشى فى أحضان النعمة والترف طول حياتك .

وابتسمت آمى ، كأنما شاقها أن تلعب دور إحدى النبيلات ، وبدا لها هذا الدور أوفق كثيراً من إعطاء دروس فى مدرسة الرسم الفقيرة ، وقالت :

— إن نبوءاتك تتحقق أحياناً ، ولكنى أشك فى صدق هذه النبوءة ، وإن كنت أتمنى أن تصح ، وعلى كل حال ، إذا لم أستطع أن أصبح فنانة ، فليس أحب إلى من أن أساعد غيرى على إظهار مواهبهم .

وسعلت چو ، وتنهدت قائلة :

— ستتحقق إذا أردت ، فأنت تبلغين آمالك دائماً ، أما أنا فلا .

وسألتها آمى ، وهى تلعب بالسكين فى تفكير وشرود :

— أتحبين أن تسافرى ؟

أجابت چو :

— دون شك . .

قالت :

— حسناً . . سأطلب إليك أن تحضرى فى بحر عام أو عامين ، وسنذهب معاً إلى مواطن الآثار فى روما ، لنبحث عن بعض الآثار الثمينة المدفونة ، وننفذ برنامجنا الذى سبق أن وضعناه مرّات كثيرة .

وأجابت چو ، تقبل العرض الغامض العظيم ، وهى شاكرة على قدر ما تستطيع :

— أشكرك . . وسأذكرك بوعدك هذا حين يأتى اليوم السعيد ، إذا قدر له أن يأتى أبدا .

ولم تكن هناك فسحة من الوقت للاستعداد ، فظل البيت كله فى اضطراب وفوضى حتى سافرت آمى . واحتملت چو الموقف بصبر وجلد ، ولكن حين اختفت الباخرة عن أنظارها ، وعادت إلى بيتها ، انزوت فى مخبئها ، وأطلقت العنان لدموعها حتى أرهقها البكاء . أما آمى فقد احتملت بدورها موقف الوداع بشجاعة ، ولكن عندما بدأ البحارة فى رفع سلم الباخرة ، وفكرت فى أن المحيط الواسع سرعان ما سيفصل بينها وبين أسرتها ،

تعلقت بلورى ، الذى كان آخر من بقى على ظهر السفينة ، وقالت له وهى تنتحب :

ــ أشملهن جميعاً برعايتك إكراماً لى ، وإذا حدث شىء ...

وهمس فى أذنها ، وهو يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق وعده :

ــ سأفعل ياعزيزتى ... سأفعل وإذا حدث شىء فسآتى إليك لأطمئنك.

وأبحرت آمى من العالم الجديد إلى العالم القديم ، الذى سيظل دائماً جديداً جميلا فى أعين الشباب ، ووقف والدها على الشاطئ يرقبها ، ضارعاً إلى الله أن لا يصيب فتاته الطيبة سوى النجاح والتوفيق . وظلت الفتاة تلوح بيدها ، حتى اختفت الباخرة تماماً ولم يعد يرى سوى قرص الشمس ، وهو يعكس أضواءه الباهرة على مياه البحر .

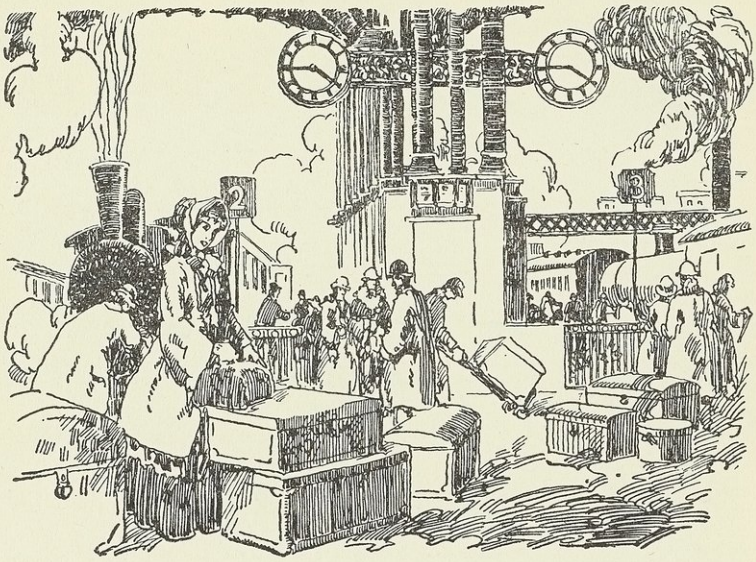

الفصل الواحد والثلاثون

مراسلنا فى الخارج

« لندن »

أهلى الأعزاء

إنى أجلس الآن أمام النافذة الأمامية بفندق باث فى پيكا ديللى، وهو ليس من الفنادق الراقية ، ولكن زوج عمتى لا يرضى عنه بديلا ، لأنه سبق أن أقام به مرّة منذ سنوات طويلة. لا أهمية لذلك على كل حال ، فلسنا ننوى الإقامة طويلا بهذا المكان : آه ! . . لا أدرى كيف أبدأ بوصف ما تمتعت به من مسرات ، ولا أظن أننى قادرة على وصفها إذا

حاولت ، ولذا يكفى أن أقدم لكم مقتطفات من مذكراتى ، إذ لم أفعل شيئاً منذ سافرت إلا الكتابة والرسم .

أرسلت لكم كلمة قصيرة من هاليفاكس ، وكنت يومها فى غاية الشقاء لفراقكم ، ولكن سرعان ما تغلبت على أحزانى ، وقضيت بقية الرحلة على ما يرام . لم يصبنى دوار البحر إلا لماما ، وكنت أقضى اليوم كله على ظهر السفينة مع أصحاب فى منتهى الظرف والبشاشة ، وكانوا يحسنون معاملتى خصوصاً ضباط الباخرة . لا تضحكى يا چو ، فوجود الرجال ضرورى على ظهور السفن ، ومهمتهم أن يعنوا بالمسافرين ويؤنسوهم ، وفى هذا العمل أيضاً رحمة بهم ، ونفع لهم ، ولولاه ما وجدوا سبيلا إلى قتل فراغهم ، سوى التدخين المضر بصحتهم .

كان لدوار البحر أثر سيئ فى عمتى وابنتها فلو ، ولذلك عزمتا عن الاشتراك معى فى مباهج الرحلة ، وامتنعتا عن الصعود إلى ظهر السفينة ، فكنت أقدم لهما كل معونة ممكنة ، ثم أطلب التسلية لنفسى وحيدة . إن السير على ظهر السفينة متعة ، ومشاهدة غروب الشمس لذة ، وليس أجمل من استنشاق هواء البحر العليل ، وليس أدعى إلى التسلية من مراقبة الأمواج وهى تتدافع بقوة .

وددت لو كان باستطاعة بث أن تأتى معى ، لتستفيد بهواء البحر العليل ، أما چو فما كانت تتردد عن تسلق الصوارى ، لتجلس فى أعلى مكان منها ، أو تصادق المهندسين ، أو تنفخ فى البوق الذى يصدر فيه الرّبان

أوامره ، أو غير ذلك من المتع التى تبعث فى نفسها نشوة كبرى .

كان كل شىء فى الرحلة جميلا ، وفاض بى السرور ، عندما لاح الشاطىء الإيرلندى ، فوجدته غاية فى الجمال : أرض خضراء مشمسة ، تنتشر فى جنباتها أكواخ داكنة ، وتقوم على بعض تلالها آثار وأطلال . استيقظت مبكرة لأشاهد السفينة تدخل الميناء ، وكان الجو بارداً فى الصباح ، والخليج ممتلئاً بالقوارب ، والشاطئ بهيج الألوان ، والسماء وردية من فوقنا ، كان منظراً لا ينسى .

وفى كوينز تاون تركنا مستر لينوكس ، وهو أحد معارفى الجدد ، وبينما كنت أتحدث معه ذات يوم ، جاء ذكر بحيرات كيليرنى ، فتنهد من أعماق قلبه ، وراح ينشد الأبيات الآتية ، وهو ينظر إلىّ :

هل سمعت عن كيت كيرنى ؟
إنها تعيش على شواطئ كيليرنى ،
ومن لمح عينيها يشع سحر فتان ،
فانج بنفسك من الهلاك ،
بعيـــداً عن سحر كيت كيرنى .

أليس هذا كلاماً فارغاً ؟ !

رست السفينة بضع ساعات فقط فى ليفربول ، وهى مدينة صاخبة قذرة ، فسررت عندما غادرناها . وفى أثناء رسو السفينة نزل زوج عمتى إلى الشاطئ ، واشترى مظلة وقفازاً جلديا وبعض الأحذية السميكة ذات

الشكل القبيح ، وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قص شعره على الطريقة الإنجليزية ، واطمأن إلى أنه قد أصبح بريطانياً أصيلا . ثم جلس إلى صبي من ماسحي الأحذية ، لينظف له حذاءه من الوحل ويلمعه ، فلما انتهى الصبي من عمله ، نظر إلى زوج عمتي وقال : « لقد نظفتها يا سيدى على آخر طراز أمريكى » . وقد دهش زوج عمتي لذلك دهشة بالغة . . . نسيت أن أقول لكم أن مستر لينوكس عندما ترك السفينة ، كلّف صديقه وورد — الذى أكمل رحلته معنا إلى هنا — بأن يشترى لى باقة من الزهور الجميلة ، ووضع عليها بطاقة كتب فيها « مع تحيات روبرت لينوكس» . وكانت الزهور أول ما وقع عليه نظرى فى الغرفة ، أفلا ترين يا بنات كم كان الوقت مسليا ؟ صدقنى أن السفر متعة عظيمة .

لن أطيل عليكن الحديث ، وإلا ما وصلت إلى أخبار مدينة لندن : كانت الرحلة بالقطار أشبه بزيارة متحف فنى عامر باللوحات الطبيعية الجميلة ، وقد أعجبت كثيراً بمنظر الأكواخ الريفية ، والبيوت القروية ، ووجدتها مسقوفة بالقش ، تغطيها أشجار اللبلاب المتسلقة . أما نوافذها فتشبه « المشربيات » ، وعلى أبوابها تقف سيدات بدينات حولهن أطفال أصحاء . ورأيت المواشى تقف فى حقول المراعى ، وقد أخفت الحشائش أقدامها إلى الركب ، والعجيب أنها تبدو أكثر هدوءاً من مواشينا ، وحتى الدجاج كانت أصواته تدل على الرضا والشبع ، بعكس دجاجنا الأمريكى الثائر الغاضب ، ولم تقع عينى من قبل على مثل هذه الألوان المتناسقة ،

فالحشائش نضرة الخضرة ، والسماء صافية الزرقة ، والقمح ذهبي الصفرة ، وجذوع الأشجار حالكة السواد . وكنت أنا وفلو فى نشوة طول الطريق ، نقفز من جانب العربة إلى جانبها الآخر ، حتى لا يفوتنا منظر ونحن نسير بسرعة ستين ميلا فى الساعة . واستسلمت عمتى للنوم لشدة تعبها ، وعكف زوج عمتى على الدليل يقرؤه غير مهتم بما يُرى حولنا . وهكذا مضى بنا السفر حتى رأيت أبنية وسط أشجار عالية ، فصحت أقول : « هذه مدينة كينلويرث » فأسرعت فلو تنظر من نافذتى وتقول : « يا له من مكان جميل ، لا بد أن نزوره يوما يا أبى . » فأجاب زوج عمتى ، وهو يتأمل حذاءه الجديد بإعجاب شديد : « لن نزوره يا عزيزتى ، إلا إذا كنت تريدين أن تشربى شيئاً من الجعة ، فهذا مصنع للجعة ! ! »

وسكتنا قليلا ، ولكن سرعان ما صاحت فلو تقول : « رحمتك يا إلهى ! أرى مشانق منصوبة ، ورجلا يصعد إليها » ، وصرخت أسألها : « أين . . أين » ؟ . . . وحدقت النظر فى عمودين طويلين ، تصل بينهما عارضة خشبية ، تتدلى منها السلاسل ، فقال زوج عمتى ، وقد لمعت عيناه : « إنها رافعة منجم الفحم » . ومرة قلت لفلو : « هذا قطيع من الأغنام ترقد على الأرض » ، وأضافت وهى تقول ؛ « ألاما أجملها ، انظر يا أبى ! » وأجاب أبوها يقول فى استنكار : « هذا أوز يا بنات » . وعندئذ سئمت فلو النظر ، وانصرفت إلى كتابها تقرأ فيه ، ورحت أنا أستمتع وحدى بالمناظر كلها فى صمت .

وحين وصلنا إلى لندن ، وجدنا السماء تمطر كعادتها ، ولم يكن فى إمكاننا أن نرى شيئاً لكثافة الضباب ، وقضينا بعض الوقت نحل حقائبنا ، ثم نزلنا إلى السوق تحت أمطار متقطعة لنشترى بعض الأشياء . ولاحظت عمتى أنى لم أستكمل ملابسى نظراً لسفرى المفاجىء ، فاشتريت قبعة بيضاء ، وريشة زرقاء ، وثوباً من الموسلين ، ووشاحاً غاية فى الجمال ، بل هو أجمل ما رأيت .

وزيارة المتاجر فى ريجنت ستريت متعة ما بعدها متعة ، والسلع زهيدة الأثمان ، فمثلا ياردة من الأشرطة الجميلة تساوى ستة بنسات فقط ، ولذلك اشتريت منها مجموعة كبيرة ، أما القفازات فأفضل أن أشتريها من باريز ، حال وصولنا إليها ، أليس هذا دليل الأناقة والثراء ؟ !

وانتهزنا فرصة خروج عمتى وزوجها لشراء بعض لوازمهما ، فاستأجرت أنا وفلو عربة جميلة ، خرجنا فيها للرياضة والتسلية ، ثم عرفنا فيما بعد أنه لا يليق بالفتيات الفاضلات أن يركبن العربات إلا مع الكبار . ولكنها كانت رحلة طريفة ، فما أن أقفل السائق علينا باب العربة ، حتى اندفع يجرى بنا فى سرعة كبيرة ، ذعرت لها فلو ، وطلبت منى أن أوقفه ، ولكنه كان يجلس على مقعده العالى وراء حاجز يفصله عنا ، ولم أجد سبيلا إليه وهو فى خارج العربة ونحن بداخلها . وصحت أناديه تارة وتارة أخرى أطرق بمظلتى على باب العربة ، فذهبت جهودى هباء ، ولم يسمع ندائى ولا ضرباتى ، وهكذا بطلت حيلنا ، والعربة تمرق بنا كالسهم ، وتدور

فى المنحنيات دوراناً مخيفا . وأخيراً شاهدت كوة فى السقف ، دفعتها بطرف المظلة فانفتحت ، فأطل علينا السائق بعينيه الحمراوين ، وسمعنا صوته المخمور يقول : « ماذا تريدين يا سيدتى ؟ » ، فأمليت عليه تعليماتى فى تؤدة وثبات على قدر الإمكان ، فأقفل الكوة وهو يقول : « سمعاً وطاعة يا سيدتى » . وراح يسوق الحصان ببطء شديد ، كأننا نسير فى جنازة . . فدفعت الكوة مرة أخرى ، وطلبت منه أن يسرع قليلا ، ولكن الرجل اندفع ثانية يعدو بسرعة جنونية ، وأمام ذلك لم نجد بدًّا من أن نخضع لقدرنا ، ونستسلم لحظنا .

الجو جميل اليوم ، وقد ذهبنا إلى حديقة هايدپارك متنزه الطبقة الراقية . إن الدوق ديفونشاير يسكن قريباً منا ، وكثيراً ما أرى خدمه الخصوصيين يجلسون عند البوابة الخلفية ، وبيت دوق ولنجتون ليس بعيداً عنا أيضاً ، والحقيقة أننا أكثر ارستقراطية مما نبدو . ورأيت فى هايدپارك أبدع المناظر وأجملها ، فهى خليط من الألوان والأشكال يُسلى أكثر من « القراقوز » : سيدات بدينات يذرعن الطريق فى عربات مطهمة لونها أحمر وأصفر ، ويقف خلفها حراس فى ملابس حريرية زاهية اللون ، ويقودها سائقون فى أحسن زينة . . . ومربيات رشيقات يرعين أطفالا لم أر لهم مثيلا فى الصحة والقوة . . . وفتيات جميلات يسرن فى تيه ودلال . . وفتيان متأنقون على رءوسهم قبعات إنجليزية غريبة الشكل . . وأطفال كالزهور . . . وجنود عمالقة يلبسون معاطف حمراء قصيرة ،

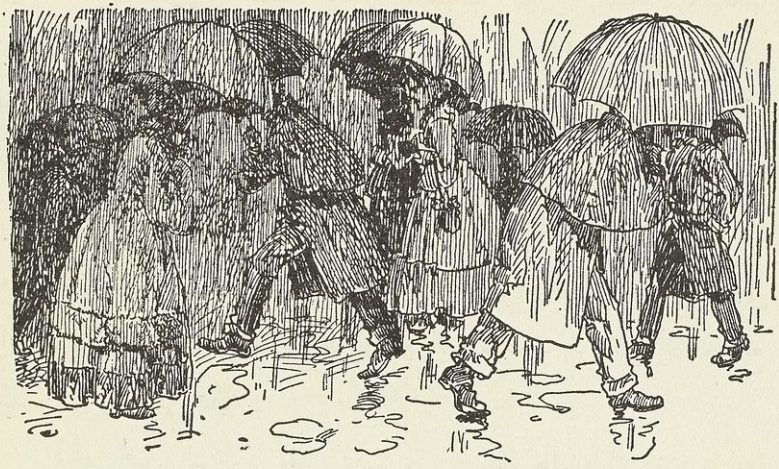

وقبعات مستديرة تميل على جانب من رءوسهم بشكل مضحك ، بودى لو استطعت أن أرسم صوراً تذكرنى بهم .

ذهبنا إلى مكان يدعى « روتن رو » — ومعناها طريق الملك — وهو بمثابة مدرسة للفروسية ، فيه خيول مطهمة ، ومدربون فى منتهى الرشاقة ، أما السيدان فيجلسن على ظهور الخيل متصلبات ، يهتززن بما لا يتفق وأصول الركوب عندنا . وكم بودى لو أمكننى أن أريهن كيف تكون الفروسية ، حتى لا يركبن خببا فى تعاظم وكبرياء ، وهن يلبسن الملابس القصيرة والقبعات العالية ، كأنهن التماثيل المزوقة . والركوب هنا رياضة يمارسها الناس جميعاً ، الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، السمان والنحاف . ويتبادل الشبان والشابات الغزل فى حلبة الركوب ، والعادة أن يضع كل

فرد وردة فى سترة الركوب ، وقد رأيت حبيبين يتبادلان الورود دليل الوفاء ، فأعجبتنى الفكرة كثيراً .

وذهبنا فى المساء إلى كنيسة « وستمنسر » ، ومن المستحيل على أن أصفها لكم ، ولذلك أكتفى بأن أقول إنها فخمة . وسأذهب الليلة لمشاهدة « فلتشر » ، وبذلك ينتهى أسعد يوم فى حياتى .

منتصف الليل :

رغم أن الوقت متأخر جداً ، فأنى لم أشأ أن أرسل خطابى فى الصباح دون ذكر ما حدث ليلة أمس . . تُرى هل فى إمكانكن أن تحزرن من جاء لزيارتنا ونحن نتناول الشاى؟ . . لقد جاء فريد وفرانك ثوهن أصدقاء لورى البريطانيون ، ولو لم أقرأ بطاقتهما ما عرفتهما ، فقد كبرا ، وأصبحا

ممشوق القامة . وكان فريد أنيقاً فى زيه الإنجليزى ، وفرانك لا يستعمل عكازا ، ولكنه يعرج قليلا . . وعرفت أن لورى أنبأهما بزيارتنا ، فجاءا يدعواننا إلى زيارتهما فى البيت . واعتذر زوج عمتى عن قبول الدعوة ، ولكنه سمح لنا برد الزيارة .

وذهبنا معهما إلى المسرح ، وسعدنا بوقتنا إلى أبعد حد ، وبينما كان فرانك يبذل اهتمامه وعنايته بفلو ، رحت أنا وفريد نتحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل ، كأننا أصدقاء العمر كله . أخبرى بث أن فرانك سأل عنها ، وأبدى أسفه الشديد لمرضها ، وحين تكلمنا عن چو ، ضحك فريد وطلب منى أن أبعث بتحياته واحتراماته إلى قبعتها الكبيرة ، ولم ينس أحدهما « معسكر لورنس » ، ومازالا يذكران تفاصيل النزهة الطيبة ، رغم مضى السنين .

إن عمتى تدق للمرة الثالثة على الجدار الذى يفصل حجرتنا ، لتنبهنى إلى وجوب النوم ، فيجب أن أتوقف الآن عن الكتابة . يخيل إلىّ ، وأنا أجلس فى هذه الساعة المتأخرة ، أننى واحدة من سيدات لندن الجميلات الثريات ، فقد امتلأت غرفتى بأجمل الهدايا ، وليس برأسى سوى أخبار المسارح والمنتزهات والملابس الجديدة ، والشبان الكرماء ، الذين يتأوهون من فرط الشوق ، ويعبثون بشواربهم الصفراء فى عظمة اللوردات الحقيقيين .

إنى مشوقة لرؤيتكم جميعاً ، وسأظل الأخت الوفية المحبة إلى الأبد ، رغم الهراء الذى امتلأت به هذه الصفحات .

باريس .

عزيزاتى

حدثتكن فى خطابى السابق عن أخبار لندن ، وكيف أكرم آل ڤوهن وفادتنا ، وأقاموا المآدب الشائقة لنا. وقد استمرت زياراتى لمعالم لندن ، فشاهدت لوحات روفائيل فى هامپتون كورت ، وتمتعت برؤية صور تيرنر ولورانس ورينولدز وهرجاردت وغيرها من بدائع الرسامين فى متحف كنزنجتون . وقضينا يوماً من أمتع الأيام فى ريتشموند پارك ، حيث شاهدت الغزلان فى أوضاع مختلفة ، ورسمتها جميعاً بقلمى ، كما أشجانى تغريد البلابل وزقزقة العصافير ، وهى تطير زرافات ووحدانا . والحق أننا رأينا فى لندن كل ما تشتهيه قلوبنا ، والفضل فى ذلك لفريد وفرانك ، فالإنجليز رغم بطئهم فى رفع الكلفة مع الناس ، قوم لا يسبقهم أحد فى الكرم وحسن الضيافة حين يأتلفون . وقد ذكر آل ڤوهن أنهم يأملون فى زيارة روما فى الشتاء القادم ، ورجائى أن تسعدنى الظروف بلقائهم هناك ، فقد ربطتنى بجريس أختهم صداقة متينة ، كما كان الفتيان — خصوصاً فريد — غاية فى اللطف والأدب .

وما كدنا نصل إلى باريس ، حتى لحق بنا فريد قائلا إنه جاء لقضاء عطلته ، وأنه فى طريقه إلى سويسرا . واستقبلته عمتى بشىء من الفتور أول الأمر ، ولكنه لم يأبه لذلك ، مما أسكت العمة فلم تقل شيئاً ، ثم سادت روح المودة بعد قليل ، واغتبطنا جميعاً بحضوره ، فهو يتقن الفرنسية

ويتكلمها كأبنائها . ولست أدرى ماذا كنا نفعل بدونه ، فزوج عمتى لا يعرف من الفرنسية أكثر من عشر كلمات ، ويصر دائماً على الحديث بالإنجليزية فى صوت عال لعلهم يفهمون ما يقول . . . وعمتى تتكلم الفرنسية بلهجة عتيقة لا يستعملها الناس فى الوقت الحاضر ، أما فلو وأنا ، فرغم ما كنا نظنه فى أنفسنا من معرفة وبراعة ، فقد اكتشفنا عند وصولنا باريس ، أن ذخيرتنا من الفرنسية لا تجدى فتيلا ، ولذلك حمدنا الظروف التى جمعتنا بفريد ، ليقوم عنا بمهمة الحديث والتفاهم .

وعلى أى حال ، نحن نقضى وقتاً بهيجاً ممتعاً ، ونشاهد طول اليوم أجمل المناظر وأهم المعالم ، ونتناول غذاءنا فى المقاهى المبهجة السارة ، حيث نلتقى بأقوام مختلفى المشارب ، ونصادف مغامرات غاية فى الغرابة . وفى الأيام الممطرة أقضى معظم وقتى فى متحف اللوفر ، أتأمل اللوحات الجميلة ، وروائع الفن الخالد ، وأقف أمام كل صورة من هذه الروائع أمتع قلبى وعينى بما يهذب ذوقى وفنى . أما فلو فلا تهتم بالفنون ، وتفضل عليها آثار العظماء ، وقد رأينا بالمتحف قبعة نابليون وصداره ، ومهد طفله ، وفرشاة أسنانه ، كما رأينا حذاء مارى انطوانيت ، وخاتم سان داينس وسيف شرلمان ، وغير ذلك من الأشياء الكثيرة الهامة ، التى لا يسمح الوقت بوصفها الآن ، ولكنى سأحدثكن عنها ساعات وساعات حين أعود إليكن .

أما « الياليه رويال » فقطعة من الجنة ، ففيه أفخر الجواهر وأندر

التحف ، وكاد يصيبى الجنون لعجزى عن شراء شىء منها ، وقد أراد فريد أن يشترى لى هدية ، ولكننى رفضت بالطبع . وغابة پولونيا والشانزليزيه آيتان فى العظمة ، وكان من حسن حظى أن شاهدت الأسرة المالكة عدة مرات : والإمبراطور قبيح الشكل قاسى المظهر ، والإمبراطورة شاحبة اللون جميلة ، ولكن ذوقها ردىء فى اختيار ملابسها ، إذ كانت ترتدى ثوباً أحمر قانيا ، وقبعة خضراء ، وقفازاً أصفر . أما الإمبراطور الصغير ففتى جميل لطيف ، يتحدث دائماً مع رائده ، الذى يرافقه فى عربة مطهمة يجرها جياد أربعة ، وبين آن وآخر يرسل القبلات بيده إلى الشعب الواقف على جانبى الطريق . وكان السائق يرتدى ثياباً مزركشة ، وفرسان الحرس يسيرون أمام العربة وخلفها .

إننا نتنزه عادة فى حدائق التوليرى ، ولكنى شخصياً أفضل حدائق لوكسمبورج . والمدافن هنا غريبة جداً ، والمقابر أشبه بالغرف الصغيرة ، فى كل منها مائدة عليها صورة الميت ، وحول المائدة مقاعد يجلس عليها المحزونون حين يأتون للذكرى والعزاء ، ألا تتمشى هذه العادة مع الموضات الفرنسية ؟ ؟

إن حجراتنا تطل على شارع ريڤولى ، ويمكننا من الشرفة أن نرى الشارع كله ممتداً أمامنا . ومن التسليات الحقة ، أن نقضى أمسياتنا فى الشرفة المطلة على الشارع ، نتناول الحديث الهادىء ، بعد متاعب اليوم وتنقلاته . إن فريد فتى مسل للغاية ، وهو — باستثناء لورى — أكثر

الشبان الذين عرفتهم لطفا ومجاملة . إنه وديع الخلق لطيف المعشر ؛ وكنت أفضل أن يكون أسمر البشرة ، لأنى لا أحب الرجال البيض . ولكن آل فوهن على كل حال قوم أثرياء ، وينحدرون من أصول عريقة فى المجد ، وشعرهم الأصفر لا يعيبهم ، لأن شعرى أنا شخصياً أشد صفرة من شعرهم .

سنسافر فى الأسبوع القادم إلى ألمانيا وسويسرا ، وستكون تنقلاتنا سريعة ، وقد لا أستطيع أن أكتب لكم إلا خطابات قصيرة عاجلة . إنى أكتب يومياتى وأحاول أن أضمنها كل ما يقع ، وأصف فيها ما رأيته وأعجبت به فى وضوح عملا بنصيحة أبى . . إن السفر تجربة طيبة ، وستكون رسومى أوضح من كتاباتى فى التعبير عن إحساساتى ومشاهداتى .

وإلى أن ألقاكم ثانية أضمكم جميعاً إلى صدرى فى حنان

صديقتكم

آمى

هيدلبرج :

أمى العزيزة

أنتهز هذه الساعة الهادئة ، التى أتيحت لى قبل السفر إلى برن ، لأكتب إليك أخبارى ، وبعضها مهم كما سترين .

كانت رحلتنا فى نهر الراين غاية فى الكمال والجمال ، حتى لتعجز أبلغ العبارات عن وصفها ، فعودى إلى ما لدينا من كتب السياحة واقرئى عنها . لقد قضينا وقتاً ساحراً فى كوبنتز ، وأسمعنا بعض أصدقاء فريد من

طلبة مدينة بون ، عزفاً بديعاً للسرينادا الجميلة . وكانت الليلة مقمرة ، وقد مضت على منتصف الليل ساعة ، حين استيقظت أنا وفلو على نغمات هذه الموسيقى ، وإذا بنا نرى فريد وأصدقاءه يعزفون ويغنون . ويالها من لحظة شاعرية بديعة ، لم يسبق لى أن حظيت بمثلها : الليل الساجى ، والنهر المنساب ، والقنطرة القديمة ، والمراكب السارية ، والحصن القديم يربض أمامنا على الشاطىء ، وضوء القمر يفيض على الكون جمالا ، وموسيقى ساحرة تلين أقسى القلوب وأشدها تحجرا ! !

ولما انتهوا من غنائهم رميناهم ببعض الزهور ، فهرعوا يلتقطونها ، وأرسلوا بأيديهم قبلات فى الهواء ، إلى أولئك السيدات المختفيات وراء الستر ، ثم انصرفوا ضاحكين ، وأعتقد أنهم ذهبوا يكملون سهرتهم فى مشرب البيرة القريب . وفى صباح اليوم التالى أرانى فريد زهرة احتفظ بها فى جيبه ، وكانت لهجة حديثه مفعمة بالعاطفة ، فضحكت منه وادعيت أن فلو هى التى ألقتها عليه ، عندئذ استاء وألقى الزهرة من النافذة ، ثم عاد إلى سابق عقله ورزانته . وكل ما أخشاه ، أن يجلب هذا الفتى المتاعب ، فالبوادر كلها تدل على ذلك .

وكانت بادن بادن وحمامات ناسو غاية فى المرح ، ولكن فريد خسر فيها بعض نقوده ، ولذلك عنفته وراجعته ، لأنه بحاجة إلى من يرعاه فى غياب أخيه فرانك . وأذكر بهذه المناسبة أن كيت أفصحت لى ذات مرة عن أملها أن يتزوج فريد سريعاً ، وقد وافقتها على رأيها ، لأن الخير

كل الخير فى زواجه .

وكانت فرانكفورت غاية فى الإمتاع ، وشاهدت فيها بيت « جوتيه » ، وتمثال « شيللر » ، وأريادن المشهورة « لدانيكار » . وأعتقد أنه لولا جهلى بقصة أريادن ، كنت استمتعت أكثر ، ولكنى كرهت أن أسأل واحداً عنها ، إذ كانوا جميعاً يعرفونها ، أو يتظاهرون بمعرفتها على الأقل . ليت چو حدثتنى عنها ، أو ليتنى توسعت فى القراءة لأزيد معلوماتى ، فقد كاد يقتلنى الشعور بالجهل .

وننتقل الآن إلى الأخبار الهامة التى وقعت حوادثها قبل رحيل فريد . كان فريد عطوفاً علينا ، مسلياً مرحا ، بحيث أحببناه جميعاً . والواقع أننى لم أكن أرى فيه سوى الصديق المخلص والرفيق الطيب ، حتى كانت ليلة السريناد . ومنذ تلك الليلة شعرت أن السير فى ضوء القمر ، والأحاديث الطويلة فى الشرفة ، والنزهات اليومية ، لا تنطوى على مجرد التسلية . وصدقينى يا أماه ، أنى لم أغازله ، لأنى ما زلت أذكر نصائحك وأعمل بها ، وقد بذلت كل جهدى فى البعد عن المتاعب ، ولكن ما ذنبى إذا كان الناس يتعلقون بى ويحبوننى ؟ إنى لا أفعل شيئاً من ناحيتى ، ولكنى لا أستطيع أن أخرج عن أصول الذوق ، والأدب ، فأهمل الناس . . . أعلم أن چو ستتهمنى بقسوة القلب ، وستهز والدتى رأسها أسفاً ، وتقول أخواتى : « تبا لهذه الفاجرة التعسة ! » ، ومع ذلك قررت أن أوافق على الزواج منه إذا طلب يدى . . . لست مجنونة بحبه ، ولكننا على وفاق

تام ، وهو شاب مجتهد وسيم ، يفوق آل لورنس ثراءً ، ولن يعترض أهله على زواجه منى ، لأنهم مثل أعلى فى الرفق والثقافة والأدب والعطف ، وكلهم يحبوننى . وسوف تكون المزرعة من نصيب فريد باعتباره أكبر التوأمين ، وهى مزرعة عظيمة ضخمة . وللعائلة بيت كبير فى المدينة ، قد يكون خالياً من مظاهر الفخامة والعظمة ، ولكنه كامل فى أسباب الراحة والاستعداد ، وأنا أحب هذا الضرب من الترف الإنجليزى الحقيقى. وقد شاهدت أطقم الموائد الفاخرة التى يملكونها ، ومجوهرات الأسرة ، والخدم القدامى الذين تربوا فى الأسرة ، وصور المناظر الريفية ، كما رأيت الحدائق الكبيرة ، والملاعب الجميلة ، والمنازل الفخمة ، والخيول المطهمة . وهذا أقصى ما أتمناه ، ورأيى أنه خير من الألقاب الخالية من الثراء ، وقد تكون نظرتى إلى الحياة مادية تجارية ، ولكنى أكره الفقر ، وليس فى نيتى أن أحتمله طويلا .

يجب أن تتزوج إحدانا رجلا موسرا ، ولما كانت ميج لم تحقق هذا ، وچو لا تريده ، وبث لا تستطيع الزواج الآن ، فعلى أنا أن أحقق الترف ، وأجعل الحياة من حولى جميلة مبهجة ، كونى على ثقة بأن المال لن يغرينى بالزواج ممن أكره أو أحتقر ، وقد لا يكون فريد بطل أحلامى ، إلا أنه رجل لابأس به ، وسوف أروض نفسى على حبه ، ما دام مولعاً بى كريماً فى معاملتى . هذا ما كنت أفكر فيه طوال الأسبوع الماضى ، ولم يكن فى مقدورى أن أرى فريد يتعذب فى حبى . . . حقيقة أنه لم يصرح

بعواطفه ، ولكن الشواهد كلها كانت تدل على ذلك ، فهو لم يخرج مرة واحدة مع فلو ، وكان يجلس فى العربة أو على المائدة بجانبى ، يسير بجوارى أينما ذهبت ، وتغلبه العاطفة حين ينفرد بى ، كما كان يتملكه الغضب حين يرى أحداً يتحدث إلىّ . وبالأمس فقط كنا نجلس إلى مائدة الطعام ، وكان بالمطعم ضابط نمساوى ، ظل يحدق فى وجهى ثم قال لصديقه بالألمانية : « يا لها من فتاة شقراء جميلة ! » ، وما أن سمع فريد هذه العبارة ، حتى زمجر كالأسد ، وراح يقطع اللحم بوحشية أطارته من صحنه . وهو ليس بارداً كبقية الإنجليز ، وفى طبعه حدة شديدة ، ترجع إلى الدم الأسكتلندى الذى يجرى فى عروقه .

وصعدنا إلى القلعة القديمة عند غروب الشمس ، ولم يكن فريد معنا ، ولكنه وعد باللحاق بنا بعد أن يذهب إلى مكتب البريد ليسأل عن رسائله . وأمضينا وقتا طيبا ونحن نطوف بالخرائب وأقبية الخمور المعتقة ، وقد أعجبت بالشرفة الفخمة ومناظرها الساحرة ، ولذلك آثرت أن أجلس فيها حتى يعود الآخرون من زياراتهم الداخلية . ورحت أقطع الوقت بالرسم ، وحاولت أن أنقل صورة رأس تمثال الأسد البارز على الحائط ، ومن حوله الأغصان الحمراء المتدلية . وأحسست وأنا أجلس أمام الوادى البعيد ، أستمع إلى أنغام الموسيقى ، التى تعزفها الفرقة النمساوية أسفل الشرفة ، أننى بطلة قصة غرامية ، وأنى أتطلع إلى الأفق فى انتظار مقدم الحبيب . وكان قلبى يحدثنى بقرب حدوث شىء فى تلك اللحظة ، وأننى

على استعداد له ، ولم أشعر بالخجل أو الاضطراب ، بل كنت على العكس غاية فى الهدوء والثبات ، اللهم إلا قليلاً من الانفعال .

وبعد قليل سمعت صوت فريد من بعيد ، ولم يلبث أن دخل مسرعاً يبحث عنى بلهفة ، وكان الاضطراب بادياً عليه إلى درجة نسيت معها نفسى فسألته : « ماذا حدث ؟ » ، فقال إنه تلقى خطاباً من أهله يستدعونه فيه إلى لندن على عجل ، لأن فرنك مريض جدا ، وقال أيضاً أنه ينوى العودة فى قطار الليل ، وليس عنده من الوقت إلا بقدر ما يودعنا .

وشعرت بالأسف لأجله ، وأحسست بخيبة الأمل ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة قصيرة ، إذ قال لى وهو يشد على يدى بطريقة لا يمكن أن أخطىء معناها :

ــ سأعود سريعاً ، وأرجو ألا تنسينى يا آمى !

ولم أعده بشىء ، واكتفيت بالنظر إليه ، ولكنه بدا راضياً بذلك ، وفى الواقع لم يكن لديه متسع لأكثر من تحية الوداع ، لأنه كان مسافراً بعد ساعة . وفى الحقيقة إننا جميعاً افتقدناه بعد سفره .

لا شك أنه كان يريد أن يفاتحنى فى الزواج . . . ولكنه ارتأى أن يؤجل ذلك لسبب لا أعرفه ، وقد يكون راغباً فى استشارة أبيه ، فقد حدثنى ذات مرة أن أباه يخاف عليه من الزواج بأجنبية ، ولذلك أخذ منه وعداً بأن لا يفعل شيئاً دون تفكير وروية . . ربما يكون هذا ، أو أمر آخر . . على كل حال سوف نتقابل فى روما بعد وقت قصير ، فأوافق

على الزواج منه إذا طلب ذلك ، هذا طبعاً إذا لم أكن قد غيرت فكرى .

وعلى كل حال إن المسألة كلها سر إلى الآن ، ولكنى أردت أن أحيطك علماً بكل ما يدور هنا . أرجو أن لا تقلقى من ناحيتى ، واذكرى دائماً أننى ابنتك آمى العاقلة الحكيمة ، وثقى بأننى لن أقدم على عمل طائش ، وابعثى إلىّ ما تريدين من النصائح ، وأعدك بأن أعمل بها ما استطعت . وددت لو استطعت أن أتحدث إليك طويلا يا أماه .

لك محبتى وثقتى .

ابنتك دائماً

آمى

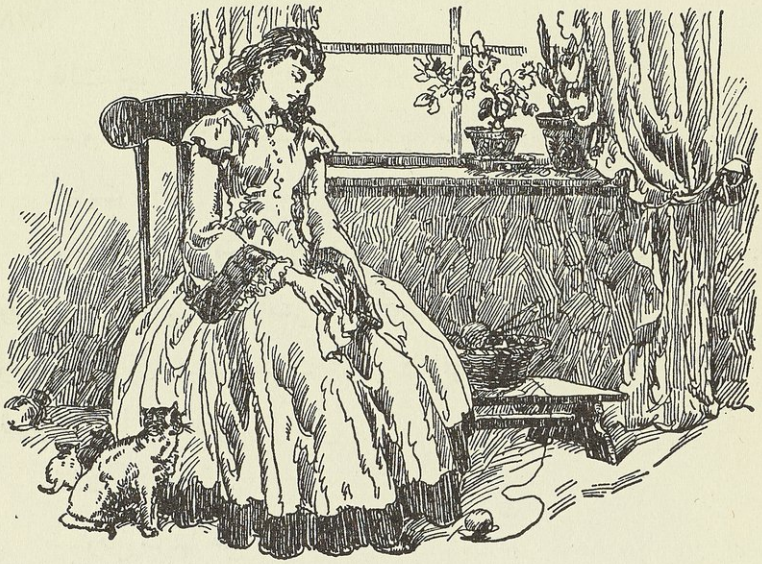

الفصل الثانى والثلاثون

متاعب رقيقة

قالت مسز مارش :

— چو ، إن حالة بث تقلقنى .

قالت چو :

— ولماذا يا أماه ؟ إنها تبدو بخير على غير عادتها .

قالت :

— ليست صحتها التى تقلقنى بل نفسيتها . أنا على يقين أن أمراً ما يشغل عقلها ، وأريدك أن تكشفى عما يدور بخلدها .

قالت چو :

ــ وماذا يدعوك إلى هذا الاعتقاد يا أماه ؟

أجابت :

ــ إنها تجلس وحيدة وقتاً طويلا ، ولا تتحدث إلى أبيها كالمعتاد ، وقد وجدتها تبكى أول أمس ، وأسمعها ترنم دائماً بالأغانى الحزينة ، وأحياناً أرى فى عينيها نظرات عميقة لا أفهمها . هذه ليست بث التى نعرفها ، وحالتها تقلقنى وتزعجنى .

قالت چو :

ــ وهل سألتها عن ذلك ؟

قالت :

ــ حاولت ذلك مرة أو مرتين ، ولكنها كانت تتحاشى الإجابة ، أو تنظر إلى بحزن يجعلنى أكف عن الحديث . وأنت تعلمين أننى لا أضطر أولادى إلى الثقة بى ، ورغم ذلك سرعان ما أنالها .

وكانت مسز مارش وهى تتكلم ، تحقق النظر فى وجه چو ، كأنها تبحث فيه عن الخبر اليقين ، وكان من الواضح أيضاً أن ابنتها لا تعرف السر فى متاعب أختها بث . وبعد تأمل قليل قالت چو :

أعتقد أن بث تنمو وتكبر ، وفى هذه الفترة من عمرها تكثر الأحلام والآمال ، وتتوالى المخاوف والاضطرابات التى لا تعرف لها سبباً ولا تجد تفسيرا . لست أرى سبباً يدعوك إلى القلق يا أماه ، فأختى بث فى

الثامنة عشرة من عمرها ، ولكننا لا نعتقد ذلك ، وما زلنا نعاملها كطفلة ، ناسين أنها أصبحت امرأة .

وتنهدت أمها مبتسمة ، وقالت :

— صدقت يا عزيزتى ، إنها بلغت الثامنة عشرة حقاً . ما أسرع ما يمضى الزمن ؟ !

قالت چو :

— لاحيلة لنا فى ذلك ، وعليك أن تتقبلى مختلف أحكام الحياة ، وتتركى طيورك تطير وتخرج من عشها واحدة بعد الأخرى . . . وأعدك ألا أطير بعيداً ، إذا كنت ترتاحين إلى قربى .

قالت :

— بل أرتاح كل الراحة ، فإنى أشعر بالقوة وأنت بجانبى ، ولا أجد لى معيناً غيرك ، فميج قدذهبت ، وبث غاية فى الضعف ، وآمى لا تزال صغيرة لا يمكن الاعتماد عليها ، وأنت وحدك التى تصمدين للشدائد .

قالت چو :

— خلّى عنك يا أماه ، فالأعمال الشاقة لا تقهرنى ، وأنا لا أشعر بوطأة العبء حين تحتاج سجاجيد البيت إلى التنظيف ، أو حين يمرض نصف أفراد الأسرة فجأة . ولا بد للأسرة من فرد يتحمل المسئوليات الصغيرة ، وبما أن آمى — على العكس — موهوبة فى الفنون ، وهى تدرس الآن فى الخارج ، فثقى بأننى سأكون دائماً طوع أمرك فيما تريدين .

قالت الأم :

ـ إذاً سأترك لك رعاية بث . فما من مخلوق غير چو يستطيع أن يطرق أبواب قلبها ، ويكشف عن متاعبها ، لأنها تحبك وتثق بك ، فكوني بها رفيقة ، ولا تدعيها تحس بأننا نراقبها ، أو نتحدث عنها ، أملى الوحيد أن تستعيد قوتها وبشاشتها ، ولن يبقى لى شىء أطلبه فى الحياة إذا تحقق ذلك .

فقالت چو :

ـ إذا كان هذا كل ما تتمنين ، فأنت امرأة سعيدة ، أما أنا فآمالى لا تقف عند حد .

سألتها :

ـ وما هى آمالك يا عزيزتى ؟

قالت :

ـ سأبدأ بتسوية متاعب بث ، ثم أحدثك عن نفسى . . . إن متاعبى لا تثقل كاهلى ، ولن يضيرنى أن أنتظر عليها .

وانطلقت چو مسرعة ، وفى عينيها نظرة تفيض بالحكمة ، فارتاح قلب أمها من ناحيتها ، فى الوقت الحاضر على الأقل .

وراحت چو ترقب بث عن كثب ، وهى تتظاهر بأنها مشغولة بشئونها الخاصة . واستطاعت بعد كثير من التقديرات والاستنتاجات والفروض المتضاربة ، أن تستقر على رأى واحد فيما يحزن أختها . وكان

مفتاح السر حادثة صغيرة ، شاهدتها جو ... وساعدها خيالها الخصيب ، وقلبها الفياض بالمحبة ، على الوصول إلى النتيجة ، كان ذلك فى يوم من أيام السبت ، وكانت تتظاهر بالانهماك فى الكتابة ، وترقب أختها بعينيها خفية ، وكانت بث هادئة على غير العادة ، تجلس إلى النافذة ، لتمتع النظر بجمال الخريف فى الوادى ، وكان التطريز يسقط من يدها بين وقت وآخر إلى حجرها ، فتسند رأسها إلى يدها ، وتتوه فى بيداء الحزن الصامت . وفجأة مر شخص تحت النافذة ، وهو يصفر نغمة موسيقية من أنغام الأوبرا ، وعلا صوت يقول : « كل شىء هادئ ! وسآتى الليلة » ، وانتفضت بث ، ومالت إلى الأمام تومئ برأسها باسمة . وظلت ترقب عابر السبيل حتى اختفى وقع أقدامه السريعة ، ثم قالت فى حنان ، كأنها تناجى نفسها : « ما أقوى هذا الفتى العزيز ، وما أسعده ! »

وتنفست چو الصعداء ، ومضت فى مراقبة أختها ، فرأت أن التورد الذى طغى على وجهها فجأة ، لم يلبث أن انحسر عن امتقاع شديد ، كما اختفت البسمة من شفتيها ، وتدحرجت على زجاج النافذة دمعة من عينيها . سارعت بث إلى الدمعة تمسحها بكفها ، وهى تنظر بقلق إلى چو ، ولكن الفتاة الحكيمة تظاهرت بالكتابة ، وبدت كأنها غارقة إلى أذنيها فى قصتها الجديدة « عهد أوليمپيا » . وما أن استدارت بث ، حتى عادت چو إلى مراقبتها ، فرأتها تمسح دموعها بكفيها أكثر من مرة ، وقرأت فى صفحة وجهها ألماً مضنياً تطوى عليه جوانحها . وأغرورقت

عينا چو شفقة على أختها ، وخافت أن تنساب الدموع على خديها فتفضح سرها ، لذلك سارعت بالخروج من الغرفة ، وهى تتمتم بما ينم عن حاجتها إلى مزيد من ورق الكتابة .

وجلست چو فى غرفتها تقول : « رحمتك يا إلهى ! أن بث تحب لورى ! » ، وصمتت شاردة الذهن ، وقد امتقع وجهها لوقع الاكتشاف الذى ظنت أنها وصلت إليه . قالت تحدث نفسها : « ما دار بخلدى شىء من هذا . . . ترى ماذا تقول آمى ؟ إنى لأتساءل إذاً . . . » ، وتوقفت هنيهة ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية ، حين لاحت لخيالها فكرة مفاجئة : « وإذا لم يكن لورى يبادلها هذا الحب ! ؟ . . وكم يكون الموقف قاسياً عندئذ . . ولكن لا . . لابد أن يحبها ، وسأحمله على ذلك ! » . وهزت رأسها مهددة نحو صورة لورى المعلقة على الحائط . . قالت لنفسها : « آه من هذا . . إننا نكبر ، وكلما اكتمل نمونا ، توفرت عوامل فراقنا . . فميج قد تزوجت وصارت أما . . . وآمى رحلت إلى باريس وهى غارقة فى نشوتها هناك . . ، وها هى ذى بث تقع فى شراك الحب ، ولم يبق إلا أنا ، وأحمد الله أنى استطعت التخلص من هذه الحبائل المؤذية .

ومضت چو فى تفكيرها ، ونظراتها مسمرة على صورة لورى ، ثم لم تلبث أن مسحت جبينها بيدها ، كأنها تزيح الهموم عن رأسها ، ثم قالت وهى تومئ لوجه لورى بعزم : « لا يا سيدى ، شكراً لك ! لست أنكر أن شخصيتك جذابة ، ولكنك كدوارة الرياح لا تستقر على حال ،

ولا هم لك إلا كتابة الرسائل الغرامية ، والابتسام بهذه الطريقة الإيحائية ، ولكنى أؤكد لك أن هذا لا يرضينى ، ولن أتقبله بأى حال من الأحوال » . وندت عن قلبها آهة عميقة ، وسرح فكرها فى تأملات لم تصحُ منها إلا بعد أن نشر الغسق أجنحته على الكون ، فنزلت من حجرتها تراقب بث من جديد ، وتجمع الملاحظات التى تؤكد شكوكها واستنتاجاتها . على أن لورى ، وإن كان يغازل آمى ، ويضحك مع چو ، فإن سلوكه مع بث كان دائماً غاية فى الرقة والحنان ، شأنه فى ذلك شأن أهلها وأصدقائها ومعارفها ، ولذلك لم يفكر أحد فى احتمال اهتمامه بها أكثر من الأخريات . بل إن أفراد الأسرة كانوا يشعرون أنه يزداد كل يوم غراما بچو ، ولكن الفتاة لم تكن ترضى بمثل هذا الحديث ، وتشتد فى تعنيف من يوحى إليها بهذه الفكرة . ولو أنهم علموا بالرسائل الرقيقة ، التى بعث بها إليها فى العام الماضى ، والمحاولات اللطيفة التى كان يبذلها للتعبير عن عواطفه ، تلك المحاولات التى قضت عليها چو فى مهدها ، لأحسوا بالرضا البالغ ، وقالوا : « ألم نقل ذلك ونتنبأ به ؟ ولكن چو كانت تكره الغزل ولا تسمح به ، وحين ترى الأمور تتطور إلى العاطفيات ، تنهى الموقف بنكتة بارعة أو بسمة لطيفة .

وكان لورى قد بدأ تجاربه فى الحب والغزل عند أول ذهابه إلى الكلية ، فكان يقع فى الغرام مرة فى الشهر على الأقل ، وكان متقلباً لا يصبر طويلا على حب واحد ، لذلك مضت تجاربه فى سلام ، ولم

تنتج عنها أضرار . وكانت أنباء هذه الغراميات تسلى چو ، وكانت تقلباته بين اليأس والسرور والاستسلام ، تثير اهتمامها ، وكان الفتى يسر إليها فى اجتماعهما الأسبوعى ، بكل ما يصادفه فى حياته من حوادث ومغامرات. ومرت على لورى فترة من الزمن كف فيها عن التعبد فى أكثر من محراب ، وأشار فى خفاء إلى حب واحد يملأ عليه حواسه ، وكانت تنتابه فى بعض الأحيان أزمات نفسية ، تسيطر فيها عليه الكآبة والوجوم . ومرت فترة أخرى تحاشى فيها لورى الإشارة إلى هذا الموضوع ، وبدأ يكتب إلى چو رسائل فلسفية ، وعكف على العمل مجدًّا ، وأعلن عن عزمه على الفوز بمرتبة الشرف فى امتحان التخرج . وصادف هذا السلوك هوى فى نفس الفتاة ، التى كانت تفضل الاتجاهات الجدية ، على الجلسات العاطفية ، واللمسات الرقيقة ، ونظرات الجوى والهيام . وكان السر فى ذلك أن عقل چو سبق قلبها فى النمو ، فكانت تفضل أبطال الخيال على أبطال الحقيقة ، لأنها حين تسأم أبطالها الخياليين ، تودعهم خزانتها ، وتغلق دونهم الأقفال ؛ أما الأبطال الحقيقيون ، فلم يكن من سبيل إلى تكييفهم حسب إرادتها .

كانت الأمور تجرى على هذا النسق ، حتى وصلت چو إلى اكتشافها العظيم ، فراحت تراقب لورى فى تلك الليلة ، كما لم تراقبه من قبل . ولو كانت خالية الذهن ، ما رأت شذوذاً فى صمت بث وهدوئها ، ولا فى ترفق لورى وحنانه عليها ، ولكنها كانت قد أطلقت لخيالها العنان ، وسارت وراءه شوطاً بعيدا ، فهربت حكمتها أمام شطحات الخيال ، الذى أرهفته

فيها كثرة تأليف القصص . وكانت بث ترقد كعادتها على الأريكة ، ولورى بجانبها يسليها ويجاذبها أطراف الحديث ، ويقص عليها أخبار مغامراته الأسبوعية ، التى تعود أن يتحفها بها كلما أتى لزيارتها . ولكن خيل لچو فى تلك الليلة أن عينى بث مستقرتان على وجه لورى فى سرور بالغ ، وأنها تستمع فى شغف زائد إلى أخبار مباراة الكريكيت الأخيرة ، وتصورت أيضاً — بعد أن تجسم الوهم حتى صار كأنه حقيقة — أن لورى ازداد رقة فى سلوكه مع بث ، وأنه يخفض من صوته إلى حد الهمس أحيانا ، كما لم يعد يستمرئ الضحك والهذر ، وبدا شارد الذهن مشتت الفكر ، وحين وضع الغطاء على قدمى بث ، فعل ذلك باهتمام ينم عن حنان شديد .

وعندما أوت إلى غرفتها ، راحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهى تقول لنفسها : « من يدرى ؟ ربما حدث ما نتمناه ، وفى مقدور بث إذا تحابا أن تجعل منه ملكاً طاهرا ، وفى مقدوره أيضاً أن يجعل حياة هذه الصغيرة العزيزة هنيئة سارة . ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ . . سيحبها إذا خلا البيت منا ، ولم يبق فى طريقه إلاها . »

وكان الطريق قد خلا من الأخريات ، ولم يبق فيه سواها ، ولذلك بدأت چو تشعر بضرورة انسحابها من الميدان سريعاً ، ولكن إلى أين تذهب ؟ وجلست تفكر فى سبيل إلى الخلاص ، وكلها رغبة فى التضحية على مذبح الإخلاص الأخوى .

جلست چو على الأريكة الكبيرة تبحث عن حل لمشكلاتها، وكانت هذه الأريكة عتيقة طويلة عريضة ، محشوة منخفضة ، ولونها لتقادم العهد باهت جداً ، ولا غرابة فقد كانت ملجأ الأطفال ، ومنام البنات ، وكن يلعبن عليها فى أيام الصغر ، فيمتطين مسنديها ويختبئن وراءها ، ويزحفن كالقطط من تحتها إلى فوقها . ثم كبرن فكن يستلقين عليها طلباً للراحة ، ويستمتعن فوقها بأحلام اليقظة ، ويصغين إلى عبارات الغزل . وكانت چو تؤثر جانباً من الأريكة ، فتتخذ منه ملاذاً تركن إليه طلباً للراحة والهدوء ، وكان لها بين الوسائد الكبيرة وسادة خشنة مستديرة محشوة بشعر الخيل ، وأطرافها مزينة بأزرار مدببة . وكانت هذه الوسادة ملكاً خاصاً لچو ، تستخدمها سلاحاً للدفاع ، وحصناً من الهجوم ، ووقاية من الاستغراق فى النوم .

وكان لورى يعرف هذه الوسادة حق المعرفة ، ويمقتها أشد المقت ، لكثرة ما نال من أذاها فى الأيام الخوالى ، ولأنها الآن تحول بينه وبين الجلوس مع چو فى ركن الأريكة . وكان لـ «قطعة السجق» — كما اختاروا أن يسموا الوسادة — لغة معروفة : فإذا وضعتها جو قائمة على طرفها ، فهو إذن بالجلوس معها ، أما إذا سطحتها على الأريكة ، فالويل لمن يقترب منها رجلا كان أو امرأة أو طفلا . وفى تلك الليلة نسيت چو أن تحصن ركنها بالوسادة ، ولذلك لم تمض خمس دقائق ، حتى أحست بجسم ضخم يجلس بجانبها ، وقد بسط ذراعيه على ظهر الأريكة ، ومد

ساقيه أمامها ، وصاح لوري يقول فى نشوة الرضا :

— هذه جلسة مريحة لها قيمتها .

وامتعضت چو ، وقالت :

— دعك من هذه العبارات .

ثم بدأت تجر وسادتها الخشنة المعهودة ، وتدسها بينها وبينه ، ولكن هذه المحاولة جاءت بعد فوات الأوان ، إذ سقطت الوسادة على الأرض ، واختفت بطريقة غريبة .

قال لورى :

— دعك من هذه الخشونة يا چو ، فقد حطمنى الإجهاد والاستذكار ومن حقى أن أنال بعض التدليل ، ولا بد أن أناله .

قالت :

— إنى مشغولة ، وهناك بث فاذهب إليها تدلّلك .

قال :

— لا ، يجب ألا نشغل بث بهذه الأمور ، خصوصاً أنك تحبين هذا النوع من التدليل ، إلا إذا كنت فقدت الرغبة فيه ، فهل هذا صحيح ؟ وهل أصبحت تكرهين صديقك ، وتتمنين ضربه بالوسائد ؟

وكان استعطافاً مؤثرا ، لم تسمع چو مثله من قبل ، ولكنها اختارت أن تصد فتاها بسؤال محرج ، فقالت :

— كم أرسلت من باقات الزهور إلى مس راندل هذا الأسبوع ؟

قال :

ـ ولا واحدة ، أقسم لك أنها مخطوبة الآن .

قالت :

ـ يسرنى أن أسمع ذلك ، فالورد مضيعة للمال ، وأنت ترسل الأزهار والهدايا إلى البنات اعتباطا ، حتى اللاتى لا يهمك أمرهن مثقال ذرة .

قال :

ـ إن البنات العاقلات اللاتى يهمنى أمرهن كثيراً ، لا يسمحن لى بإرسال الزهور والهدايا ، فماذا أفعل وعواطفى لا تجد منفذا ؟

قالت :

ـ إن والدتى لا تقر الغزل ولو على سبيل التسلية ، وأنت تغازل بغير حساب يا تيدى .

قال :

ـ إنى مستعد للتضحية بكل شىء إذا أجبتنى بالمثل ، ولكن ما دمت عاجزاً عن إقناعك بذلك ، فيكفى أن أقول إننى لا أجد ضرراً فى هذا المزاح البرىء المسلى ، وكلهم يدرك أنه تمثيل .

قالت :

ـ يبدو أن الغزل حقيقة مسلّ ، ولكنى لم أنجح فى ترويض نفسى على استساغته ، ولقد حاولت كثيراً ، لأن انطوائى يخرجنى عن المألوف ، وليس أبعث على الحرج والضيق من عجزنا عن مجاراة غيرنا . يبدو أننى لن

أتقدم فى هذا المضمار كثيراً .

قال :

— خذى درساً من آمى ، فهى قديرة فى هذه المسائل ، ولها خبرة واسعة بها .

قالت :

— نعم ، وهى تصرف الأمور ببراعة ، ولكنها تذهب فيها إلى حد الإسراف ، وبعض الناس قادرون بطبعهم على استيعاب المرح والسرور دون جهد ومشقة ، وغيرهم يسيئون التصرف ، فيخطئون فى تقدير الوقت المناسب والمكان الملائم .

قال :

— يسرنى جهلك بالغزل ياجو ، فليس أدعى الى الإعجاب من فتاة رزينة تعرف كيف تمرح وتضحك ، دون أن تعرض نفسها للسخرية. أصارحك القول يا چو بأنى أعرف فتيات يسرفن فى الغزل إلى حد مخجل ، والحقيقة أنهن لا يبغين شراً من وراء ذلك ، ولكننا نسخر بهن بعد انصرافهن ، ولو عرفن ما يقوله الشباب عنهن ، ما اخترن إلا مسلكا آخر .

قالت :

— وهن أيضاً يسخرن بكم خلف ظهوركم ، مثلما تفعلون تماما ، ولما كانت ألسنة النساء أقسى من ألسنتكم ، فأنتم الخاسرون ، لأنكم تتصرفون بنفس الغباء الذى يتصرفن به ، فتنالون أكثر مما ينلن . لو أنكم

أحسنتم سلوككم، لاقتدينا بكم، ولكنكم تميلون إلى هذا العبث وتطلبونه، فإذا أرضينكم به، تعودون عليهن باللائمة.

قال لورى مترفعا:

ـ أنت لا تعرفين كثيراً فى هذا الموضوع يا سيدتى، ونحن لا نحب الغزل والمجون، وإن تظاهرنا بذلك أحياناً. والفتيات الجميلات المتواضعات لا يذكرن فى أوساط الرجال إلا بمنتهى التجلة والاحترام، فليحفظ الله عليك براءتك. وددت لو أخذت مكانى شهرا، لترى ما يدهشك، وأقسم لك أننى كلما رأيت واحدة من أولئك الطائشات، شعرت برغبة فى أن أقول لها ما يقولها صديقنا «كوك روبين»: «سحقاً لك أيتها الصفيقة المتبرجة».

وضحكت چو من الصراع الذى يدور فى نفس لورى، بين عزوفه عن ذكر النساء بسوء بدافع من رجولته وشهامته، وبين نفوره الشديد من مظاهر العبث التى اتسمت بها الطبقات الراقية. وكانت تعرف أن لورى محط أنظار الأمهات، وكل منهن تتطلع إليه زوجاً لابنتها، ولذلك كان يلقى العطف من النساء أينما حل أو ذهب: فالكبيرات يتقربن إليه ويمتدحنه، والصغيرات يبتسمن إليه ويغازلنه، فيزدنه غروراً على غرور. وكانت چو ترقبه فى غيرة خشية أن يفسده التدليل، وقد سرها غاية السرور، أن تجده لا يزال مؤمناً فى قرارة نفسه بالفتيات المهذبات المتواضعات.

وفجأة عادت إلى لهجتها الجافة، وقالت له بصوت خفيض:

ـ إذا كنت حقاً لا تجد متنفساً لعواطفك يا تيدى ، فاذهب إلى واحدة من أولئك الجميلات المتواضعات ، وكرس قلبك لها ، ولا تضيع وقتك عبثاً فى الحماقات .

قال وهو ينعم النظر فى وجهها ، وفى نفسه مزيج من الغبطة والقلق :

ـ أتنصحين بذلك حقاً ؟ قالت :

ـ نعم ، ومن الخير أن تتأنى حتى تنتهى من دراستك الجامعة ، وتفرغ لإعداد نفسك لهذه المهمة ، فلست الآن أهلا لتلك الفتاة المتواضعة أياً كانت .

قال يصدق على كلامها ، وفى وجهه آيات الخضوع والاستسلام ، التى لم تعهدها فيه من قبل :

ـ نعم . . لست أهلا لها بعد .

ثم خفض بصره إلى الأرض ، وشرد ذهنه فى عالم من التفكير ، ودون أن يشعر أمسك بزر مرولة چو ، وراح يلفه على أصبعه :

قالت چو تحدث نفسها : « رحمتك يا إلهى هذا لا يجدى ! » ، ثم قالت بصوت مرتفع :

ـ قم وأسمعنى أغنية ، فإنى متعطشة إلى الموسيقى ، وعزفك محبب إلىّ .

قال :

ـ أفضل أن أبقى فى مكانى . . مع الشكر . قالت :

ـ حسنا ، ولكن المكان لا يتسع لنا ، ولن نستطيع البقاء هنا طويلا .

قم واعمل عملا نافعا ما دام جسمك أضخم من أن يصلح للزينة ، وأنا أعرف كم تكره أن تربط نفسك بأذيال مرولة امرأة !

قال وهو يشد على خيوط المرولة بجرأة :

ـ هذا يتوقف على من تكون صاحبة المرولة ؟

أجابت وهى تسحب الوسادة :

ـ قلت لك اذهب . . .

وعندما رآها لورى تشهر عليه وسادتها ، فر من أمامها بسرعة ، فظلت ممسكة بسلاحها ، حتى اختفى الفتى عن ناظريها .

شعرت چو بالأرق فى هذه الليلة ، وسهرت طويلا ، وحين كاد النوم يغلبها ، سمعت آهة مكبوتة تنطلق من سرير بث ، فأسرعت إلى فراش أختها تسألها فى قلق :

ـ ماذا بك يا حبيبتى ؟

قالت بث وهى تنشج :

ـ ظننتك نائمة يا چو . سألتها :

ـ أهو الألم القديم يعاودك يا بث ؟

قالت وهى تغالب عبراتها :

ـ لا ، بل ألم جديد لا أستطيع احتماله . قالت چو :

ـ حدثينى به ، ودعينى أعالجه لك ، كما كنت أعالج ألمك القديم .

وغالبت بث بكاءها ، واحتبس صوتها وهى تقول :

– لن تستطيعى علاجه ، إذ لا علاج له !

وأمسكت بأختها ، وهى تبكى فى يأس مرير ، ارتعبت له چو ، وامتلأ قلبها خوفاً على أختها . سألتها چو :

– وأين هذا الألم يا بث ؟ أأنادى أمى لترى ما بك ؟

ولم تجب بث ، ولكنها وضعت يدها على قلبها بحركة لا إرادية ، كأنما تشير إلى أن الألم موطنه القلب ، وشدت بيدها الأخرى على أختها تضمها إلى صدرها ، وهى تهمس فى أذنها قائلة :

ــ لا . . لا ، لا تنادى أمى ، سأتحسن حالا ؛ ارقدى بجانبى ، وسوف أهدأ بعد قليل ، وأستسلم للنوم . . . سأنام حتما . . .

وأطاعت چو ، ولكنها ظلت طول الوقت تتحسس رأس أختها المحمومة ، وعينيها المبللتين بالدموع ، وكان قلبها مفعماً بالعطف والأسى ، ورغبتها شديدة فى معرفة ما بها ، ولكنها كانت تدرك على حداثة سنها ، أن القلوب كالزهر لا تفتح بالقوة ، بل يجب أن تترك ، حتى تتفتح من تلقاء نفسها . وكانت تظن أنها تعرف السر ، ومع ذلك لم تشر إليه ، ولم تنطق إلا بكلمات قليلة تفيض عذوبة وحنانا . قالت :

ــ أهناك ما يحزنك يا عزيزتى ؟

أجابت بث بعد سكوت طويل :

ــ نعم يا چو . قالت :

ــ ألا تقولين شيئاً فتخففى عن نفسك ؟

أجابت :

ــ لا . . ليس الآن ، فلم يحن الوقت بعد . قالت چو :

ــ إذاً لن أسألك ، ولكن تذكرى يا بث أنه يسرنا دائماً ، أنا ووالدتى ، أن نسمع شكواك ، ونساعدك إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا .

قالت :

ـ أعرف ذلك ، وسأحدثك بكل شيء ، ولكن ليس الآن .

قالت :

ـ وهل تشعرين بتحسن الآن ؟ قالت :

ـ أشعر أنى أحسن حالا ، فأنت تهدئين النفس يا چو، وتخففين كل ألم .

قالت چو :

ـ نامى يا عزيزتى ، وسأبقى بجانبك .

واحتضنت چو أختها ، وتلاصق خداهما ، ونامتا نوماً عميقا طول الليل . وفى الصباح استعادت بث هدوءها الطبيعى ، شأنها فى ذلك شأن البنات فى فجر شبابهن ، لا تدوم معهن أوجاع الرأس والقلب إلا هنيهة ، كما أن كلمة حلوة تأتى بالمعجزات فى علاجهن ، فتذهب عنهن الألم بأسرع مما ينتظر ، وتسرى عن نفوسهن .

وفكرت چو فى الموقف ، وقلبته على مختلف وجوهه ، ثم اعتزمت أمرا ، أسرت به إلى أمها .

قالت لأمها وهما تجلسان على انفراد :

ـ سألتنى ذات يوم عن رغباتى ، فإليك الآن واحدة منها يا أماه . إنى فى حاجة إلى التغيير ، وأريد أن أذهب إلى مكان ما . أريد أن أبتعد عن البيت هذا الشتاء .

ونظرت إليها أمها نظرة سريعة ، كأنما تحس فى كلماتها تورية ، ثم قالت :

ـ ولماذا يا چو ؟

أجابت بهدوء ، وهى تنعم النظر فى قطعة النسيج التى تطرزها :

ـ أريد أن أشعر بشىء جديد فى حياتى ، فأنا قلقة ، والأيام تمضى بى رتيبة مملة ، ويقينى أن السفر يتيح لى فرص العمل والتعلم ، إنى أشغل فكرى بشئونى الصغيرة الخاصة ، وحاجتى شديدة إلى ما يشحذ مشاعرى ويجدد تجاربى ، وسيكون فى مقدورى ـ إذا انطلقت من البيت هذا الشتاء ـ أن أطير بعيداً ، وأجرب أجنحتى فى أجواء جديدة .

سألتها أمها :

ـ وإلى أين تطيرين ؟

أجابت :

ـ إلى نيويورك . . لقد طرأت لى أمس فكرة جميلة ، ولعلك تذكرين أن مسز كيرك كتبت إليك عن حاجتها إلى فتاة محترمة ، تقوم على تربية طفليها وتحوك ثيابها . إنه مطلب عسير التحقيق ، ولكنى أشعر بصلاحيتى لهذه الوظيفة .

ودهشت مسز مارش للفكرة ، ولكنها لم تتضايق ، وإنما اكتفت بسؤال چو قائلة :

ـ أتذهبين للخدمة فى مثل هذا البيت الكبير ، الذى يضم نزلاء كثيرين ؟

أجابت چو :

— إنها ليست خدمة بالضبط ، فمسز كيرك صديقة لك ، وهى من أطيب السيدات قلبا ، وستسهل الأمور ، ولن يعرفنى أحد هناك ، لأن أسرتها تعيش بمعزل عن النزلاء . . ولنفرض أنهم عرفونى ، فما أهمية ذلك ؟ ألست أقوم بعمل شريف لا عار فيه ؟

قالت أمها :

— إنى مثلك تماما ، لا يهمنى ما يقوله الناس ؛ ولكن ما مصير كتاباتك ؟

قالت :

— سيحفزنى التغيير على مزيد من التأليف والكتابة ، فسأرى وجوهاً جديدة ، وأسمع أموراً طريفة ، مما يجدد أفكارى ويزيد فى تجاربى. وحتى إذا لم يتسع الوقت هناك للكتابة ، فسأعود إلى البيت ، وفى جعبتى ذخيرة من المواد المفيدة للكتابة .

قالت الأم :

— لست أشك فى ذلك ؛ ولكن ، أهذا هو السبب الوحيد لرغبتك المفاجئة فى السفر ؟

أجابت چو :

— لا يا أماه .

قالت :

— وهل أستطيع أن أعرف الأسباب الأخرى ؟

وتحيرت چو ، وأخذت تنقل بصرها بين الأرض والسماء ، ثم قالت ، وقد احمرت وجنتاها فجأة :

ــ قد يكون غروراً منى ، ولكن لا بد من أن أصارحك بما فى نفسى . . . أخشى أن لورى قد زاد غراماً بى فى الأيام الأخيرة .

فقالت مسز مارش ، وقد بدا عليها القلق :

ــ وهل معنى هذا أنك لا تهتمين به قدر اهتمامه بك ؟

قالت چو :

ــ رفقاً بى يا أماه ، إنى أحب لورى الآن ، كما كنت أحبه من قبل ، وما زلت فخورة به ، ولكن لا أريد أن تزيد الأمو ر عن هذا القديم .

قالت الأم :

ــ إنى سعيدة بما تقولين يا چو .

فسألتها :

ــ ولماذا ؟

قالت :

ــ لأنى أعتقد أنكما تختلفان جوهرياً بعضكما عن بعض ، والأمور تسير بكما على ما يرام مادمتما صديقين ، وخلافاتكما لا تلبث أن تذروها الرياح ؛ ولكن رباط الزواج لا يناسبكما ، فكلاكما نزاع إلى الحرية ، حاد المزاج ، شديد العناد ، مما لا يبشر بالسعادة فى حياة تحتاج إلى

الصبر البالغ والاحتمال الشديد والحب القوى .

قالت چو :

ــ وهذا ما أشعر به تماما ، وإن لم أستطع التعبير عنه . ومن حسن الحظ أنه لم يتماد بل بدأ فقط يهتم بى ، فليس أبغض على نفسى من أن أكون سبباً فى شقائه ، وقد اضطر بدافع الوفاء وحده إلى حب هذا الفتى العزيز .

سألتها أمها :

ــ أأنت متأكدة من أنه يحبك ؟

واشتدت حمرة الخجل فى وجنتى چو ، وبدا على وجهها ما يعتمل فى نفسها من معان اختلط فيها السرور والفخار والألم ، شأنها فى ذلك شأن الفتيات الصغيرات . حين يتحدثن عن حبهن الأول . قالت :

ــ أخشى ذلك يا أماه . حقيقة أنه لم يقل شيئا ، ولكنه ينظر إلىّ نظرات طويلة ، لا تخفى معانيها ، ومن الخير أن أذهب قبل أن تتطور الأمور وتتعقد .

قالت أمها :

ــ صدقت يا چو ، وستسافرين إذا أمكن تدبير الأمور .

وتنفست چو الصعداء ، وقالت باسمة بعد سكوت قصير :

ــ لا بد أن يثير تدبيرك عجب مسز موفات ، وسيزداد سرورها لرحيلى ، لأنها ما تزال تأمل فى لورى !

قالت مسز مارش :

— لا يا چو ، قد تختلف الأمهات فى مسائل زواج بناتهن ، ولكنهن يتفقن جميعاً على التمسك بأهداب الأمل ، وليس بينهن إلا من تنشد لبناتها أقصى السعادة . لقد تزوجت ميج بطريقتها الخاصة ونجحت فى زواجها ، وإنى سعيدة لنجاحها ؛ أما أنت فتمتعى بحريتك كما تشائين ، حتى تملى الحرية من تلقاء نفسك ، وعندئذ ستدركين أن هناك ما هو أحلى من الحرية . لا يشغلنى الآن سوى أمر آمى ، وإن كنت على ثقة بذوقها وحكمتها ؛ أما بث فكل أملى أن أراها سليمة معافاة . وعلى فكرة ، لاحظت فى اليومين الماضيين أنها أكثر إشراقاً ونضرة ، فهل تحدثت إليها ؟

قالت :

— نعم ، تحدثت إليها ، فاعترفت بوجود بعض المتاعب ، ولكنها لم تشأ أن تفصح عنها ، ووعدت بأن تخبرنى بها فيما بعد . ولم يزد حديثنا عن ذلك ، ولكنى أعرف سبب متاعبها .

وروت چو لأمها قصتها الصغيرة .

وهزت مسز مارش رأسها ، ولم تتأثر بالناحية الخيالية من القصة ، ولكنها بدت شديدة الاهتمام بما سمعته ، وعادت تؤيد رأيها الأول ، من أن ابتعاد چو بعض الوقت ، يفيد لورى . . قالت چو :

— سنكتم الأمر عنه حتى تنتهى المسألة ، وسأفر من الميدان قبل أن يجمع شتات أفكاره ويحزن لفراقى . وأحب أن تعتقد بث أنى سافرت طلباً

للسرور والمتعة ، إذ لا أستطيع أن أحدثها بشيء عن لورى . . لنترك لها أمر تدليله وتهدئته بعد سفرى . ولعلها تستطيع أن تشفيه من بوادر الغرام . ولن يصعب عليها ذلك ، فقد مر بمثل هذه التجارب من قبل .

وكانت چو تتكلم وكلها أمل فى النتائج الطيبة ، ولكنها ظلت فى قرارة نفسها خائفة من وقع الصدمة على لورى ، وكانت تخشى ألا تستطيع التغلب بسهولة على حبه لها .

وعرض مشروع چو على بساط البحث فى مجلس العائلة ، ووفق عليه بالإجماع ، بعد أن اغتبطت مسز كيرك بالفكرة ، وأبدت منتهى ترحيبها بچو ، كما وعدت بأن تهيئ لها مقاماً سعيداً فى الأسرة . وكان الأمل عظيما فى أن توفر لها مهنة التدريس ، الاستقلال الذى تنشده ، وتمنحها فراغاً من الوقت تقضيه فى الكتابة ، هذا إلى ما تستفيده من الحياة الاجتماعية الجديدة التى تنتظرها . وقد تطلعت چو إلى عملها الجديد مغتبطة ، كما حرصت جد الحرص على السفر ، بعد أن أصبح عش الأسرة يضيق بطبيعتها القُلبّ التواقة إلى المغامرة .

وعندما تم الاستعداد وانتهى ، أفضت إلى لورى بالقصة وهى خائفة مرتعدة ، ولدهشتها تقبل الأمر بمنتهى الهدوء . وقبيل سفرها بأيام بدت عليه الرزانة واضحة ، وازدادت بشاشته عن ذى قبل ، وحين اتهم على سبيل الفكاهة ، بأنه قلب صفحة جديدة فى حياته ، أجاب فى وقار :

— نعم ، لقد قلبت صفحة جديدة ، وإنى مصمم على أن تظل هذه الصفحة مقلوبة .

وشعرت چو بالارتياح لمسلكه ، وعكفت على حاجاتها تعدها بهدوء وتفاؤل ، وزادها اطمئنانا أن رأت أختها بث منشرحة الصدر مسرورة . كانت الأمور تسير على ما يرام ، وكانت چو ترجو أن يعود سفرها بالخير على أهلها وأحبابها .

وفى الليلة السابقة لرحيلها ، قالت تحدث أختها بث :

— أوصيك بأن تعنى بشىء واحد .

فسألتها بث :

— أتعنين أوراقك ؟

أجابت چو :

— لا ، بل فتاى لورى ، كونى رفيقة به ، وأسبغى عليه حنانك .

قالت :

— طبعاً ، ولكنى لا أستطيع أن أملأ مكانك ، وسيشعر بالأسى حين تذهبين .

قالت چو :

— لن يحزن لفراقى ، وتذكرى دائماً أنى أتركه لعنايتك ، فدللیه وسليه وراعى شئونه .

فوعدتها بث خيراً ، وهى تعجب من نظرات چو الحائرة . قالت :

— سأبذل جهدى ، ولن أهمل فى تحقيق وصيتك .

وحين ودع لورى چو ، همس فى أذنها بكلمات ذات مغزى ، قال :

— لن يغير سفرك من الأمر شيئاً ، فقد وقع اختيارى عليك واستقر ، فتدبرى فيما أنت فاعلة ، وإلا جئت إليك وأعدتك إلى البيت قسراً .

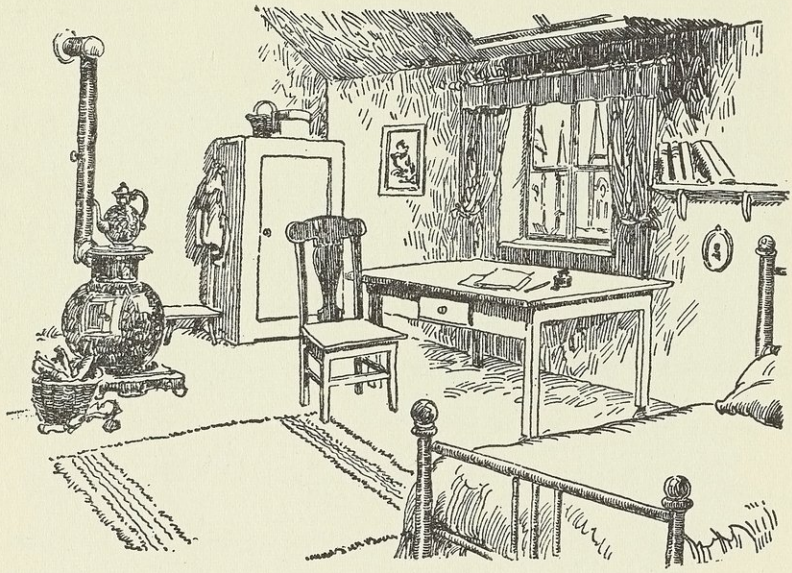

الفصل الثالث والثلاثون

أخبار جو

نيويورك . نوفمبر

أمى العزيزة وأختى بث

سأكتب إليكما بانتظام فإن لدى أخباراً كثيرة ، رغم بساطة رحلتى ، وأقول بصراحة إنه حين غاب عنى وجه أبى الحبيب ، شعرت بضيق شديد ، وغمرنى إحساس بالجزع ، كدت أستسلم معه للبكاء ، لولا أن سيدة أيرلندية وأولادهما الأربعة الصغار ، صرفوا عنى هذا الشعور بصياحهم الدائم وبكائهم المستمر ، فأخذت أسلى نفسى بإعطاء هؤلاء

الصغار قطعاً من فطائر البندق ، فكانوا يكفون عن البكاء حتى يلتهموها ثم يعاودون الكرة ، فأعود إلى إعطائهم قطعة أخرى وهكذا .

ولم تلبث الشمس أن برزت من خدرها ، فتفاءلت بذلك وارتحت ، وأقبلت على رحلتى راضية النفس مطمئنة .

ورحبت بى مسز كيرك ، واستقبلتنى بحنان بالغ ، أحسست معه كأننى فى بيتى ، رغم اتساع المكان وكثرة الغرباء فيه . وخصصت لى حجرة صغيرة فى الدور الأعلى — هى كل ما لديها — والحجرة مزودة بموقد ، ومائدة جميلة إلى جانب نافذة مشمسة ، وفى استطاعتى أن أجلس إلى هذه المائدة وأكتب كلما أردت ذلك . والمناظر من حولى جميلة ، وأمامى الكنيسة ببرجها الشاهق ، وفى هذا أجمل التعويض عن السلم الطويل الذى أرتقيه مرات فى اليوم . وقد أعجبت بحجرتى لأول وهلة . ودار الحضانة التى أدرس فيها وأحوك الملابس ، واسعة بهيجة تقع بجانب غرفة الاستقبال الخاصة بمسز كيرك . والبنتان الصغيرتان جميلتان ، ولكنهما فيما يبدو مدللتان ، وقد ركنتا إلى الالتصاق بى بعد أن رويت لهما قصة « الخنازير السبعة » ، وأعتقد أنى سأكون مربية مثالية . وقد أعطيت الحرية فى تناول طعامى مع الأطفال ، إذا لم أشأ أن أجلس إلى المائدة الكبيرة ، وهذا ما فعلته إلى الآن ، لأنى — وإن كنتم لا تصدقون — خجولة .

قالت لى مسز كيرك فى عطف أمومى : « اعتبرى نفسك فى بيتك

يا عزيزتى ، فأنا مشغولة طول اليوم بشئون هذه الأسرة الكبيرة ، وسينزاح الهم عن كاهلى حين أجد الأولاد معك فى أمان . . . غرف البيت كلها مفتوحة لك ، فادخليها متى تشائين ، وسأبذل جهدى فى توفير أسباب الراحة لك ، وإذا أردت صحبة وألفة ، ففى البيت أناس غاية فى البشاشة والمودة . . . وأمسياتك دائماً خالية من العمل ، وعلى أية حال ارجعى إلىّ دائماً فيما تريدين ، وكونى سعيدة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . . . وهذا ناقوس الشاى يدق ، فينبغى أن أسرع بتغيير ملابسى » . قالت هذا ثم انصرفت مسرعة ، وتركتنى أنظم شئونى فى عشى الجديد .

وبينما أنا أنزل الدرج بعد ذلك بقليل ، وقعت عيناى على منظر لطيف — والسلم طويل جداً فى هذا البيت المرتفع —، أنحين وصلت إلى الدور الثالث ، وقفت قليلاً ، وانتحيت جانباً ، لأمكن الخادم الصغيرة من الصعود ، وفى تلك اللحظة رأيت سيداً محترماً يصعد الدرج ، فلما اقترب من الخادم ، حمل عنها دلو الفحم الثقيل الذى كانت تنوء به ، وواصل الصعود به ، حتى وضعه بجوار الباب ثم انصرف وهو يقول بلكنة أجنبية عامرة بالعطف والحنان : « هذا أفضل ، فالكاهل الصغير لا يستطيع أن يحتمل العبء الثقيل » .

أليس هذا عملاً كريماً يستحق التقدير ؟ أنا أحب هذا الخُلق ، وأوافق أبى على أن التصرفات الصغيرة تكشف دائماً عن شخصية الإنسان . وحين ذكرت الحادثة لمسز كيرك فى المساء ، ضحكت وقالت : « لا بد

أنه الأستاذ باير ، فهو يفعل ذلك دائماً ، وأخبرتنى أنه ألمانى عظيم الثقافة ، كبير القلب ، ولكنه أفقر من فأر الكنيسة ، ولذلك يقوم بالتدريس لبعض التلاميذ ، ليسد حاجته وحاجة ابنى أخته اليتيمين ، اللذين تركتهما أمهما فى رعايته بعد أن تزوجت من أمريكىّ . وهذه القصة ليست عاطفية ، ولكنها استرعت اهتمامى ، وسرنى ما علمته من أن مسز كيرك ، وضعت تحت تصرف الأستاذ ، غرفة استقبالها الخاصة ، ليستقبل فيها تلاميذه . ويفصل غرفة الاستقبال عن غرفة الحضانة باب زجاجى ، وفى نيتى أن أختلس النظر منه ، وبعدئذ أصف لكما شكل هذا السيد . . . إنه فى الأربعين من عمره ، فلا تخافى يا أماه !

وبعد أن تناولت الشاى ، ولاعبت الأطفال قبل نومهم ، انصرفت إلى سلة الحياكة ، وقضيت مساء هادئاً فى عملى الجديد . سأكتب يومياتى بانتظام ، ثم أرسلها اليكم كل أسبوع ، فمساء الخير ، وإلى اللقاء غداً .

« مساء الثلاثاء :

قضيت هذا الصباح وقتاً نشيطاً فى غرفة الحضانة ، فقد كانت البنتان غاية فى « الشقاوة » ، حتى خيل إلىّ أن أمسك بهما وأهزهما بعنف ، لأردهما عن مشاكستهما ، ولكن روحاً طيبة أوحت إلىّ أن أحول نشاطهما إلى الرياضة ، وبالفعل جعلتهما تقومان بتمرينات بدنية ، وأمرتهما بالاستمرار فيها ، حتى أنهكهما التعب ، فجلستا ترتاحان فى هدوء . وبعد الغداء اصطحبتهما الخادم الصغيرة إلى رياضة خارج البيت ،

وعندئذ انصرفت إلى شغل الإبرة بنفس راضية . وبينما كنت أمتدح الظروف السعيدة التى هيأت فرصة إتقان صنع العرَى الجميلة ، انفتح باب غرفة الاستقبال المجاورة ، ودخلها أحدهم ، وهو يترنم بلحن ألمانى . وغلبنى الإغراء ، ودفعنى إلى ما لا يصح أن أفعل ، فقمت إلى الباب الفاصل بيننا ، ورفعت جانباً من الستار الذى يحجب زجاجه ، واسترقت من خلفه النظر ، فإذا بى أرى الأستاذ باير فى الحجرة . وأنعمت فيه النظر ، وهو مشغول بترتيب كتبه ، فوجدته ألمانياً أصيلاً جسمه ممتلئ ، وشعره بنى مشعث ، ولحيته كثة ، وأنفه جميل ، وعيناه وديعتان ، وعلى كل حال ليس فيه من مظاهر الوسامة ، إلا أسنانه البيضاء اللامعة . ولكنه أعجبنى بالرغم من ذلك ، لأن شكله يوحى بالطيبة والتواضع ، ووقاره ينم عن أصل عريق ، لم تستطع أن تخفيه ملابسه العتيقة وحذاؤه المرتوق .

وأول ما دخل الحجرة ، اتجه إلى النافذة ، ليحول أبصال الزهور نحو أشعة الشمس ، ثم ربت على ظهر القطة التى تلقته بترحيب الصديق القديم ، وعندئذ انفرجت أساريره عن ابتسامة الرضا ، وحين دق الباب ، قال بصوت عال ملؤه الحيوية والنشاط : « موجود ، تفضل » .

وكنت على وشك أن أكف عن المراقبة ، حين وقعت عيناى على طفلة صغيرة نحيلة ، تحمل كتاباً كبيراً ، فدفعنى الفضول إلى البقاء لملاحظة ما يدور . ورأيت الصغيرة تغلق كتابها ، وتضعه على المائدة ، ثم تجرى نحو الأستاذ وتقول :

— أريد أن أرى عزيزى باير .

وفتح لها الأستاذ ذراعيه ، وانحنى عليها يقبلها ، ثم قال :

— هاك باير ، فتعالى وعانقيه يا تينا .

وألصقت تينا شفتيها الصغيرتين بوجهه ، وطبعت عليه قبلة وقالت بالإنجليزية الركيكة :

— والآن يجب أن أذاكر دروسى

فوضعها الأستاذ فوق المائدة ، وفتح القاموس الكبير الذى جاءت به معها ، وأعطاها ورقة وقلماً ، فأخذت تكتب مستعينة بصفحات القاموس من وقت لآخر ، وكانت تحرك أصبعها على طول الصفحة ، كأنما تبحث عن كلمة . وكانت تقوم بهذا العمل فى جد ورزانة ، لم أستطع معهما أن أكتم الضحك ، حتى كاد أمرى يفتضح . وكان باير طول الوقت يربت بيده على شعرها الجميل فى حنان الأبوة ، مما يجعلنى أعتقد أنها ابنته ، وإن كان مظهرها وملامحها تنم على أنها فرنسية لا ألمانية .

ودق الباب مرة ثانية ، ودخلت فتاتان فى ريعان الشباب ، فتركت المراقبة من وراء الباب ، وعدت إلى عملى ، ولم أغادر مكانى ، رغم الضجيج الذى كان يأتينى من الغرفة المجاورة . وظلت إحدى الفتاتين تتصنع الضحك طول الوقت . وتقول فى دلال : « حسناً يا أستاذ » وأخذت الأخرى تنطق الألمانية بلهجة قبيحة ، جعلته يعترض عليها فى

غير هدوء أو ثبات .

وكان من الواضح أن الفتاتين ترهقان أعصابه . حتى كاد يفقد صبره ، وقد سمعته يقول لهما مرة : « لا ، ليس هكذا . . . ما هكذا تنطق الكلمات . . . أنتما لا تعملان بملاحظاتى » .

ومرة أخرى سمعت دقة عنيفة ، كأنما ألقى الكتاب على المائدة ، ثم قال فى صيحة يائسة : « لم تحسنا اليوم شيئاً ، وقد ذهب الدرس هباء » .

وأخذتنى الشفقة بالرجل المسكين ، وعند ما انصرفت الفتاتان ، عدت إلى الباب الزجاجى ألقى نظرة من ورائه ، لأطمئن على أنه اجتاز المحنة بسلام . . . فوجدته مستلقياً على كرسيه ، وعليه مظاهر الإرهاق والإنهاك ، وظل فى مكانه مغمض العينين ، حتى دقت الساعة الثانية ، وعندئذ هب من كرسيه واقفاً ، ودس كتبه فى جيبه ، كأنما يستعد لدرس آخر ، ثم حمل بين ذراعيه تينا الصغيرة ، التى راحت فى سبات عميق فوق الأريكة ، وخرج بها يمشى هادئاً ، خشية أن يوقظها . يخيل إلىّ أنه يقاسى كثيراً من أجل هذه الفتاة .

رجتنى مسز كيرك أن أتناول وجبة الساعة الخامسة على المائدة الرئيسية مع أهل البيت ، ولما كنت أشعر اليوم بحنين شديد إلى بيتنا ، رأيت أن أجيب رجاءها ، لأروح عن نفسى ، وأستطلع أحوال أولئك الذين يسكنون معى تحت سقف واحد ولا أعرفهم . وأخذت أهبتى لأبدو فى مظهر لائق ، ورافقت مسز كيرك ، وفى نيتى أن أتسلل إلى قاعة

الطعام خلفها ، ولكنها كانت أقصر منى قامة ، فذهبت محاولاتى للاختفاء أدراج الرياح . وقدمت لى مسز كيرك مقعداً بجانبها ، فجلست عليه ، وعند ما هدأت نفسى ، جمعت أطراف شجاعتى ، وبدأت أجول ببصرى فيمن حولى . وكانت المائدة الطويلة ممتلئة عن آخرها ، وكان كل فرد مشغولاً بطعامه ، خصوصاً الرجال الذين بدوا وكأنهم مع الطعام على موعد : فقد ازدردوا أكلهم بسرعة ، وحالما انتهى الطعام ، انسلوا خارجين . وكان يجلس إلى المائدة شبان مشغولون بأنفسهم كالعادة ، وأزواج يتبادلون الحديث فى جد وانهماك ، وسيدات يرعين أطفالهن ، ورجال يتناقشون فى السياسة ، ولا أظن أننى سأعنى بأمر أحد من هؤلاء كلهم ، ما عدا سيدة جميلة فى مقتبل الحياة ، أعتقد أنها تستحق المعرفة .

وكان الأستاذ يجلس فى طرف المائدة الآخر ، وهو يجيب عن أسئلة عجوز أصم إلى يمينه ، ويتناقش فى الفلسفة مع فرنسى إلى يساره ، ولكن أحاديثه مع الرجلين لم تشغله عن أداء واجبه نحو الطعام ، فأقبل عليه باجتهاد شديد . ولو كانت آمى معنا ، لقاطعته إلى الأبد ، إذ كان مع الأسف يأكل بنهم مخجل لا تقره أختنا صاحبة الفخامة ؛ ولم أستأ لنهمه أو أتضايق ، لأنى أحب أن أرى الناس يأكلون طعامهم « بشهية ولذة » على حد تعبير حنا ، ولا شك أن الأستاذ المسكين فى حاجة دائمة إلى تغذية مضاعفة ، تعوض عليه الجهود الشاقة التى يبذلها فى التدريس.

التقيت وأنا أصعد الدرج بعد العشاء بشابين ، وقفا أمام مرآة الردهة

ينسقان قبعتيهما ، وسمعت أحدهما يقول للآخر بصوت خفيض :

— من هذه الزميلة الجديدة ؟

قال الآخر :

— مربية أو ما يشبه ذلك .

سأل الأول :

— وما الذى جاء بها إلى مائدتنا ؟

أجاب الثانى :

— يقولون إنها صديقة للسيدة العجوز .

قال الأول :

— أن شكلها لطيف ، ولكنها عديمة الطراز .

قال الثانى :

— ليس لها طراز على الإطلاق ، اشعل لى سيجارتى وهيا بنا .

وتملكنى الغضب فى أول الأمر ، ولكنى لم ألبث أن استعدت هدوئى ، ولم أبال بما سمعت ، فالمربية لا تقل شأناً عن الكاتب أو السكرتير ، وقد أكون محرومة من الطراز ، ولكنى راضية بذكائى الذى لا يستمتع به كثيرون . وإذا كان لى أن أحكم على هذين الشابين المتأنقين ، اللذين انصرفا وهما ينفثان الدخان ، كأنهما مدخنتان ، فليس لدى ما أقول سوى أنى أكره التافهين !

« الخميس :

كان أمس يوماً هادئاً صرفته فى التدريس والحياكة والكتابة داخل حجرتى الصغيرة المزودة بوسائل الانارة والتدفئة ، وقد جمعت أطرافاً من الأخبار ، وتعرفت بالأستاذ ، وعرفت أن تينا هى ابنة السيدة الفرنسية التى تقوم بأعمال الكى فى المنزل . والطفلة الصغيرة تحب مستر باير من كل قلبها ، وتتبعه فى البيت أينما ذهب ، وهو فخور بحبها ، لأنه بطبعه شغوف بالأطفال . ويحب الأستاذ أيضاً طفلتىّ الصغيرتين كيتى ومينى كيرك ، وهما ترويان لى أخباره كلها ، وتتحدثان عن التمثيليات التى يؤلفها . والهدايا التى يحضرها ، والقصص البارعة التى يحكيها . والشبان يتخذون منه مادة لدعاباتهم ، ويطلقون عليه أسماء مضحكة ، منها « فرنز العجوز » و « البيرة الخفيفة » و « الدب الأكبر » . ولكن مسز كيرك تقول : « إنه يتقبل مجونهم راضياً ، ويتحمل فكاهاتهم بسماحة . ولذلك جميع من فى البيت يحبونه ، على الرغم من عاداته الأجنبية .

أما السيدة الأنيقة الجميلة ، فهى الآنسة نورثون ، وهى ثرية مثقفة طيبة القلب مهذبة ، وقد تحدثت إلىّ ونحن نجلس إلى مائدة العشاء الليلة — إذ تناولت عشائى على المائدة مرة أخرى ، فليس أدعى إلى التسلية من مراقبة الناس وهم يأكلون — ودعتنى الآنسة نورثون لزيارتها فى غرفتها الخاصة ، وأرتنى مجموعة كبيرة من الكتب المفيدة والصور الجميلة ، وهى تعرف أناساً لهم مكانتهم وتقديرهم ، وأبرز ما فى هذه السيدة ، روحها

الودود ، لذلك سأتلطف معها ، لأنى فى حاجة إلى معرفة المجتمعات الطيبة ، ولكنها ليست على أية حال من الطراز الذى تحبه أختنا آمى .

وكنا نجلس ليلة أمس فى غرفة الاستقبال ، فدخل علينا مستر باير ، ومعه جرائد جاء بها لمسز كيرك . ولم تكن السيدة موجودة ، ولكن مينى الصغيرة — التى تتقن قواعد اللياقة رغم حداثة سنها — قدمتنى إليه بكل رشاقة وقالت : « هذه الآنسة مارش ، صديقة والدتى » .

وأضافت كيتى وهى طفلة رائعة :

— نعم ، وهى سيدة خفيفة الروح حلوة الحديث ، ونحن نحبها حباً جماً .

قال وهو يقطب جبينه بشكل سرت له الفتاتان :

— إنى أسمعهما يضايقانك أحياناً يا آنسة مارش ، فنادنى إذا فعلتا ذلك مرة أخرى ، وسأعطيهما ما تستحقان !

ووعدته بذلك ثم انصرف ، ولكن يبدو أننى سأراه كثيراً ، فقد حدث اليوم وانا أمر بغرفته ، أن اصطدمت مظلتى ببابه دون قصد ، فإذا بالباب يفتح على مصراعيه ، وإذا بالأستاذ يقف أمامى وفى يساره جورب أزرق كبير ، وفى يمينه إبرة للرفى ، ولم يبد عليه أى أثر للخجل من وضعه هذا ، وحين فسرت له ما حدث ، وأسرعت بالمسير ، لوح لى بالجورب ، وقال فى سرور بالغ :

— إنه يوم جميل للمشى ، فرحلة طيبة يا آنسة .

وكان الموقف مضحكاً ، ولكنى رأيت له وجهاً آخر أفعم قلبى

بالإشفاق على هذا الرجل ، الذى لا تضطره الظروف إلى إصلاح ملابسه فحسب ، بل إلى رتق جواربه أيضاً ، وهى مهمة شاقة بغيضة .

« يوم السبت :

لم يحدث اليوم جديد يستحق الكتابة غير زيارتى للآنسة نورثون ، فى غرفتها العامرة بأجمل التحف وأندرها . . . إن هذه السيدة رشيقة جذابة ، وقد أرتنى مقتنياتها الثمينة ، ودعتنى إلى مصاحبتها عند ذهابها إلى المحاضرات والحفلات الموسيقية ، وأظنها أرادت أن تجاملنى بهذه الدعوة ، ويقينى أن مسز كيرك حدثتها بأحوالنا ، فأخذتها الشفقة بى ، وأنا وإن كنت أشد كبرياء من إبليس ، غير أن مكرمات الطيبين لا تسيئنى ، ولذلك تقبلت الدعوة شاكرة .

وحين عدت إلى غرفة الحضانة ، سمعت ضجة كبيرة تنبعث من حجرة الاستقبال المجاورة ، فأسرعت إليها أتبين الخبر ، وإذا بى أرى مستر باير يركع على يديه وركبتيه ، وتينا تجلس فوق ظهره ، وكيتى تجره بحبل طويل . . أما مينى فكانت تطعم ولدين صغيرين يصرخان داخل قفص صنعته لهما من المقاعد . وقالت كيتى تشرح الموقف :

— نحن نلعب النارجيرى .

وأضافت تينا وهى تشد شعر الأستاذ :

— وهذا حصانى .

وقالت مينى :

— ماما تسمح لنا بأن نفعل ما نريد فى مساء السبت من كل أسبوع حين يحضر فرانز وأميل لزيارتنا ، أليس كذلك يا مستر باير ؟

وجلس الحصان ، ونظر إلىّ بحماسة تفوق حماسة الأطفال ، وقال بتؤدة :

— إنها الحقيقة يا آنسة ، وإذا تضايقت من ضجيجنا ، فما عليك إلا أن تقولى « صه » ، فنركن إلى الهدوء .

وكانوا فى مرح لم أر له مثيلاً ، فعدت إلى غرفتى ، ولكنى تركت الباب مفتوحاً ، لامتع النفس بلعبهم . ولعبوا لعبة « العسكر واللصوص » ، ثم رقصوا وغنوا ، وحين حل الظلام ، اجتمعوا حول الأستاذ على الأريكة ، يستمعون إلى قصصه الخرافية الممتعة ، وحكاياته الشائقة ، وكم أسفت أن الأمريكيين ليسوا مثل الألمان فى بساطتهم وتمشيهم مع الطبيعة .

إنى مولعة بالكتابة ، وسأظل إلى الأبد أسطر ما يجول بخاطرى على الورق ، إلا إن منعتنى عوامل اقتصادية ، فعلى الرغم من أنى أكتب على ورق رفيع ، بخط دقيق ، فإنى أرتعد كلما تذكرت عدد الطوابع ، التى يتكلفها مثل هذا الخطاب الطويل . وأرجو أن تبعثوا إلى بخطابات آمى حالما تنتهون منها ، ولا شك أن أخبارى ستبدو تافهة بالمقارنة إلى أخبارها المجيدة ، ولكنى أعرف أنكم ترحبون بكل ما أكتب . هل تيدى مشغول بالمذاكرة إلى حد يمنعه من الكتابة لأصدقائه ؟ أعنى به من أجلى

يا بث ، وابعثى إلىّ بأخبار طفلى ميج ، وبلغى الجميع حبى الشديد ، من المخلصة

چو

ملاحظة : عند ما أعدت قراءة الخطاب ، استوقفتنى كثرة كلامى عن باير ، ولكن الشخصيات الغريبة تجتذبنى دائماً ، ولم يكن لدى أخبار أخرى أرويها لكم . . . تحياتى إليكم

« ديسمبر :

عزيزتى

لما كان خطابى هذا أشتاتاً من هنا وهناك ، لذلك وجهته إليك ، عسى أن يدخل على قلبك السرور ، ويعطيك فكرة عن مجرى حياتى فى هذا المكان ، فهى وإن تكن حياة هادئة ، إلا أنها لا تخلو من التسلية. وقد استطعت بعد « الجهود الجبارة » — على حد تعبير آمى — التى بذلتها فى تنمية الغرس العقلى والأدبى ، أن أمكن لأفكارى من الازدهار ، وأجعل طفلتىّ الصغيرتين طوع أمرى ، وأوجههما كيفما أشاء . وفى الحق أنهما لم تبلغا بعد ما بلغته تينا والولدان الصغيران ، ولكنى أؤدى واجبى نحوهما ، وهما مغرمتان بى . . . وفرانز وأميل ولدان لطيفان ، وأنا أحبهما من كل قلبى ، لأنهما خليط من الأمريكية والألمانية ، وهذا الخليط يجعلهما فى فوران دائم . . . وأمسيات السبت دائماً صاخبة ، سواء أقضاها الأطفال

فى البيت أم فى خارجه ، وهم يخرجون معى أنا والأستاذ . حين يكون الجو صالحاً للمشى ، ومهمتى أن أرقب النظام وأحافظ عليه ، وهو عمل غاية فى التسلية .

صرت أنا والأستاذ صديقين حميمين ، وبدأت أتلقى عليه بعض الدروس ، ولم يكن مناص من ذلك ، بعد أن تطورت الأمور بيننا بطريقة غريبة . وبدأت القصة يوم نادتنى مسز كيرك ، وأنا أجتاز باب غرفة الأستاذ ، وكانت فى ذلك الوقت تفتشها ، وتبعثر الأشياء هنا وهناك . قالت حين دخلت :

— هل رأيت عرينا بهذه الفوضى ؟ تعالى يا عزيزى وساعدينى فى إعادة هذه الكتب إلى مواضعها ، فقد قلبت الأشياء بحثاً عن المناديل الستة ، التى أعطيته إياها منذ وقت قريب ، ولكنى لم أعثر لها على أثر .

وكانت حجرة الأستاذ حقيقة تشبه عرين الوحوش فى فوضاها ، فالكتب والأوراق مبعثرة فى كل مكان ، وعلى رف المدفأة غليون محطم وزمارة مكسورة ، وبجانب النافذة طائر بلا ذيل ، وفى الجانب الآخر صندوق للفيران الأليفة . وبين كتبه وكراساته مراكب من الورق لم يتم صنعها بعد ، وأمام المدفأة صف من الأحذية القديمة الصغيرة جففتها سخونة النيران ، وفى كل مكان من الحجرة آثار الأطفال الصغار الذين يشقى من أجلهم . وبعد طول بحث وتنقيب عثرنا على ثلاثة من المناديل المفقودة ، كان أحدها فوق قفص الطائر ، والثانى ملطخاً بالحبر ،

والثالث محترقاً بجوار الموقد ، مما يدل على أنه كان يستعمله فى تنحية الأوانى الساخنة عن النار . وضحكت مسز كيرك الوديعة من أمر الرجل ما شاء لها الضحك ، ثم وضعت مخلفات المناديل فى سلة المهملات وهى تقول :

— أظن أنه مزق بقية المناديل ليصنع منها قلوعاً لمراكب الأطفال ، أو ضمادات لأصابعهم المجروحة ، أو ذيولاً للطائرات . . . إنها تصرفات فظيعة ، لا أستطيع أن ألومه عليها ، لأنه شارد الذهن ، ولكنه أبداً طيب القلب يلاعب الأطفال ، ويسمح لهم بامتطاء ظهره كأنه حصان أصيل .. إنه رجل وديع ، وقد تعهدت عن طيب خاطر بغسل ملابسه وإصلاحها ، ولكنه ينسى دائماً أن يعطيها لى ، وأنسى أنا أن أطلبها منه ، وتكون النتيجة أن يقع فى مآزق تأتيه بالمتاعب .

قلت لها :

— دعينى أصلحها له بنفسى فأنا لا أضيق بهذا العمل ، ولا تخبريه بذلك ، حتى لا يشعر بحرج . . . من واجبى أن أرد جمائله ، فهو رفيق بى ، يعيرنى كتبه ، ويتعب نفسه فى إحضار خطاباتى .

وهكذا استطعت أن أرتب له أشياءه ، وأن أرفو له جوربين من جواربه ، وأن أعيدهما إلى وضعهما الطبيعى بعد أن أفسدهما بمحاولة إصلاحهما بنفسه . وبقى الأمر سراً ، وكان أملى ألا يعرف الأستاذ بصنيعى ، ولكن حدث فى الأسبوع الماضى أن كنت أتسلى باستماع

الدروس التى يلقيها على تلاميذه ، وكانت تينا دائبة الخروج والدخول ، تترك الباب مفتوحاً وراءهما ، بحيث تيسر لى متابعة ما يقول . وبينما كنت أجلس بجوار الباب أرفو جورب الأستاذ ، وأفكر فيما يقوله لتلميذة جديدة يبدو عليها الغباء مثلى ، فى تلك اللحظة خرجت الفتاة من الغرفة ، وخيل إلىّ أنه خرج خلفها ، إذ ساد الصمت ولم أعد أسمع شيئاً . وجعلت أسلّى نفسى بتصريف أحد الأفعال التى سمعتها ، وأنا أهتز فى مقعدى بطريقة رتيبة ، وفجأة تنبهت على صوت ينبعث من أمامى ، وحين رفعت رأسى وجدتنى وجهاً لوجه مع الأستاذ باير . وكان ينظر إلىّ ضاحكاً ، ويشير إلى تينا أن تلزم الصمت حتى لا أكتشف أمرهما ، فرحت أحملق فى وجهه كالأوزة المذعورة ، فقال لى :

— إنك تختلسين النظر إلىّ . كما أختلس النظر إليك ، ولا غضاضة فى ذلك ، ولكن أرجو ألا تعتبرينى مجاملاً أو متطفلاً إذا سألتك : هل تحبين أن تدرسى الألمانية ؟

قلت وقد استبد بى الخجل والحرج :

— نعم ، ولكنك مشغول جداً ، وأنا غبية جداً فى الحفظ .

وضحك الأستاذ ثم قال بهدوء :

— سنرتب الوقت يا فتاتى . ولن تعيينا الحيل فى تنشيط فكرك ، ويسرنى أن أدرس لك فى المساء لأوفيك جميلك يا مس مارش .

وأشار بيده إلى الجورب الذى أمسك به ، ومضى يقول :

— نعم ، إن أولئك السيدات الطيبات يعتقدن أنى رجل ساذج ، لا أشعر بما يحدث حولى ، ولا أتنبه إلى خدماتهن الجليلة ، ولا أرى ما يطرأ على جواربى من إصلاحات ، وأظن أن أزرار سترتى تنبت من تلقاء نفسها . أواه يا فتاتى ، إن لى عيناً ترى ، أذناً تسمع ، وقلباً يفيض بالشكر لما تسدين من جميل . ما علينا ، تعالى يا فتاتى من وقت لآخر لألقنك دروساً فى اللغة الألمانية .

ولم أرفض بطبيعة الأمر هذه الفرصة الرائعة ، واتفقت معه على أربعة دروس فى الأسبوع ، ولم ألبث أن وقعت فى شراك قواعد اللغة ، واختلط علىّ أمرها إختلاطاً شديداً ، ولكن الأستاذ كان مثالياً فى صبره ، وكان ينظر إلىّ فى بعض الأحيان يائساً ، فأتحير : أ أضحك من موقفى ، أم أبكى لخيبتى ؟ ولقد جربت الأمرين فى الواقع ، فلم تتحسن الأحوال ، وعند ما بلغ غبائى أقصاه ، عيل صبر المسكين ، فألقى بالكتاب على الأرض ، وانصرف من الغرفة مسرعاً . وشعرت بمنتهى الوحدة والمهانة ، ولكنى لم أغضب منه ، فقد كان الخطأ خطأى ، ولم يكن للأستاذ يد فى غبائى . وعكفت على أوراقى أجمعها . وفى نيتى أن أهرب إلى غرفتى ، لأهز فيها رأسى هزًّا عنيفاً ، حتى تتفتح أبوابه المغلقة ، فيفهم الدروس . وما كدت أهم بالخروج ، حتى رأيت الأستاذ يعود إلى الغرفة ضاحكاً راضياً ، كأننى قمت بعمل مجيد ، وقال :

— سنلجأ إلى طريقة أخرى ، فهيا بنا نقرأ بعض القصص المسلية ،

ودعينا من البحث فى هذا الكتاب الجاف القابع فى زاوية الغرفة ، فإنه يأتينا بالمتاعب .

وكان الأستاذ يتكلم برفق وبشاشة ، ثم فتح كتاب القصص ، وطلب إلىّ أن أقرأ فيه ، ولكنى كنت فى غاية الخجل ، فجعلت أقرأ وأنا مطأطئة الرأس ، مما سره كثيراً ، وزاده غبطة وإنشراحاً . ولم ألبث أن اندمجت فى الكتاب ، فنسيت خجلى ، وأقبلت على القراءة بعزم واهتمام ، وبذلت جهدى لأنطق بالكلمات الطويلة فى سرعة وجرأة ، وحين أنهيت قراءة الصفحة الأولى ، وتوقفت لحظة أستعيد فيها أنفاسى ، صفق الأستاذ بيديه إعجاباً ، وقال بعطف :

ــ هذا حسن جداً ، إننا نتقدم تقدماً طيبا ، والآن حل دورى فى القراءة ، فأصغى إلىّ :

وبدأ يقرأ بصوت قوى رخيم ، يشوّق الأسماع ويجتذبها .

وكانت القصة لحسن الحظ مضحكة ، ولذلك كان فى استطاعتى أن أضحك ، وقد ضحكت فعلاً بالرغم من أننى لم أفهم نصف الكلام ، إذ كان يقرأ بسرعة وحماسة ، وكنت فى غاية الاستثارة ، وكان الموقف غاية فى الفكاهة .

وأعجبتنى هذه الطريقة ، فتقدمت تقدماً طيبا ، وأصبحت أقرأ دروسى جيداً ، وأخذت أتعلم قواعد اللغة من خلال القصص والقصائد ، شأنى فى ذلك شأن مريض يعطونه الدواء ممتزجاً بالحلوى . . هذه الطريقة

تلائمنى ، والأستاذ — كما أرى — لم يملها بعد ، وهو كرم من جانبه . وفى عزمى أن أعطيه هدية بمناسبة عيد الميلاد ، فلست أجرؤ على نقده أجراً لدروسى ، فاقترحى علىّ شيئاً جميلاً يا أماه .

سرّنى ما علمته من مرح تيدى ونشاطه واجتهاده ، واغتبطت كثيراً لانقطاعه عن التدخين ، ولأنه ترك شعره ينمو . . . ألا ترين معى أن بث أقدر منى على قيادته ؟ لست أغار من ذلك ، فابذلى جهدك معه يا عزيزتى ، ولكن إياك أن تجعلى منه قديساً ، فإنى أفضله عفريتاً كما عهدناه ، اقرئى له أطرافاً من خطابى ، فليس لدى متسع من الوقت لأكتب له ، وفى هذا القدر ما يكفيكم جميعاً ، والحمد لله على تقدم صحة بث وراحة بالها .

« يناير :

أرجو لكم جميعاً ، يا أفراد أسرتى المحبوبة ، عاماً سعيداً ، وأبعث بأطيب التمنيات إلى مستر لورنس والفتى المسمى تيدى . أرانى عاجزة عن وصف سعادتى بهدية العيد ، التى أرسلتموها إلىّ فوصلتنى فى الليل ، بعد أن قطعت كل أمل فيها . كان خطابكم قد جاءنى فى الصباح وليس فيه إشارة إليها ، لأنكم أردتم أن تفاجئونى بالهدية ، والحقيقة أن الحيلة انطلت علىّ ، وظننت أنكم نسيتمونى فى هذا اليوم السعيد ، فاستبدّ بى الحزن ، وجلست بعد تناول الشاى فى غرفتى واجمة .

وحين دق الباب ، ورأيت الحزمة الكبيرة ، استخفنى الطرب ، فقمت إليها أحتضنها وأقبلها . وكان فيها عبير البيت المنعش ، فجلست على الأرض أفك رباطها ، وأنظر فيها وآكل منها وأضحك وأبكى فى وقت واحد ، على طريقتى الهوجاء المعهودة . وكانت الأشياء التى بعثتم بها غاية ما أتمناه ، وزادنى تقديراً لها أنها صنعت بأيديكم ، ولم تشتر من السوق . وراقتنى المحبرة الجميلة التى أرسلتها بث ، وسررت بقطائر حنا كل السرور ، وسأرتدى الأقمصة الصوفية الجميلة التى بعثت بها يا أماه ، وسأقرأ بإمعان الكتب الطريفة التى أرسلها أبى . . . أشكركم ألف شكر على هذه الهدايا الرائعة .

والحديث عن الكتب يذكرنى بأننى أزداد فى هذا الباب ثراءً يوماً بعد يوم ، إذ أهدانى الأستاذ باير فى رأس السنة مجموعة جميلة من مؤلفات شكسبير ، وهى مجموعة كان يعتز بها ويقدرها ، وكنت أعجب بها كلما رأيتها فى غرفته تشغل مكان الصدارة من كتبه الثمينة الأخرى ، كالإنجيل بالألمانية ، ومؤلفات أفلاطون وهومر وميلتون ، لذلك يمكنكم أن تتصوروا مبلغ سعادتى حين جاءنى بالمجموعة ، وأرانى اسمى عليها ، ومعه كلمة إهداء « من صديقك ، فريدريك باير » ، وقال لى :

— كنت تتمنين دائماً أن تكون لك مكتبة ، وها أنا ذا أعطيك واحدة ، فبين دفتى هذا الغطاء — وهو يعنى الغلاف — عدة كتب فى كتاب واحد . اقرئيها جيداً تفيدك وتعينك ، فإن دراسة الشخصيات

فى هذه المجموعة ، تسهل عليك دراسة الناس فى الحياة ، وتمكنك من رسمهم بقلمك .

وشكرته قدر ما أستطيع ، وأصبح فى استطاعتى الآن أن أتكلم عن مكتبتى ، كأنما عندى مئات الكتب . لم أكن أعرف من قبل كم عدد مؤلفات شكسبير ، ولكنى لم أكن أعرف عندئذ أستاذاً كباير ، يفسر لى ما أجهل ، لا تضحكوا من طريقتى فى كتابة اسم « باير » فهكذا ينطقه الألمان !

يسرنى أنكم تستمتعون بما أرويه لكم من أخبار هذا الأستاذ ، وأملى أن تقابلوه فى يوم من الأيام ، وستعجب والدتى بقلبه الكبير ، وسيعجب أبى برجاحة عقله ، أما أنا فأعجب بقلبه وعقله ، وأشعر بأنى صرت غنية بمعرفة صديقى الجديد فريدريك باير .

لما كنت لا أملك مالا كثيراً ، ولا أعرف على وجه التأكيد الهدية التى يقدرها ، لذلك اشتريت له عدة أشياء بسيطة ، كلها جميلة ونافعة ومسلية ، ثم وضعتها له فى حجرته حيث وجدها على غير انتظار : أهديته تمثالاً صغيراً للمائدة ، وآنية جميلة للزهور — فهو يحتفظ دائماً بالأزهار فى حجرته ويقول إنها تنعشه — ، وكذلك أهديته مقبضاً يتناول به الأوانى الساخنة ، حتى لا يضطر إلى استعمال مناديله فيحرقها . وسر الأستاذ كثيراً بهذا المقبض ، ووضعه فوق رف المدفأة كحلية ثمينة ، وأبى أن يستعمله فيما اشتريته له ، وهكذا فشلت جهودى فى محاولة إنقاذ مناديله ؛

وعلى الرغم من فقر الأستاذ ، فإنه لم ينس أحداً من أهل البيت وأطفاله ، لا ،ولم ينسه أحد، من الغسالة الفرنسية إلى مس نورثون ، وقد سرّنى إجماعهم على تقديره .

وأقاموا فى ليلة رأس السنة حفلاً تنكرياً ابتهاجاً بالعام الجديد ، ولم يكن لدىّ ثوب لائق ، فقررت ألا أشترك فى الحفل ، ولكن مسز كيرك تذكرت فى آخر لحظة أن لديها ثوباً من الحرير القصب ، فأعطتنى إياه ، وأعارتنى مس نورثون بعض الريش والدنتلا ، فتنكرت فى شخصية غانية تاريخية ، ووضعت قناعاً على وجهى ، وغيرت صوتى . ولم يعرفنى أحد من الحاضرين ، ولم يطرأ لذهن من أذهانهم أن مس مارش الصامتة المترفعة — فهم يظنون أنى خشنة جافة باردة ، أو هكذا أبدو فى نظر السخفاء — يمكنها أن ترقص وتغنى وتمرح مثلما فعلت . وكانت حقاً ليلة ممتعة ، وحين خلعنا الأقنعة عن وجوهنا آخر الليل ، سرّنى أن رأيت الحاضرين يحملقون فىّ بدهشة ، وكأنهم لا يصدقون عيونهم . وسمعت شاباً يقول عنى لآخر : إننى كنت أحترف التمثيل فيما مضى ، وأنه رآنى ذات مرة أمثل على أحد المسارح الصغيرة ، أخبروا ميج بذلك ، وستضحك كثيراً لهذا الادعاء .

وكان مستر باير مستخفياً فى لباس شخصية قصصية ، وكانت تينا فى لباس حورية من الجنة ، وكان منظرهما وهما يرقصان معاً ، آية من آيات الجمال الطبيعى — على حد تعبير تيدى — وعلى العموم قضينا

ليلة عيد سعيدة ، وحين عدت إلى غرفتى ، وأمعنت التفكير فى الأمر شعرت أننى بدأت أتقدم ، على الرغم من فشلى فيما مضى ، والدليل على ذلك أننى الآن مبتهجة على الدوام ، وأشتغل بعزيمة قوية ، وأهتم بمن حولى أكثر من ذى قبل ، وكلها مظاهر مطمئنة .

تحياتى ودعواتى لكم جميعاً .

المحبة دائماً

چو

الفصل الرابع والثلاثون

صديق

اندمجت چو سعيدة فى الحياة الاجتماعية التى تحيط بها ، وأخلصت لعملها الذى تكسب منه لقمة العيش ، فأقبلت عليه بمنتهى جهدها وعزيمتها ، ولكنها استطاعت على الرغم من كل هذا ، أن تجد فسحة من الوقت لأعمالها الأدبية . وكان الهدف الذى تسعى إليه طبيعيًّا لفتاة مثلها فقيرة طامحة ، ولكنها لم تحسن اختيار الوسيلة لبلوغه : فقد كانت ترى المال يسبغ على الناس قوة ونفوذاً ، ولذلك استقر رأيها على طلب

المال بقوته ونفوذه ، لا لتنفقه فى أغراضها الخاصة ، بل لتحقق السعادة لمن تحبهم أكثر من نفسها .

وكانت چو تتمنى دائماً ، أن تملأ البيت بوسائل الترف والراحة ، وتعطى بث كل ما تصبو إليه نفسها من فراولة فى الشتاء ، إلى أرغن موسيقى تشبع بها هوايتها ؛ أما لنفسها فلم تكن تطلب إلا السفر إلى الخارج مع زيادة فى الدخل تمكنها من الاشتراك فى الأعمال الخيرية . وقد ظلت هذه أمانيها على مر السنين ، وكانت تبنى عليها قصوراً شامخة فى الهواء .

وكانت المغامرة التى أتتها بجائزة القصة ، قد فتحت لها طريقاً يقودها بالجد والاجتهاد إلى قصر أحلامها المنشود ؛ ولكن فاجعة القصة الطويلة التى منيت بها ، أضعفت شجاعتها بعض الوقت ، ودفعتها إلى الانكماش أمام الرأى العام ، ذلك العملاق الجبار الذى ترتعد له فرائص الرجال . وآثرت چو أن تهدأ قليلاً ، بعد التجربة الأولى ، التى انجلت عن فشل وخسارة ، ولكن طموحها الشديد لم يلبث أن تيقظ فى نفسها ، فقامت تعالج عثراتها ، وتستأنف المسير فى طريق آخر ظليل ، منحها القوة ، ولكنها أوشكت أن تخلف وراءها ما هو أثمن وأعظم من حقائب المال .

عاودت چو كتابة القصص ، ولكنها جنحت إلى النوع المثير ، تمشياً مع مزاج القراء الأمريكيين الذين كانوا يفضلون هذا اللون التافه ، ولم تخبر چو أحداً بعزمها ، بل عكفت على الكتابة فى صمت ، وأخرجت قصة مثيرة ، حملتها بنفسها إلى مستر داشوود . رئيس تحرير مجلة « البركان

الأسبوعى » . ولم تكن چو ذات خبرة بأخلاق الناس ، ولكنها أدركت بغريزتها النسوية أن الملابس الأنيقة أشد تأثيراً فى النفوس من الشخصية وأدب المعاملة . ولذلك تجملت فى ملبسها ، وارتدت أحسن ثيابها ، وحاولت أن تقنع نفسها ، وهى تصعد الدرج القذر المؤدى إلى مكتب المجلة ، بأنها ليست منفعلة ولا عصبية ولا خائفة . وواصلت الصعود بشجاعة ، حتى وصلت إلى غرفة مشوشة النظام ، مغبرة الجو بدخان السجائر ، وكان يجلس فيها ثلاثة رجال ، مدوا أرجلهم على الموائد بحيث أصبحت كعوب أحذيتهم أعلى من رءوسهم . ولم يحرك أحدهم ساكناً حين ظهرت چو ، فاستبد بها القلق ، وترددت قليلاً عند عتبة الباب ثم قالت فى ارتباك ظاهر : « عفواً أيها السادة ، إنى أبحث عن مكتب مجلة البركان الأسبوعى ، وأريد مقابلة مستر داشوود » .

وعندئذ فقط هبطت أعلى الأقدام عن المائدة ، ونهض أكثر الجالسين تدخيناً ، وبعد أن وضع سيجارة بين أصابعه بعناية ، تقدم نحوها يحييها بوجه جامد لا ينم إلا عن رغبة شديدة فى النوم . وأحست چو بضرورة الدخول فى الموضوع بسرعة ، فقدمت له مخطوطات القصة ، وراحت تتكلم بخجل شديد ، فتتعثر العبارات على شفتيها . قالت وقد نسيت معظم الخطبة التى كانت قد أعدتها لهذا الموقف :

— كلفتنى صديقة لى بأن أقدم لكم هذه القصة ، على سبيل التجربة فقط ، ويسرها أن تعرف رأيكم فيها ، ويسعدها أن تكتب لكم غيرها ، إذا أعجبتكم .

وفيما هى غارقة فى خجلها وتلعثمها ، أمسك داشوود بالمخطوط فى يده ، وأخذ يقلب صفحاته بأصابعه القذرة ، ويلقى على صفحاته الناصعة ويتأمل ما كتب فيها ، بنظرات فاحصة ، وكانت الأوراق منمرة ومكتوبة على وجه واحد بطريقة صحفية منظمة ، وليست مربوطة بشريط كما يفعل المستحدثون دائماً ، قال :

— ليست هذه أول تجربة على ما أعتقد !

قالت .

ـ لا ياسيدى ليست هذه أولى تجاربها ، فقد كتبت أكثر من مرة ، ونالت إحدى قصصها الجائزة الأولى فى مجلة « العلم » .

قال داشوود ، وهو يتأمل چو من قمة رأسها إلى أخمص قدميها :

ـ أنالت الجائزة حقاً ؟ ؛ حسناً ، اتركى لنا القصة إن شئت ، ولدينا فى الواقع كثير من هذا النوع ، بل أكثر مما نحتاج إليه ، ولكنى سألقى نظرة على قصتك ، وأبلغك رأيى فى الأسبوع القادم .

ولم تجد چو فى شخصية مستر داشوود ما يشجعها على أن تترك القصة له ، ولكن الموقف اضطرها إلى ذلك ، فحيته وانصرفت ، وقد ارتفع رأسها كما اعتاد أن يرتفع عند ما تتضايق أو تغضب وكانت تحس فى تلك اللحظة بالشعورين معاً ، وذلك لأن نظرات الرجال وابتساماتهم ، جعلتها تعتقد أنهم يستهينون بقصتها ، ويعتبرونها فكاهة تافهة ، وزاد من حرجها أن ودعها رئيس التحرير بضحكة ساخرة تلتها همهمة خافتة . وعادت إلى البيت ، وهى نصف معتزمة ألا تعود إلى هذه المجلة مرة أخرى . وأخذت تسرى عن نفسها بأشغال الإبرة ، وجعلت تشتغل بسرعة وقوة ، فلما انقضت ساعتان ، كانت قد استعادت هدوءها ، وأخذت تضحك مما حدث ، وتتطلع فى مرح إلى موعد الأسبوع القادم .

وحين ذهبت إلى المجلة فى المرة الثانية كان داشوود وحده ، وكان أكثر يقظة من المرة الماضية ، ولم يكن مشغولا بتدخين سيجارة ، بل كان أكثر انتباهاً وملاحظة لدواعى الأدب . فابتهجت چو بذلك ،

ووجدت فى حديثه الثانى ترضية عن لقائه الأول . قال داشوود فى لهجة رجال الأعمال — ورجال الأعمال قلما يتحدثون بلفظة أنا أبداً :

— سنأخذ هذه القصة إذا لم تعارضى فى بعض تغييرات قليلة . إنها طويلة جداً ، وستتحسن بعد أن تحذفى منها الفقرات التى علمت عليها .

ولم تعرف چو مخطوطها إلا بصعوبة كبيرة ، فقد كانت أوراقه مطبقة مشوهة ، وصفحاته مملوءة بالإشارات والعلامات . فانتابها ما ينتاب الأم حين يطلب إليها أن تقطع أطراف وليدها ، ليتفق طوله مع طول المهد الجديد ، وألقت نظرة على الفقرات المطلوب حذفها ، فأدهشها أن تجدها الفقرات التى ضمنتها تأملاتها وأفكارها ، والتى صاغتها بعناية ، لتحفظ بها توازن القصة . قالت :

— ولكن ينبغى أن تكون للقصة مغزى يا سيدى ، وقد حرصت على أن أجعل المذنبين يندمون ويتوبون .

ونسيت چو أمر صديقتها التى كلفتها بتقديم القصة نيابة عنها ، وراحت تتكلم بلهجة المؤلفة المحنكة ، فانفرجت سمات الوقار الذى يلازم رؤساء التحرير عن مستر داشوود وقال لها باسماً :

— إن الناس يقرأون القصة طلباً للتسلية ، لا الموعظة ، والعظات الأخلاقية لا تجد لها سوقاً فى هذه الأيام .

ولم يكن قوله صحيحاً تماماً . فسألته :

— وهل تظن أن التغييرات المقترحة تحسنها ؟

قال داشوود فى رقة وتلطف :

— نعم ، لأن الفكرة جديدة ، والصياغة جيدة ، واللغة حسنة ، وأشياء أخرى .

قالت چو ، وهى لا تكاد تعرف كيف تعبر عن نفسها :

— وما الذى ؟ . . وما هى المكافأة . . ؟

قال داشوود بلهجة من يتدارك أمراً تافهاً نسيه ، ورؤساء التحرير ينسون التواقة دائماً :

— أوه نعم ، نحن ندفع ما بين خمسة وعشرين دولاراً وثلاثين للقصص التى من هذا النوع ، والدفع بعد النشر عادة .

وكانت چو فيما مضى ، تتقاضى دولاراً عن العمود الواحد ، فسرها أن يرتفع ثمن القصة إلى خمسة وعشرين دولاراً ، فقالت راضية :

— حسناً ، تستطيع أن تأخذها .

ثم عادت تسأله ، وقد شجعها نجاحها :

— وهل أخبر صديقتى أنك على استعداد لشراء قصة أخرى ، إذا كان لديها واحدة أحسن من هذه ؟

قال :

— لن نعد بشىء ، ولكننا سننظر فى أمر ماتقدمه لنا . . واطلبى إليها أن تختصر فى قصصها ، وتكثر من المسليات ، وتتجنب المواعظ .

وسكت برهة ثم أضاف بغير مبالاة :

— وبأى اسم تحب صديقتك أن تنشر قصتها ؟

واحمر وجه چو رغماً عنها ، وقالت :

— بدون اسم إذا سمحت ، فهى لا تحب أن ينشر اسمها ، وليس لها اسم مستعار .

قال مستر داشوود ، وفى نفسه شوق إلى معرفة الكاتبة الجديدة ، التى تؤلف القصص :

— ليكن ما تريد ، وسنشر القصة فى الأسبوع القادم ، فهل تأتين لتسلم النقود ، أو نرسلها إليك ؟

وحسمت چو الأمر قائلة :

— بل سأمر عليك . . أسعدت صباحاً .

وما كادت تنصرف حتى قال مستر داشوود ، وهو يضع رجليه فوق المكتب : « فقيرة ومتكبرة كالمعتاد ، ولكنها كاتبة لا بأس بها » .

وألقت چو بنفسها فى لجة الأدب المثير طبقاً لتعليمات مستر داشوود ، واتخذت من مسز نورثبيرى مثلا تحتذيه ، ولكنها استطاعت أن تصل شاطئ الأمان ثانية بفضل المساعدة القيمة التى قدمها إليها صديق .

كانت چو — ككل الكتاب الشبان — تختار شخصيات قصصها ومكانها من خارج البلاد ، فكان قطاع الطرق واللوردات والغجر والراهبات والدوقات الذين يظهرون على مسرح مؤلفاتها ، من الأجانب دائماً ،

ولكنهم كانوا يلعبون أدوارهم بدقة على قدر الإمكان . ولم يكن قراؤها يهتمون بالتوافه الأخرى كقواعد اللغة والوقفات والاحتمالات ، وكان داشوود يرحب بكتاباتها ، ويسمع لها بأن تملأ أعمدة مجلته بأقل ثمن ممكن ، ولكنه حرص على إخفاء السر الحقيقى فى ترحيبه هذا ، فلم يذكر لها أن أحد كتابه البارزين تركه سعياً وراء أجر أعلى عرضته عليه مجلة أخرى .

وسرعان ما اندمجت چو فى عملها الجديد ، وأقبلت عليه باهتمام شديد ، فامتلأ كيسها بالنقود ، وازداد الرصيد الذى تجمعه من أجل رحلة تسافر فيها أختها بث إلى الجبال فى الصيف القادم . . وكانت چو راضية بحالها كل الرضا ، لا يعكر عليها سوى أنها لم تخبر أهلها بمشروعاتها ، وكانت تشعر أن والدتها لن توافق على هذا العمل ، لذلك آثرت أن تمضى فيه أولا ، ثم تسألها المغفرة بعد ذلك . وكان من السهل عليها أن تحتفظ بسرها ، لأن قصصها كانت تنشر بلا اسم ، ورغم أن مستر داشوود علم بحقيقة هذا الاسم ، لكنه وعدها بالصمت ، ولدهشتها حافظ الرجل على وعده .

وظنت چو أن هذا العمل لا ينطوى على أضرار ، فهى تكتب بإخلاص ، وما فكرت قط أن تخط حرفاً يشعرها بالخزى والخجل ، وكانت تسكن وخزات الضمير بتمثل اللحظة السعيدة ، التى تكشف فيها للأسرة عن مكاسبها ، وتزيح الستار عن سرها المكتوم ضاحكة .

وقد رفض مستر داشوود أى نوع من القصص ، اللهم إلا المثيرة لعواطف الناس ، وأصر على أن تكون المناظر محزنة مفجعة ، وهو ما لا يتأتى بغير التنقيب فى مصائب الحياة وحوادثها فى البر والبحر ، والعلوم والفنون ، وسجلات البوليس ومستشفيات الأمراض العقلية . وسرعان ما تبينت چو أن تجاربها البريئة لم تمكنها إلا من نظرات قليله خاطفة إلى النواحى المفجعة فى الحياة ، فعكفت على سد هذا النقص بهمة فائقة . وفى غمرة حماستها لإيجاد مادة قصصية طريفة ، لتبرزها فى صورة مبتكرة — إن لم تكن بالغة الإتقان — ، راحت تنقب فى جميع الصحف عن الحوادث والجرائم والوقائع ، وأثارت حول نفسها الشبهات فى المكتبات وهى تسأل عن مؤلفات فى السموم ، ثم عكفت على الوجوه التى تصادفها فى الطريق ، والشخصيات التى تمر بها ، تدرسها بدقة واهتمام . . ولم تقف عند هذا الحد ، بل ذهبت إلى أبعد منه ، فانغمست فى أتربة التاريخ بحثاً عن قصص قديمة تقدمها إلى قرائها ، وأقحمت نفسها فى دراسة كل ضروب الهوس والخطيئة والتعاسة ، بقدر ما سمحت لها ظروفها ، وكل غرضها من ذلك ، أن تعثر على حقائق وعبر تعينها على بلوغ مأربها فى كتابة القصص المثيرة . وخيل إليها أنها قد نجحت فيما تريد ، ولكنها كانت تخشى فى أعماق نفسها ، بأنها أقدمت على استباحة حمى المقومات الأساسية لشخصية المرأة ، إذ كانت تعيش فى عالم منحط . ورغم أنه كان عالماً خيالياً ، إلا أنها تأثرت به ، وتركته يستولى بحقائقه الخطيرة على

عقلها ومشاعرها ، ويمسح بمعانية الخشنة براءتها الجميلة ، ويكشف لها قبل الأوان عن مساوئ البشرية ، وهى الجانب الأسود من الحياة ، الذى سرعان ما يتكشف لنا جميعاً .

وبدأت چو تحس بهذا الجانب الأسود دون أن تراه ، فإن انصرافها إلى وصف عواطف الآخرين ، والتعمق فى سبر أغوار مشاعرهم ، كان يحملها على التأمل والتعمق فى دراسة نفسها ، ويدفعها إلى تحليل عواطفها وإحساساتها ، وتلك تسلية سقيمة لا تلجأ إليها العقول الفتية السليمة إلا مكرهة . والخطايا تجلب وراءها دائماً العقاب الرادع ، وقد نالت چو نصيبها من العقاب عند ما آن الأوان .

ولست أدرى ما إذا كانت دراستها لشكسبير هى التى عاونتها على قراءة الشخصية ، أم تكون قد اندفعت إلى ذلك بوحى الغريزة النسوية الذواقة لكل ما فى الحياة من معانى الأمانة والشجاعة والقوة . ومهما يكن من شىء فقد استطاعت چو — وهى تخلع على أبطالها الخياليين كل كمال تحت الشمس — ، أن تكشف بطلا حياً أثار اهتمامها على الرغم من نقائصه الإنسانية . وكان الأستاذ باير قد نصحها فى معرض الحديث بأن تدرس الشخصيات البسيطة الصادقة المحبوبة ، أينما وجدتها ، وقال لها إن هذه الدراسة أفضل مران للكاتب . وأخذته چو عند كلمته ، والتفتت إليه فى هدوء ، وبدأت تدرس شخصيته ؛ ولو علم الأستاذ بما أقدمت عليه ، لأخذه العجب كل مأخذ ، فقد كان الرجل متواضعاً

جداً حتى فى غروره .

وكان السر فى محبة الناس له أول ما يحير چو فى أمره ، إذ لم يكن الرجل غنياً أو عظيماً ، أو صغيراً أو وسيماً ، حتى تجتمع القلوب حوله ، ولكنه كان جذاباً يقبل الناس على معرفته ، ويطمئنون إلى صحبته ، وكان فقيراً ، ولكنه كان يبدو دائماً سخياً . . . وكان أجنبياً ؛ ولكنه كان صديقاً للناس كلهم . . . وكان كهلاً ، ولكنه كان يفوق الشباب مرحاً وفتوة . ولم يكن وسيماً ؛ ولكن عيون الأصدقاء تراه دائماً جميلاً جذاباً .

وكانت چو تراقبه ، عسى أن تكتشف السر فى محبة الناس له ، وأخيراً قررت أن روح الخير فى نفسه ، هى التى صنعت المعجزة : فقد كان يطوى صدره على آلامه ، ولا يلقى العالم إلا بوجه باش مستبشر ، وكان جبينه العريض عامراً بالغضون والتجاعيد ، ولكن يبدو أن الزمن ترفق به ، لعطفه وحنانه على الآخرين . وعلى العموم كان أقرب إلى القديس منه إلى الإنسان العادى ، فالغضون المنتشرة حول فمه ، تبدو كأنها ذكريات حلوة لحسن صنائعه وجمائله ، ونظراته خالية من القسوة والمرارة ، وقبضة يده القوية أبلغ من العطف والكلام . وحتى ملابسه بدت كأنها تساهم فى إبراز شخصيته السمحة ، فصداره الفضفاض يُوحى بقلبه الكبير ، وسترته العتيقة تنم عن روح اجتماعية ، وجيوبه الكبيرة المتهدلة تدل بوضوح على أن الأيدى الصغيرة تدخل فيها خاوية وتخرج منها عامرة . وأحذيته هى الأخرى كان رفيقة سخية ، وبنيقته لم تكن أبداً

منشاة ولاجافة شآن بقية الناس . قالت چو لنفسها : « هذا هو السر ! »

وهكذا اكتشفت أن طيبة القلب وصفاء الروح ونقاوة الشخصية ، تجمل صاحبها ، وتضفى عليه حسناً واحتراماً ووقاراً ، حتى إذا كان صاحبها هذا هو الأستاذ الألمانى الذى يلتهم طعامه بشراهة ، ويرتق جواربه بنفسه ، ويحمل اسم باير !

وكانت چو تقدر طيبة النفس حق قدرها ، ولكنها كانت تحترم الثقافة أيضاً ، ولذلك تضاعف تقديرها له ، عند ما اكتشفت مبلغ تضلعه فى العلوم والمعارف ، وخبرت بنفسها كنوزه الذهنية الوفيرة . ولم يكن من طبع الأستاذ أن يتحدث عن نفسه ، ولذلك لم يكن أحد يعرف بمكانته الرفيعة بين قومه ، ولا بتقديرهم العظيم لعلمه ونزاهته واستقامته ، وظلت هذه الحقائق مجهولة لأهل البيت ، حتى جاء أحد مواطنيه لزيارته ، وذكرها مع معرض الحديث مع مس نورتون . ومن مس نورتون عرفت چو هذه الحقائق التى لم يشأ مستر باير أن يذكرها مرة واحدة ، فازداد تقدير الفتاة له وتضاعف إعجابها به ، وأحست بالفخار لأن صديقها كان أستاذاً نابغاً فى برلين قبل أن يصير مدرساً فقيراً فى أمريكا .

وأتاحت الظروف لچو أن تعرف فى صديقها موهبة أخرى أحسن من الثقافة ، وجاء ذلك بطريق المصادفة ، فقد كانت مس نورتون على صلة وثيقة بالأوساط الأدبية الكبيرة ، وكانت تعطف على چو الطموح وصديقها الأستاذ باير ، وتضفى عليهما مكرمات كثيرة ، ومن ذلك أن

صحبتهما ذات ليلة إلى إحدى الندوات الأدبية المختارة ، التى عقدت تكريماً لبعض المشاهير من الأدباء .

وذهبت چو وفى عزمها أن تنحنى احتراماً لهؤلاء العظماء ، الذين قدستهم بكل ما فى نفسها من حماسة الشباب وفورته ، ولكنها اكتشفت أنهم كغيرهم من عامة الناس ، فأصيب تقديسها لعبقرياتهم بصدمة عنيفة لم تشف منها إلا بعد وقت طويل . وتصوروا مبلغ استيائها واستنكارها حين تطلعت بإعجاب وخجل إلى شاعر عظيم ، طالما خلبت أبياته الرائعة لبها ، وجعلتها تظن أنه مخلوق أثيرى يقتات — على حد قوله فى أشعاره — « بالروح والنار والندى » . . . فإذا بها تراه يلتهم طعامه فى نهم مخجل أزال عن وجهه معانى الشعر والخيال . وحين تحولت عن هذا المعبود ، الذى سقط من عليائه محطماً ، روعتها اكتشافات أخرى بددت أوهامها وخيالاتها ، وقضت على احترامها للآلهة المزعومة : إذ رأت كاتباً قصصياً شهيراً يتردد بانتظام بين قنينتين من الشراب ، كأنه « بندول » الساعة . وكان القصصى الشهير يغازل علناً كاتبة معروفة ، وتلك تنظر شزراً إلى أخرى أخذت تنتقدها وتسخر منها ، بعد أن قهرت جهودها فى الاستيلاء على قلب الفيلسوف العظيم الذى جلس يحتسى الشاى متناوماً . وكان بين الحاضرين مشاهير العلماء ، ولكنهم نسوا حيواناتهم اللافقرية ، وأهملوا العصور الحجرية والجليدية ، وأخذوا يتحدثون عن الفنون ، وهم فى شغل شاغل بالتهام المحار والمثلجات . أما

الموسيقار الشاب الذى كان يطرب المدينة بأنغامه السحرية ، فقد انصرف إلى الحديث عن الخيول ؛ وكان أقرب الحاضرين شبهاً بالمخلوقات البشرية العادية نبيل إنجليزى جاء الندوة ليشترك فيها .

وقبل أن ينتصف الليل بقليل ، أحست چو بالانهيار ، فجلست فى ركن من القاعة تجمع شتات نفسها ، وسرعان ما انضم إليها مستر باير ، وقد بدا قلقاً على غير عادته . ولم يلبث عدد من الفلاسفة أن جلسوا إلى ندوة أدبية ، وجعلوا يتناقشون فى أمور لم تفهمها چو ، ولكنها حرصت على الإصغاء إليها ، فأصابتها أحاديثهم عن الموضوعية والشخصية بصداع شديد فى رأسها ، خيل إليها معه أن العالم تمزق إرْباً إرْباً ، ثم أعيد تكوينه على أسس جديدة أفضل ، كما يدعى المتحدثون . وكان النقاش يدور حول وجوب سيطرة العقل دون الدين ، ولم تكن چو تعرف شيئاً عن الفلسفة أو الروحانيات ، أو غيرها من الجوانب الشائكة ، فأحست وهى تستمع إليهم بانفعال غريب بعضه مبهم وبعضه مؤلم ، وبدت كأنها معلقة بين السماء والأرض ، تضطرب بين الزمان والمكان كريشة فى مهب الريح . واستفاقت لنفسها ، ونظرت إلى الأستاذ تتبين وقع هذه الأحاديث عليه ، فوجدته يحملق فى وجهها فى تجهم شديد ، وهز رأسه ، وأشار إليها أن تنصرف ، ولكنها كانت حينئذ مبتهجة بحرية الفكر التى تنتهكها الفلسفة النظرية . وكانت المقدمات لافتة للنظر ، فتشبثت بمقعدها ، لتتابع حديث المتحدث الفيلسوف ، وترى على ما سيعتمد بعد

أن هز المبادئ ، وقضى على جميع المعتقدات القديمة .

وبدا الشك واضحاً فى وجه الأستاذ بايز ، ولكنه تباطأ فى عرض آرائه وأفكاره ، لا لأنها لم تكن منسقة ولا منسجمة ، بل لأنها كانت مخلصة صادقة ، وليس من اليسير أن يدلى بها على مسمع من الشبان المأخوذين بأساليب الفلاسفة البراقة . وقطب جبينه فى صمت ، لأنه كان يخشى أن يتأثر بعض الشبان المتحمسين بهذه الصواريخ المحرقة ، فيخرجوا من أحاديث الفلاسفة بنفوس خاوية وقلوب فارغة .

واحتمل الأستاذ الموقف قدر ما يستطيع ، ولكن حين دعى لإبداء رأيه ، انفجر فى حماسة وأمانة ، يدافع عن الدين بكل ما أوتى من فصاحة الحق ، فأضفى الإيمان على لغته الإنجليزية الركيكة نغماً موسيقياً ، وأفاض على وجهه العادى جمالاً . واحتدم النقاش بينه وبين الفلاسفة ، واشتدت مهارتهم فى محاورته ومداورته ، ولكنه لم يكن يرضى بالهزيمة مختاراً ، فصمد للدفاع عن آرائه بعظمة وجلال . وأحست چو ، وهو يتحدث ، أن ميزان الأمور عاد إلى سيرته الطبيعية الأولى ، وأن المعتقدات القديمة استعادت مكانتها الخالدة فوق أطلال الجديد ، وأن الله ليس قوة غاشمة ، والخلود حقيقة لا خرافة . وشعرت چو أن الأرض تثبت تحت قدميها ، وأنها استعادت توازنها ، ولم تعد مثل ريشة فى مهب الرياح ؛ وحين توقف عن الكلام مغلوباً على أمره دون اقتناع ، لم تصفق له چو ولم تشكره ، ولكن موقفه العظيم زاد احترامها له .

كانت تعرف كم كلفه هذا الموقف من جهد لا يرغب فيه ، فلولا ضيقه بما سمع ، ما وقف وما تكلم . وبدأت چو تدرك أن كمال الشخصية أثمن من الثراء والجمال والجاه ، وأنه إذا كانت العظمة — كما عرفها أحد الحكماء — هى الصدق والإخلاص والاحترام ، فصديقها فريدريك باير ليس طيباً فحسب ، ولكنه عظيم أيضاً .

ونما إيمانها بعظمته يوماً بعد يوم ، فكانت تقدر ميزاته حق التقدير ، وتعتز باحترامه لها ، وتود أن تكون خليقة بصداقته . وحين بلغت هذه الرغبة بنفسها غايتها ، أوشكت أن تفقد كل شىء فى لحظة خاطفة : فقد حدث ذات مساء أن جاءها الأستاذ ، يعطيها درساً فى الألمانية ، فدخل الحجرة وعلى رأسه قبعة من الورق ألبستها له تينا ، ونسى أن يخلعها .

ونظرت إليه چو ، وقالت فى نفسها : « من الواضح أنه لا ينظر فى مرآته قبل أن يغادر غرفته » . وابتسمت وهو يقول لها :

— أسعدت مساء يا آنسة .

ثم جلست فى تؤدة واتزان ، غير آبهة بالمفارقة المضحكة بين موضوع الدرس وبين لباس الرأس ، إذ كان معتزماً أن يقرأ لها قصيدة الشاعر شيللر عن « موت وولنشتاين » .

ولم تقل شيئاً أول الأمر ، وقررت أن تتركه حتى يكتشف القبعة بنفسه ، فيضحك عالياً كما اعتاد فى مثل هذه المواقف . ولم تلبث

قصيدة شيللر أن شغلتها عن القبعة ، فاندمجت فيها بروحها وفكرها ، ثم انتهى الشعر ، وبدأ الدرس ، وكانت چو مرحة فى تلك الليلة ، وزادتها قبعته مرحاً على مرح ، فراحت تنظر إليه بعينين عامرتين بالبهجة والسرور وتوقف الأستاذ عن الدرس ، وقال لها بدهشة :

— مس مارش ، أى شىء يضحكك فى وجه أستاذك ؟ ألا تحترمينى حتى تسلكى معى هذا المسلك ؟

قالت چو :

— وكيف أحترمك يا سيدى ، وقد نسيت أن تخلع قبعتك ! ؟

ورفع الأستاذ يده إلى رأسه ، وتحسس القبعة فى وقار ، فلما أدرك ما حدث ، خلع القبعة ، وامسكها بيده لحظة ، ثم قهقه ضاحكاً وقال :

— لقد وضعتها العفريتة تينا على رأسى ، فجعلتنى أضحوكة لك . إنه أمر بسيط على كل حال ، ولكن اعلمى أنك ستلبسينها إذا لم تحسنى درسك اليوم .

ولكن الدرس لم يستأنف مرة ثانية ، إذ التقى نظر مستر باير بصورة مطبوعة على ورق القبعة ، فقال باستياء واضح :

— وددت لو لم تأت هذه المجلات إلى البيت ، فهى ضارة بالأطفال ، ولا يصح أن يقرأها الشباب . إنها مجلات تافهة لا خير فيها ، ونفسى تضيق بمن يحدثون هذه الإساءات والأضرار .

وتطلعت چو إلى الصحيفة التى صنعت منها القبعة ، فرأت فيها صورة

سخيفة ، تتألف من خيول وحشية ورجل شرير وأفعى . . . فقلبت الصفحة ، ولكنها لم تفعل ذلك نقمة على الصورة ، بل خيفة أن تكون الورقة من مجلة « البركان الأسبوعى » التى تكتب فيها قصصها . وزالت مخاوفها عند ما تبين لها أن الورقة ليست من المجلة المذكورة ، وعاودها اطمئنانها الكامل حين تذكرت أنها لا تضع اسمها على قصصها ، ومن ثم فلا يحتمل أن ينكشف أمرها . ولكنها فى الواقع نمت عن سرها بنظرة من القلق التى ارتسمت فى عينيها ، وبالحمرة التى كست خديها ، وكان الأستاذ — على ما يظهر به من شرود الذهن — يدرك من الأمور أكثر مما يظن الناس ، ويعرف بأن چو تكتب للصحف ، وطالما قابلها فى دور المجلات ولما لم تحدثه بالموضوع من تلقاء نفسها ، اختار أن يسكت ، على الرغم مما يشتعل بين جوانحه من رغبة فى الاطلاع على ما تكتب . وخاف فى تلك اللحظة أن تكون الفتاة قد تورطت فى كتابات تخجل من الإفصاح عنها ، فأقلقه هذا الخاطر ، ولكنه لم يقل لنفسه كما يقول معظم الناس : « هذا شأنها الخاص ، وليس لى دخل فيه » . . . بل تذكر شيئاً واحداً فى هذا المقام ، هو أنها شابة فقيرة تعيش بعيداً عن رعاية أهلها وإرشادهم ، وأحس بدافع يدفعه إلى مساعدتها ، وكان دافعاً طبيعياً سريعاً كالذى يجعلك تمد يدك لإنقاذ طفل على وشك السقوط فى الماء . وجالت كل هذه الأفكار بذهنه فى لحظة واحدة ، ولم يظهر لها أى أثر على وجهه ، ولكن فى الوقت الذى قلبت چو فيه الصحيفة ، وعادت إلى إبرتها تطرز

من جديد ، قال لها بجد وهدوء :

– نعم ، أنت محقة فى إبعاد هذه الأوراق عنك ، فما يصح أن تقرأها شابة فاضلة ، إن موضوعاتها تكتب لتسلية نوع خاص من الناس ، ولو كان الأمر بيدى ، لفضلت أن أعطى أولادى بارودًا يتلهون به ، فضرره أقل من هذا اللغو الشرير .

قالت چو ، وهى تطرز فى سرعة مضاعفة :

– إنه لغو فارغ فحسب ، ولكن ليس كل ما يكتب شرًا كما تعتقد ، وما دام الجمهور يطلب هذا اللون ، فلا ضرر من كتابته . إنى أعرف أناسًا محترمين يكسبون عيشًا شريفًا من كتابة ما يسمى بالقصص المثيرة .

قال :

– إن الوسكى مطلوب أيضًا ، ولكن مثلك ومثلى لا يرضى ببيعه ، ولو عرف الناس المحترمون كم يضرون غيرهم بما يكتبون ، ما اعتبروا كسب عيشهم شريفًا ، فليس من حقهم أن يضعوا السم فى الحلوى ، ثم يطعموا به أولادًا صغارًا . وأفضل لهؤلاء أن يشتغلوا بكنس الشوارع ، من أن يعيشوا فى رخاء عن هذا الطريق القذر الوضيع .

وكان مستر باير يتكلم بحرارة وإيمان ، وبعد أن كور الورقة فى يده ، ألقى بها فى نار المدفأة ، فجلست چو صامتة ، وقد أحست بأن اللهيب انتقل إلى خديها ، وظل وجهها متوهجًا بنيران الخجل ، حتى بعد أن تحولت القبعة إلى دخان تسرب من المدخنة بسلام .

قال الأستاذ ، وهو يعود إلى مقعده مرتاح النفس :

ــ بودى لو أستطيع أن ألقى كل المجلات الضارة فى النار ، لتلقى مصير هذه الورقة .

وطافت برأس چو صورة النيران وهى تتغذى بقصصها الكثيرة ، وثقلت على ضميرها فى تلك اللحظة ، وطأة المال الذى كسبته بكدها واجتهادها ، ولكنها قالت وهى تعزى نفسها : « ليست قصصى من الطراز الذى يعنيه ، فهى حقيقة تافهة ، ولكنها لا تضر » . وتناولت كتابها ، وقالت للأستاذ بوجه ينم عن رغبة فى الدرس :

ــ ألا نستأنف القراءة يا سيدى ، أننى على استعداد ، وسأكون عند حسن ظنك كمالا ونظاماً .

قال الأستاذ :

ــ أرجو ذلك .

ولم يزد حرفاً واحداً ، ولكنها استشعرت من الكلمتين معانى كثيرة ، وخيل إليها أنها ترى « البركان الأسبوعى » مطبوعة على جبينه العريض العطوف بأحرف بارزة .

وما كادت چو تعود إلى حجرتها ، حتى أخرجت أوراقها ، وأعادت كل قصة من قصصها بمنتهى العناية والدقة . ولما كان مستر بايز ضعيف النظر ، فقد كان يستعمل فى بعض الأحيان نظاراته ، وقد جربت چو هذه النظارات مرة ، وابتسمت حين رأت كيف تكبر الحروف الدقيقة ،

ويبدو أنها استعانت فى مراجعة قصصها هذه الليلة بنظارات الأستاذ العقلية والخلقية ، فتجسمت لها أضرار هذه القصص التعسة بشكل يملأ النفس زراية واستنكاراً . قالت لنفسها : « إنها لغو وعبث ، ولكنها ستصير أسوأ إذا مضيت فى هذا الطريق ، فكل قصة أكثر استثارة من سابقتها ، والأخيرة أفظعها كلها . لقد طلبت المال على غير هدى ، فآذيت نفسى وجلبت الأذى للآخرين ؛ ولست أشك فى ذلك ، فأنا لا أستطيع أن أقرأها دون أن يتملكنى خجل رهيب مما حوت . ترى ماذا أفعل لو رأى أهلى هذه القصص ، أو وقعت فى يد مستر بايز ؟

ودار رأس چو لمجرد التفكير فى هذا ، فقامت إلى أوراقها تحملها ، ثم أسلمتها كلها طعمة للنيران ، وكانت غذاءً دسماً ارتفعت له ألسنة اللهيب حتى بلغت المدخنة . قالت تحدث نفسها وهى ترى النيران تلتهم قصصها الواحدة بعد الأخرى : « نعم ، هذا خير مكان لمثل هذا اللغو المثير ، وخير لى أن أحرق البيت من أساسه ، من أن أترك الناس ينسفون أنفسهم بهذا البارود الذى أقدمه لهم . »

وجلست چو على الأرض فى هدوء واتزان بعد أن ذهب إنتاجها الفكرى ، ولم يبق من مجهود ثلاثة شهور إلا رماد تذرور الرياح ، وحفنة من المال جاءتها عن طريق تأليف سخيف . وأخذت چو تفكر فيما هى فاعلة بكسبها الحلال ، قالت لنفسها : « لم أحدث ضرراً كثيراً بعد ، ومن حقى أن أحتفظ بهذا المال ، لأستعين به على الزمن » .

ثم قالت بعد تأمل وتفكير طويل : « وددت لو لم يكن لى هذا الضمير المزعج ، فإنه يغرينى بالخير ، ويؤنبنى على الشر ، وبذلك يعوقنى عن النجاح . آه لو لم يكن والداى متشددين فى مراعاة المقاييس الخلقية ! »

ولكن چو لم تسترسل مع هذه التأملات طويلا ، وحمدت الله على وجود أبيها وأمها ، وأشفقت من كل قلبها ، على من ليس لهم رعاة يرشدونهم ويوقظون الوازع الطيب فى نفوسهم ، ويحسنون تنشئتهم على مبادئ كريمة قد تبدو فى سن الصغر قيوداً وأغلالا ، ولكنها تتحول فى مرحلة النضج إلى أقوى أساس فى بناء الشخصية الكاملة .

وكفت چو عن كتابة القصص المثيرة ، بعد أن أقنعت نفسها بأن الأجر الذى تتقاضاه عليها لا يساوى الجهد الذى تبذله فيها ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، شأن مثيلاتها من الفتيات الطيبات ، فعكفت على دراسة مؤلفات الكاتبات العظيمات ، ثم أنتجت قصة كان أولى بها أن تسميها رسالة أو موعظة ، لما حوته من تبشير بالفضائل الخلقية . وكانت چو منذ البداية تشك فى إمكان نجاحها ، بعد أن عجز خيالها الخصيب عن تلبية مطالب أسلوبها الجديد ، وعندما انتهت من كتابة القصة ، طافت بها عدة أسواق ، ولكنها لم تجد من يشتريها ، مما أقنعها بصدق ما قاله مستر داشوود من أن المواعظ الخلقية لا تجد من الناس رواجاً وإقبالا .

وأعملت چو قلمها فى كتابة قصص للأطفال ، وكان من السهل أن

تبيعها لو لم تستول عليها النزعة التجارية ، وتطلب الكسب من ورائها . وكان الرجل الوحيد الذى قبل أن يعطيها ما تراه مناسباً ، سيداً متزمتاً ظن أنه بعث لتبشير العالم بمذهبه الخاص . ومع صدق رغبة چو فى الكتابة للأطفال ، لم تقبل ما اقترحه عليها من أن تلقى بالأبطال الصغار العاصين إلى الدببة تنهش لحومهم ، أو إلى الثيران الهائجة تصرعهم ، لا لذنب إلا أنهم تخلفوا عن المدرسة يوماً فى الأسبوع . لا ، لم يرض لها ضميرها بهذا ، وكذلك لم يرض لها منطقها بأن تكفئ الطيبين بعلم الدنيا كلها ، فتؤثرهم فى حياتهم بالفطائر اللذيذة ، وفى موتهم بجنات النعيم . ومن ثم لم تثمر تجربتها الجديدة ، ولم تأت بنتيجة ما ، فوضعت چو قلمها جانباً ، وأغلقت محبرتها ، وقالت بخضوع واستسلام : « إننى لا أعرف شيئاً ، ويجب أن أنتظر حتى أعرف ، وإذا لم يكن فى استطاعتى أن أنتج خيراً من هذا ، فأكرم لى أن أكنس الطرقات ، فأقل ما يقال فى ذلك العمل أنه مهنة شريفة . »

وأثبت قرارها هذا أنها استفادت كثيراً من كبوتها الثانية .

وبينما كانت تطوى صدرها على هذه الثورات الداخلية ، ظلت حياتها الخارجية كثيرة المشاغل خالية من الأحداث كالمعتاد . وكانت تنتابها الكآبة أحياناً ، فلا يشعر بها إلا الأستاذ باير ، الذى كان يرقبها خفية ، ليرى أثر توجيهه فيها ، ومبلغ استفادتها به . وصمدت چو لهذا الامتحان العصيب ، فاطمأن الأستاذ واغتبط ، وبالرغم من أنها لم تشر

إلى الموضوع بكلمة واحدة ، فقد عرف بثاقب فكره أنها كفت عن الكتابة ، وكانت الشواهد على ذلك أن أصابعها خلت من بقع الحبر ، وأنها أصبحت تقضى أمسياتها كلها فى بهو البيت ، وأنه لم يعد يقابلها فى دور الصحف . كما أنها عكفت على الدراسة بصبر وجلد ، وشعر بأنها مشغولة الذهن بأشياء مفيدة وإن لم تكن سارة .

وحرص الأستاذ على مساعدتها ما استطاع ، وأصبح صديقاً مخلصاً لها ، وقد سعدت چو بهذا كل السعادة . فقد هيأت لها صحبته دراسات جديدة مفيدة إلى جانب اللغة الألمانية . وهكذا ألقت القلم جانباً ، وعزفت عن الكتابة ، وبذلك وضعت أساساً قوياً لقصة حياتها الخاصة .

ومضى الشتاء الطويل بهيجاً ، ولم تفارق چو مسز كيرك إلا فى شهر يونية ، وعندما آن أوان رحيلها ، أسف نزلاء البيت جميعهم على فراقها ، واستبد الجزع بالأطفال ، ولم تنجح الحيل فى تلهيتهم . أما الأستاذ ، فقد انتصب شعره فوق رأسه ، إذ كان من عادته أن يجذبه العنف عندما ينتابه القلق .

وحين أبلغته چو نبأ رحيلها ، حزن كثيراً ، وقال فى أسى ظاهر :

ــ ستعودين إلى بيتك ؟ ما أجمل أن يكون للإنسان بيت يعود إليه .

وكان فى عزمها أن ترحل فى الصباح مبكرة ، لذلك ودعت أصدقاءها فى الليلة السابقة ، وحين جاء دوره قالت له فى حرارة :

ــ عدنى بأن تأتى لزيارتنا ، إذا حدث وسافرت يوماً إلى ناحيتنا ،

ولن أغفر لك إذا نسيت ، فإنى أود أن يتعرف أهلى إلى صديقى .

قال وفى عينيه شوق وتلهف :

ــ أحقاً ما تقولين ؟ وهل آتى لزيارتكم ؟

قالت ولم تنتبه إلى نظرته :

ــ نعم ، تعالى فى الشهر القادم ، فحينئذ يكون لورى قد تخرج فى الكلية ، فنستمتع بوقتنا معاً .

سألها بلهجة متغيرة :

ــ أهذا صديقك الحميم الذى تتحدثين عنه فى بعض الأحيان ؟

قالت :

ــ نعم إنه صديقى تيدى ، وأنا فخورة بصداقته ، وأود أن أعرفك به .

ورفعت چو رأسها ، ولم يكن يدور بخلدها إلا السرور الذى خالجها لفكرة لقاء صديقها القديم ، ولكن شيئاً غريباً فى وجه مستر باير وفى نظراته ، أعاد إلى ذاكرتها أن لورى قد يكون أكثر من صديق حميم . ولما كانت حريصة على إخفاء الأمر ، فقد جهدت فى ستر ما يدور بخلدها ، ولكن حمرة الخجل تسربت إلى جبينها على الرغم منها ، وكلما حاولت مقاومتها ، ازداد وجهها احمراراً ، ولولا أن تينا كانت تجلس على ركبتيها ، ما انتهى الموقف بسلام .

ولحسن الحظ تحركت تينا لعناقها ، فأتاحت لها لحظة تخفى فيها وجهها المتقد ، راجية ألا يكون الأستاذ قد لاحظ انفعالها . ولكن رجاءها

لم يتحقق ، فقد رأى الأستاذ خجلها ، لذلك استعاد هدوءه ، وقال فى جد ووقار :

— أخشى أننى لن أجد الوقت لزيارتكم ، ولكنى أرجو لصديقك كل نجاح وسعادة ، وليباركم الله جميعاً .

ثم شد على يدها بحرارة ، وحمل تينا على كتفه وانصرف .

وما أن استغرق الأطفال فى النوم ، حتى جلس الرجل طويلا إلى جانب نيران المدفأة ، وقد بدت فى عينيه مظاهر الإرهاق والسأم ، وأفعم قلبه بمشاعر الحنين إلى الوطن ، وطاف به خيال چو ، وهى تجلس أمامه فى خجل والطفلة على حجرها ، فأسند رأسه إلى يده ، كأنما ناءت به الأشجان . وظل على هذه الحال برهة ، قام بعدها يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً ، كمن يبحث عن شىء فقده . قال لنفسه : « إنها ليست لى ، وليس من حقى أن أتعلق الآن بالأمل » ، وأردف ذلك بزفرة انخلع لها قلبه ، كأنما كان يعنف بها نفسه على صبوة لم يستطع كبتها . ودلف إلى الصغيرتين النائمتين فقبلهما ، وأمسك بغليونه الذى قلما كان يستعمله ، وجلس يدخن فى صمت ، وهو يقلب فى كتاب أفلاطون .

لقد تصرف كأحسن ما ينبغى ، وعالج الموقف برجولة ، ولكن ما أظن أنه وجد فى الطفلين السعيدين أو فى غليونه أو حتى فى أفلاطون المقدس ، عزاءً يعوضه عما تاقت إليه نفسه من الزوجة والولد والبيت .

وفى الصباح الباكر كان فى المحطة يودع چو ، وبذلك جعلها تبدأ

رحلتها المنفردة بذكريات سعيدة عن الوجه المألوف ، الذى ابتسم لها مودعاً ، وبباقة زهور البنفسج أهداها إياها ، فكانت خير أنيس بوحشتها ؛ وأفضل من هـــذا كله أنه أتاح لها فرصة التفكير السليم فى ضوء إرشاده وتعاليمه .

قالت لنفسها :

— حسناً ، قد ذهب الشتاء ، ولم أكتب شيئاً أو أكسب مالا ، ولكنى اكتسبت صديقاً خليقاً بأن أحتفظ به ، وسأحاول أن أحتفظ به ، وأحرص عليه مدى الحياة .

* * *

نساء صغيرات

الجزء الثالث

تأليف لويزا مای ألكوت

ترجمة السيدة أمينة السعيد

فی الجزءين السابقين عرف القراء الأخوات الأربع « ميج » و « بث » و « چو » و « آمی » وأظهر القراء بإقبالهم على القصة أنهم يهتمون لهؤلاء الأخوات .

وفی هذا الجزء يتابع القراء حياة الفتيات ومواقفهن الشيقة ، الفكهة أحياناً ، والمؤثرة أحياناً .

وتنشر هذه القصة فی طبعتها الأنيقة المزينة بالرسوم والصور الملونة ، دار المعارف بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين .

قصة لا بد أن تقرأ

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0315334783

893.785
Al 19
Pt. 3

BOUND

OCT 16 1956